

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

لوكليزيو

Le Clézio

الفائز بجائزة نوبل للأدب لعام 2008

نجمة تائهة

ÉTOILE ERRANTE

رواية

ترجمة: السعيد بوطاجين

نجمه تانهه

ÉTOILE ERRANTE

يتضمن هذا الكتاب "نجمة تائهة"
ترجمة الأصل الفرنسي
Étoile Errante
حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من الناشر
Gallimard

Copyright © Éditions Gallimard, 1992

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Arabic Copyright © 2010 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

Cet ouvrage publié dans le cadre du Programme d'Aide à la Publication Georges Schehadé, bénéficie du soutien du Ministère des Affaires Etrangères et Européennes et du Service de Coopération et d'action Culturelle de l'Ambassade de France au Liban.

يصدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الخارجية الفرنسية والأوروبية والسفارة الفرنسية في لبنان، قسم التعاون والعمل الثقافي وذلك في إطار برنامج جورج شحاده للمساعدة على النشر.

نجمه تائهة

ÉTOILE ERRANTE

رواية

جان ماري غوستاف لوكلوزيو

J M G Le Clézio

الفائز بجائزة نوبل للأداب لعام 2008

ترجمة وتقديم

الدكتور السعيد بوطاجين



منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilaf

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى

1432 هـ - 2011 م

ردمك 9-0131-01-614-978

جميع الحقوق محفوظة

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: <http://www.asp.com.lb>

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الدار العربية للعلوم ناشرون** ش.م.ل.

التنزيذ وفرز الألوان: أبجد جرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

تقديم

تلقي نجمة اليهودية بنجمة العربية في لحظة عابرة شبيهة بحلم، ثم تأتي حياة المحتشدات والمعتقلات والترحّل والأسئلة، تأسيساً على تنويعات سردية واستبدال للساردين بشكل تداولي.

تعود إستير إلى الأرض الموعودة وتلتحق بنجمة بمخيمات اللاجئين الفلسطينيين خلال الحرب، وفي الطريق إلى المأساة والخسارة تبرز فكرة البحث عن الحقيقة الغائبة، تتخلّلها أوبئة وحالات من البؤس والفقدان والوحدة.

حكاية طفلتين يتيمتين من عقيدتين مختلفتين جمعتهما الصدفة في طريق من سحب الغبار، ثم افترقنا في الحال ولم تلتقيا إلا عبر الذاكرة البعيدة والاسمين المدوّنين في كرّاس مدرسي.

وإذ ننقل اليوم هذه الرواية المثيرة إلى العربية، فإنّ الفضل الأول يعود إلى الأستاذ بشار شابارو مدير دار العلوم ببيروت الذي اقترح عليّ ترجمتها قبل أربعة شهور.

لكنّ التعامل مع هذا النوع من النصوص فرض عليّ جهداً إضافياً لم أتوقّعه قبل قراءة المؤلف، ولعلّ أهم عقبة واجهتني هي التقاطعات اللسانية الكثيرة وكثافة أسماء الأعلام والتناسات.

هناك عدّة لغات كتبت بها الرواية أو اعتمدت على أجزاء منها: الفرنسية، العربية، الإسبانية، الإنجليزية، الإيطالية، العبرية، إضافة إلى الدارجة المشرقية في بعض الحالات، ما فرض العودة إلى الدلالات الحقيقية للألفاظ والجمل في سياقات عينية مخصوصة.

بيد أن ذلك يعدّ أقلّ صعوبة مقارنة بتكديس أسماء أعلام خاصة بالقرى والمدن والأشخاص، من حيث أنّ الأحداث تجري في عدّة حدود جغرافية متباينة: فلسطين، إسرائيل، فرنسا، إيطاليا، زيادة على الأماكن التي يستعين بها الكاتب والساردون، تلك التي ترد على مستوى المخيلة لخدمة أحداث حالية، أو لتقوية فكرة ما.

ثمة أكثر من ثلاث مئة اسم علم كان يجب التعامل معها بحذر، بالعودة إلى الخريطة الجغرافية أحيانا، أو باستعمال وسائل الاتصال أو بالسؤال تفاديا لكتابة أسماء خاطئة، وهو أمر حاصل في عدّة ترجمات لا تؤصل لأسباب متباينة تخص أصحابها.

كتب جان ماري غوستاف لولكلوزيو رواية نجمة تائهة بتفاصيل مكانية دقيقة اعتمادا على الخرائط أو الوثائق، أو عن معرفة ومعايشة، الشيء الذي لا يتوفر بالضرورة عند المتلقي، سواء كان قارئاً أو مترجماً. أمّا الأمر الآخر فيخص المقابسات، من حيث أنّ النص مؤثّر بنصوص أخرى مستمدّة من الموروث الغيري بأنواعه وتفرّعاته، ما فرض العودة إلى النصوص الأصلية، كحال التوراة والإنجيل وبعض المقاطع المستمدّة من الموروث الديني أو الشعري، أو من استعمالات التي لها إحالات معيّنة، على المستويين المعجمي والدلالي تفاديا لمسخ المعاني أو التقليل من بعدها الوظيفي.

حافظنا في حالات كثيرة على الخصوصية السردية، خاصة ما تعلق بالتسريع والتبطئة السردية وعلاقتهما بالترقيم (علامات الوقف)، وإذا كانت هناك بنى شبه مفككة أو مضطربة ظاهريا، فلأنّها كانت هدفاً من أهداف الكاتب، وهي ميزة متواترة في الرواية الجديدة الميالة إلى الهدم، على مستوى البنى الزمانية والجمالية، لذا سعينا إلى نقلها بالطريقة اللائقة، دون المساس بخصوصية اللغة العربية وقواعدها.

كما سعيها، في حالات معيّنة، إلى قلب المقاطع الطويلة، أو جزء منها، لغايات بنائية وصوتية. أمّا ما تعلق ببعض الألفاظ والصيغ فقد عملنا على إيجاد تكافؤاتها في العربية، دون تحريف الأصل أو تغييره.

يبقى أن كلّ ترجمة؟، مهما كانت عبقريتها، تظلّ مقارنة من المقاربات الممكنة التي لا يمكن اعتبارها مثالية، لأنّ تموقع المترجم له دوره في كيفية التعامل مع الحقول المعجمية والأبنية والأساليب والمسائل الصوتية والأشكال الجمالية، لذا نعتبر هذه الترجمة أحد هذه الخيارات، ليس إلّا.

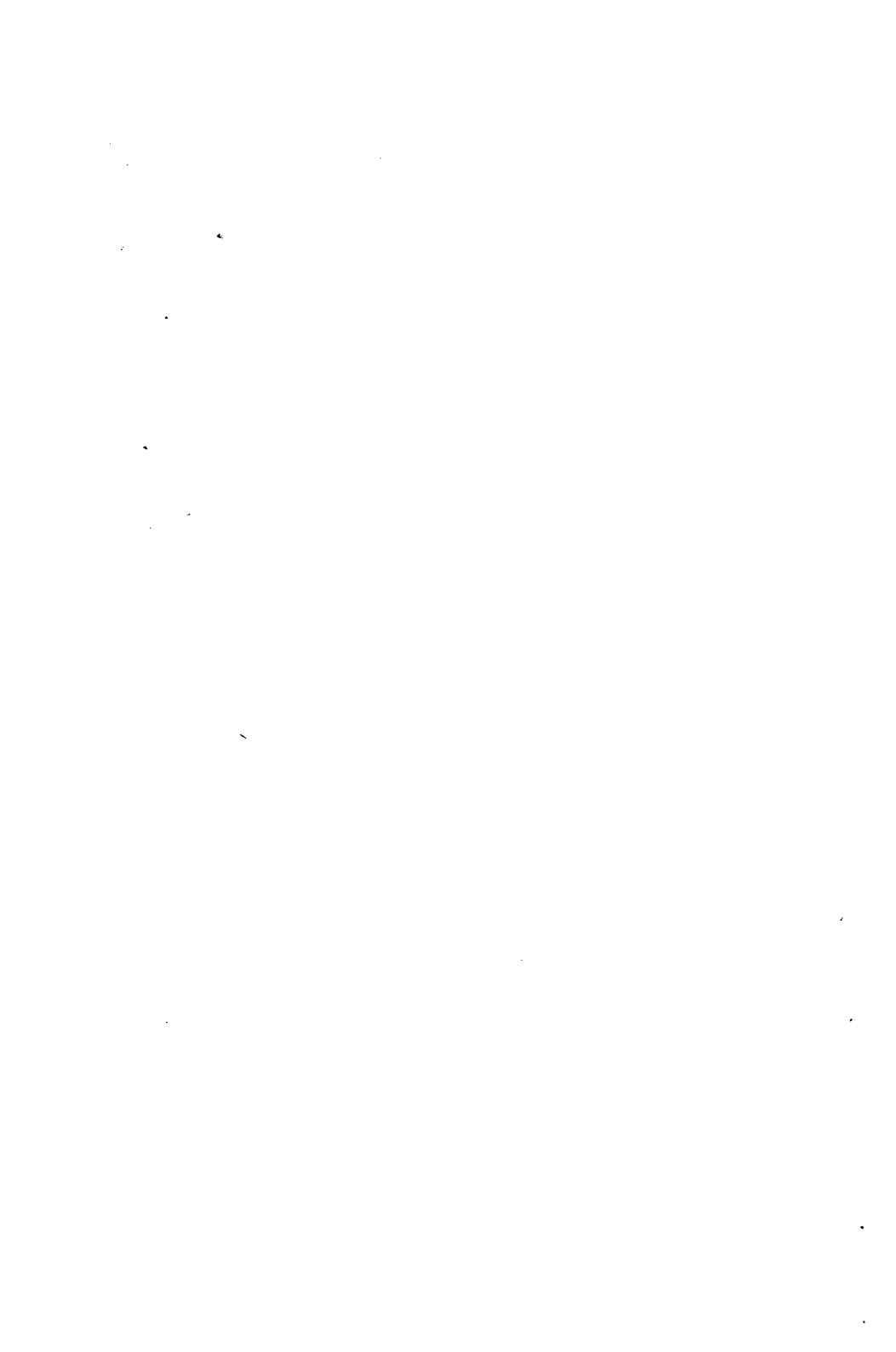
هناك في هذه الترجمة آثار خيانات ضرورية، إذ أنّي اعتبر بعض الخيانات من التقنيات الأساسية التي يجب على المترجم تبنيها، ليس لتحريف الأصل، بل لخدمته وخدمة اللغة الهدف في آن واحد، ولا يمكننا أبدا الحديث عن الأمانة المطلقة إلّا في إطار جانب النقل الإملائي الذي يسيء إلى النصّين معا. هذه الخيانة الجميلة هي التي تحافظ على القواعد والجماليات والبنى الصوتية التي وجب الاهتمام بها.

أملي أن يجد القارئ العربي في هذه الترجمة شيئا من الجهد، مع أنّي مقتنع بما قاله القدامى: لكل شيء إذا ما تمّ نقصان.

نشير إلى أنّنا لم نعلّق على الرواية احتراما للقارئ ومواقفه، خاصة ما تعلق بالمضمون والمعاني والدلالات والأبعاد والمسائل التقنية المتعلّقة بكيفيات السرد. الحكاية حمّالة أوجه والتقييمات مرتبطة بالأذواق والتموقعات.

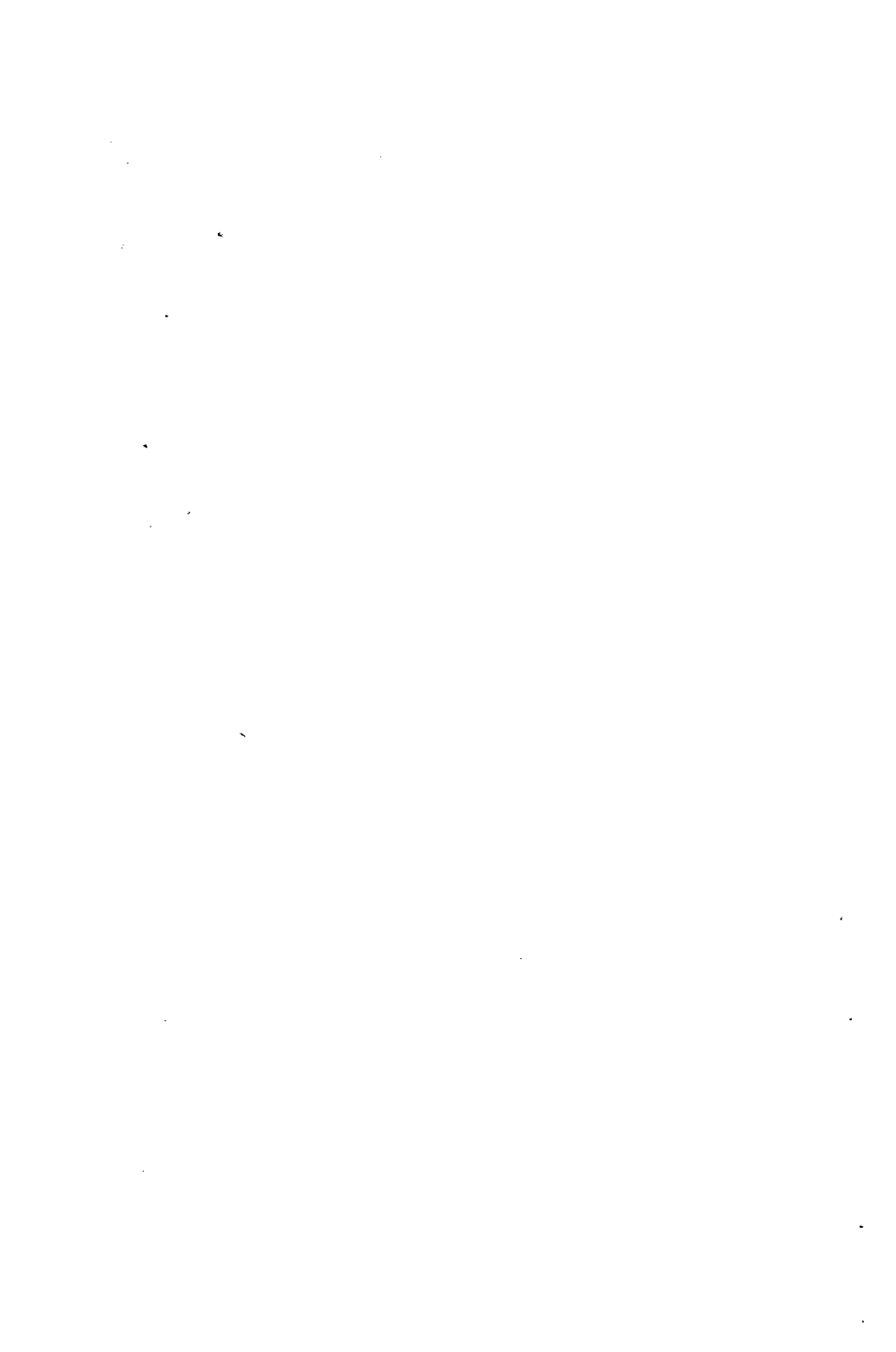
السعيد بوطاجين

الجزائر 2010

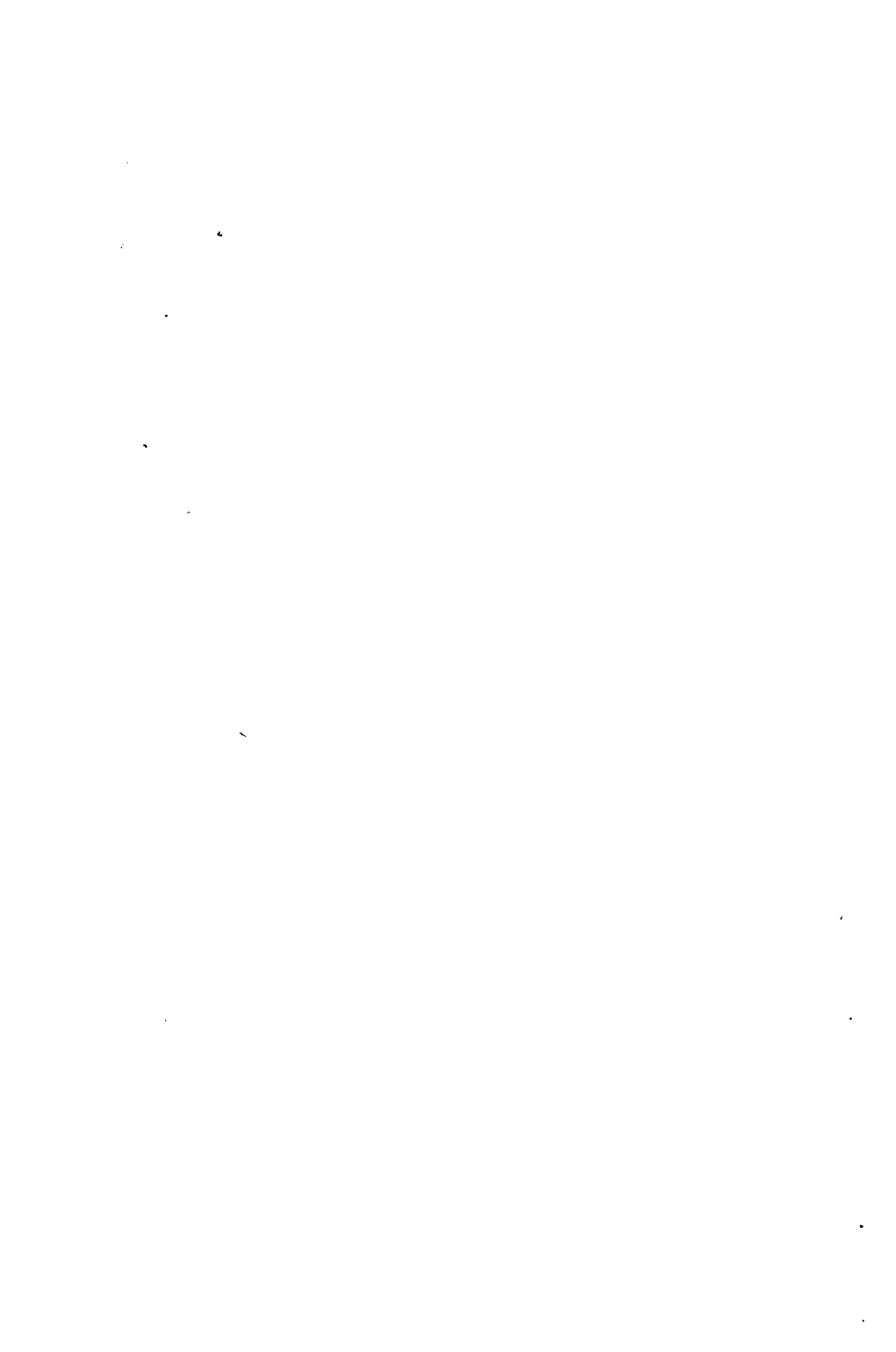


ولد جان ماري غوستاف لوكلوزيو في نيس يوم 13 نيسان
1880، سليل عائلة من بروتون هاجرت إلى نيس في القرن الثامن
عشر.

سافر كثيرا ولم يتوقف عن الكتابة من السابعة أو الثامنة: أشعار،
حكايات، نصوص وقصص لم ينشر أي منها قبل المحضر، أولى رواياته
التي نشرت في أيلول وحصلت على جائزة رونودو عام 1963.
بلغت مؤلفاته حوالي ثلاثين مجلدا، وقد نال عام 1980 الجائزة
الكبرى بول-موران، التي تمنحها الأكاديمية الفرنسية، عن روايته
صحراء.



إلى الأطفال الأسرى



نجمۃ المتشردة

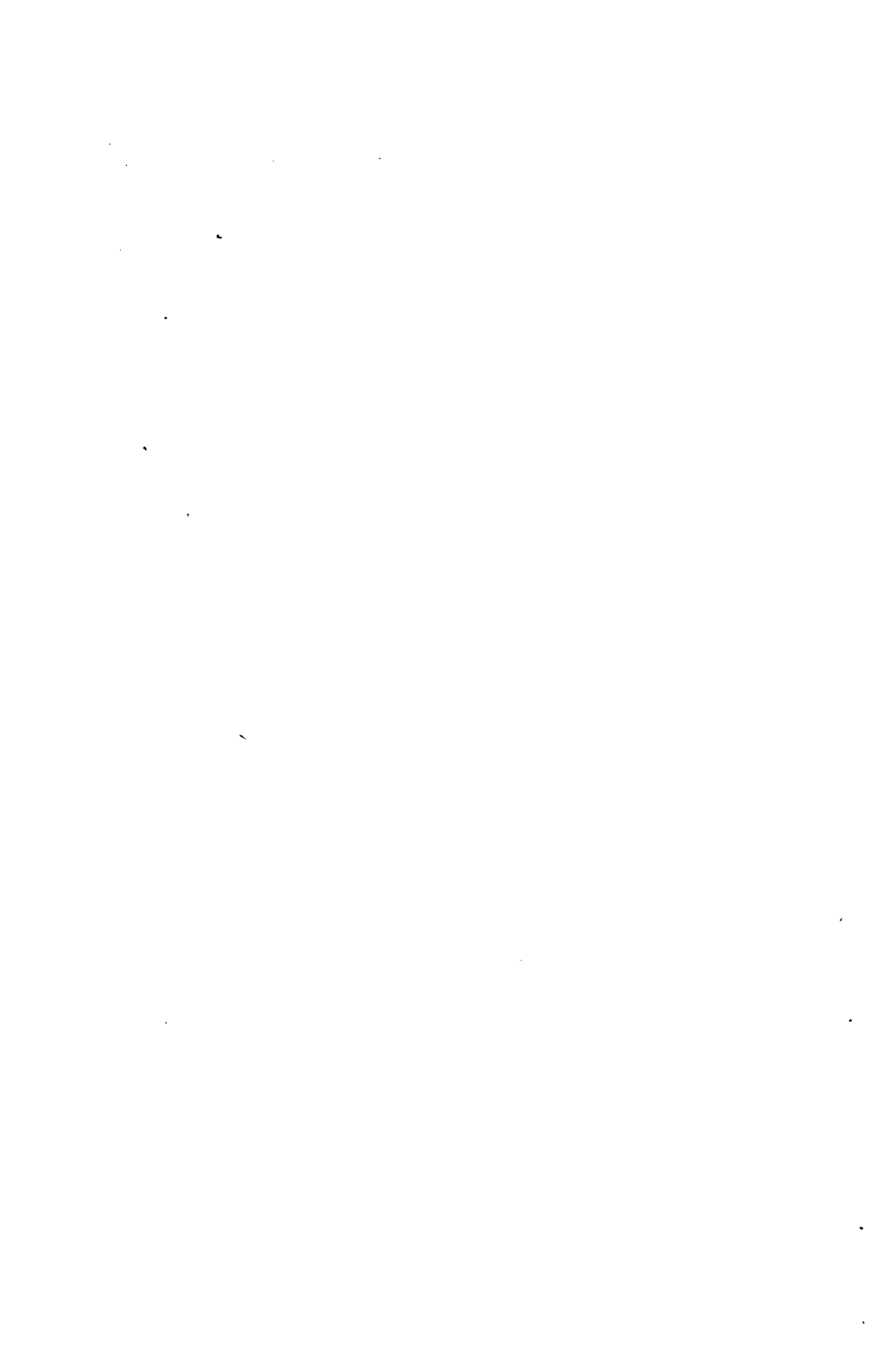
يا حبا عابرا

أتبعي طريقك

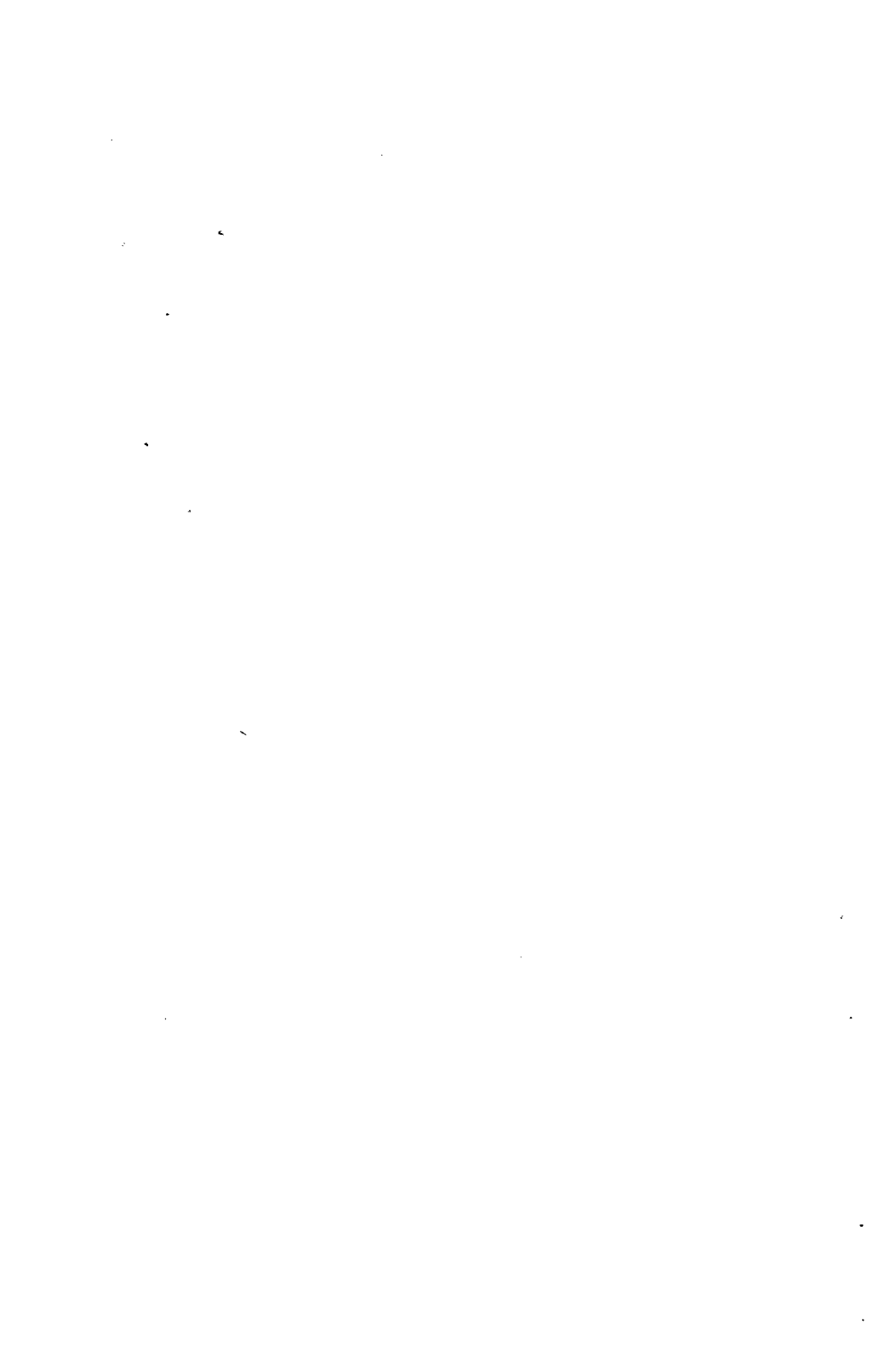
برا وبحرا

وفكّي قيودك

(أغنية بيروفية)



هیلین



سان مارتان - فيزيبي، صيف 1943

كانت تعرف أن فصل الشتاء انقضى عندما سمعت خرير الماء، كان ثلج الشتاء قد غطى القرية، سقوف البيوت، وكانت المروج بيضاء. صنع الجليد هوابط في أطراف السطوح، ثم ابتداءً لهب الشمس، ذاب الجليد وبدأ الماء ينقّط من كل الحواف، من كل الروافد ومن أغصان الشجر، تجتمع القطرات مشكلة فلاجانا تصب في الجداول، والماء يشلّ في كل شوارع القرية.

ربّما كان خرير الماء ذكراها القديمة. تتذكر شتاءها الأول في الجبل وموسيقى الماء في الربيع، متى حدث ذلك؟ كانت تمشي ما بين أبيها وأمها في شارع القرية مادة لهما يدها، وكان ساعدها ينحذب أكثر إلى جهة لأنّ والدها طويل.

ينزل الماء من كل الجهات مؤلفا هذه الموسيقى، هذه المهسهسة، هذا التصفير وهذه النقرات. كانت ترغب في الضحك كلما تذكرت ذلك، لأنّه كان صوتا لطيفا وغريبا مثل دعابة.

تضحك وهي تسير بين أبيها وأمها وماء المزارب يردّ عليها، ينزلق ويتسلسل. والآن مع قيظ الصيف، والسماء ذات اللون الأزرق الباهر، هناك سعادة تُترع الجسد كله، سعادة تكاد تكون مخيفة. كانت تحب أكثر المنحدر الكبير العاشب الذي يتصاعد نحو السماء في أعلى القرية. لا تذهب إلى القمة لأنهم يقولون إنّ هناك أفاع. تمشي لحظة في طرف الحقل، ما يكفي لتشعر بنداوة الأرض والحيوية الحازمة على شفيتها.

الأعشاب في بعض الجهات عالية جدا بحيث تغطيها. كانت في الثالثة عشرة، اسمها هيلين، لكنّ والدها يناديها: إستير. أغلقت المدرسة أبوابها في مطلع يونيو لأنّ المعلم سليغمان أصيب بمرض. كان هناك الشيخ هنريش فان الذي يقدم دروسا في الصباح، بيد أنّه لم يكن يرغب في المجيء لوحده. ستكون العطلة التي ابتدأت عطلة طويلة بالنسبة إلى لأطفال، وأغلبهم لا يعرف أنّها ستنتهي في الموت. كانوا يخرجون يوميا مع طلوع النهار ولا يرجعون إلا في وقت الغذاء على عجلة، ثم يعودون للحري في الحقول أو اللعب في أزقة القرية بكرة قديمة فزروها عدة مرات وتمّ ترقيعها بمطاط عجلة الدراجة. أغلب الأطفال في مطلع الصيف شبه متوحشين، لفحت الشمس الوجوه والسواعد، تشابك الشعر مع العشب، والثياب الرثة لطحها التراب. كانت إستير تحب الذهاب مع الأطفال كل صباح، مع هذا الفريق الشاذ حيث تختلط البنات مع الذكور، والأطفال اليهود مع أطفال القرية، كلهم صاحبون، ممزقو الثياب، كان ذلك قسم السيّد سليغمان.

تجري معهم في الصباح الباكر في الأزقة التي لا تزال ندية، ثم في عرض الساحة، هناك يثيرون الكلاب فتنبح ويجعلون الشيوخ الجالسين تحت الشمس يتدمرون. ينحدرون مع طريق الجدول نحو النهر ويقطعون الحقول إلى غاية المقبرة.

يسبحون في ماء السيل البارد عندما تكون الشمس لافحة، يمكث الذكور هناك وترد الفتيات السيل للاحتباء خلف كتل الصخرة الكبيرة. لكنّهن كن يعرفن أنّ الأولاد سيأتون من جهة العليق لمراقبتهن، كن يسمعن ضحكهم الضيق الأنفاس فيرمين الماء في وجوههم مصادفة وهنّ يطلقن صرخات حادة.

كانت إستير أكثرهن وحشية بشعرها الأسود المشبوك القصير ووجهها الملوّح، وإذ تشاهدها أمها وهي قادمة لتأكل تقول لها: "هيلين، ملامحك ملامح غجرية!" كان والدها يحب ذلك كثيرا فيناديها بالإسبانية: "إستيرليتا، أيتها النجمة الصغيرة".

هو الذي دلّها أول مرّة على حقول العشب الواسعة في أعلى القرية، فوق السيل، وبعيدا يبتدئ الطريق باتجاه الجبال، الطريق المعتم للأرزية، بيد أنّها كانت عالما آخر.

يقول غاسباريني إنّ هناك ذئابا في الغابة في فصل الشتاء، وإن نحن أنصتنا ليلا لسمعناها تعوي بعيدا. لكنّ إستير أصغت عبثا في فراشها ليلا ولم تسمع عوائها أبدا، ربّما بسبب خرير الماء الذي يجري في النبع دون توقف، هناك في وسط الطريق،.

مرّة أخذها أبوها إلى غابة مدخل الوادي، هناك حيث يغدو النهر عصيبا أزرق يثب من صخرة إلى أخرى.

في كل جهة من جهات الوادي كانت الجبال منتصبة مثل أسوار مغطاة بالغابة، دها أبوها على قعر الوادي، سدّم الجبال المتراصة، وقال لها: «من هنا إيطاليا.» حاولت إستير أن تخمّن في ما يمكن أن يوجد خلف الجبال «هل هي بعيدة إيطاليا؟»

قال أبوها: "إن استطعت الطيران مثل العصفور ستصلين إليها هذا المساء، لكن، وبالنسبة إليك، يجب أن تمشي كثيرا، ربّما يومين."

لم تكن نرى الإيطاليين سوى في القرى، كانوا يقطنون في فندق المحطة النهائية، بناية كبيرة بيضاء ذات مصابيح خضراء مشرفة على الساحة. يقضون أغلب وقتهم في الفندق، في قاعة الأكل الكبيرة بالطابق السفلي وهم يتحدثون ويلعبون الورق.

وعندما يكون الطقس جميلا يخرجون إلى الساحة ويذرعونها طولا وعرضا في أفواج من شخصين أو ثلاثة، شرطة وجنودا، وكان الأطفال يسخرون خفية من قبعاتهم المحلاة بريش الديكة.

كان الدركيون الإيطاليون يمزحون قليلا عندما تعبر أمام الفندق إستير وبعض الفتيات وهم يخلطون قليلا من الكلمات الفرنسية بالإيطالية.

وكان على اليهود الوقوف في الطابور أمام الفندق مرّة في اليوم لتسجيل حضورهم ومراقبة بطاقات الجراية. ترافق إستير أمها وأباها في كل مرّة ويدخلون إلى الغرفة الكبيرة المظلمة. وضع الدركيون إحدى طاولات المطعم بمحاذاة الباب، وعلى كل شخص يدخل أن يذكر اسمه ليسجله الشرطي في القائمة.

والحال أن والد إستير لا يحقد على الإيطاليين، يقول إنهم ليسوا أشرارا مثل الألمان. مرّة، خلال اجتماع في المطبخ بيت إستير، ذكر أحدهم الإيطاليين بسوء فاغتاظ أبوها: "اسكتوا، إنهم هم من أنقذوا حياتنا كما أمر الحاكم بتسليمنا للألمان". لكنّه نادرا ما يتحدث عن الحرب، لم يحدث عن اليهود إلا لماما: لأنه لم يؤمن بالدين، وكان شيوعيا.

رفض الوالد عندما أراد السيّد سليغمان تسجيل ابنته في التعليم الديني، هناك إلى حيث يذهب الأطفال اليهود كل مساء، إلى الدارة بأعلى القرية. سخر منها وقتئذ بقية الأطفال، بل قالوا: غوييم، ومعناها "وثني"، وقالوا أيضا: "شيوعي".

تعاركت معهم إستير، إلا أن أبها لم يستسلم واكتفى بالقول: "اتركيهم، سيتعبون قبلك". فعلا، نسي أطفال قسم السيّد سليغمان ولم يذكروا ثانية كلمة "وثني"، ولا كلمة "شيوعي"، زد على ذلك فإن

هناك أطفالا لا يذهبون إلى التعليم الديني، مثل غاسباريني أو ترستان السذي كان نصف إنجليزي، وكانت أمه إيطالية، امرأة جميلة سمراء لها قبعات كبيرة.

تحب إستير السيّد هينريش فيرن بسبب البيانو، كان يقطن في الطبقة السفلى من داره خربة نوعا ما، هناك في أسفل الساحة، في الشارع المنحدر باتجاه المقبرة. لم تكن داره جميلة، كأنها منكوبة بحديقته المهمله التي غزتها نباتات الأفنته، وبمصارع الطابق الموصدة باستمرار.

عندما لا يعلم السيّد فيرن بالمدرسة يظلّ حبيس المطبخ يعزف على البيانو، البيانو الوحيد في القرية، وقد لا يوجد بيانو آخر في أية قرية من القرى الجبلية، إلى غاية نيس ومونت كارلو.

يشاع أنّ الإيطاليين عندما استقروا بالفندق، أراد نقيب الدركيين المسمّى موندوليني، الذي يحب الموسيقى كثيرا، أن يضع البيانو في غرفة الأكل، لكنّ السيّد فيرن قال: «بإمكانكم أن تأخذوا البيانو بطبيعة الحال لأنكم أنتم المنتصرون، ولكن، يجب أن تتأكدوا بأنّي لن أعزف لكم أبدا هناك.»

لم يعزف لأحد. كان يعيش وحيدا في هذه الدارة الخربة، ويحدث في بعض الأحيان، وفي بعض الأماسي عندما تعبر إستير، أن تسمع الموسيقى التي تتعالى من باب المطبخ. كانت مثل تحرير الجدال في الربيع، صوتا دافئا، خفيفا وهاربا، يبدو أنّه يخرج من كل الجهات دفعة واحدة.

تتوقف إستير في الشارع، قرب السياج وتصغي، وعندما ينتهي تذهب بسرعة كي لا يراها. حدثت مرّة أمها عن البيانو، فقالت لها أمها إنّ السيّد فيرن كان عازفا مشهورا في فيينا قبل أعوام، كان ذلك قبل الحرب.

كان يحيي الحفلات ليلا في القاعات التي تردها نساء بفساتين بيضاء ورجال ببدلات سوداء، وعندما دخل الألمان النمسا سجنوا كل اليهود وأخذوا زوجة السيد فيرن، أما هو فقد استطاع أن يفلت منهم، لكنّه، ومنذ ذلك الوقت، لم يعد يرغب في العزف على البيانو لأيّ كان.

لما استقر في القرية لم يكن هناك بيانو، استطاع أن يشتري واحدا من الشاطئي، أحضره في شاحنة صغيرة وقد أخفاه تحت غطاء، ثم وضعه في المطبخ.

الآن وقد عرفت هذا أصبحت إستير تجرؤ قليلا على الاقتراب من السياج، تستمع إلى العلامات الموسيقية، إلى الانزلاق العذب للعلامات، وكانت تشعر أنّ هناك أمرا حزينا يجعل الدموع تصعد إلى عينيها.

الحرارة شديدة بعد الظهر، بدا كل شيء نائما في القرية، في الوقت الذي ذهبت إستير إلى بيت السيد فيرن. كانت هناك في الحديقة توتة كبيرة، صعدت إستير فوق الحائط وهي تتسلق السياج في ظلّ شجرة التوت، أبصرت من خلال النافذة شبح السيد فيرن محنيا على البيانو، وكانت ملامس البيانو العاجية تسطع في الغيش.

تنزلق النوتات، تتردد وتنطلق من جديد، كأنها لغة، كما لو أنّ السيد فيرن لا يعرف بالضبط من أين يبدأ. تنظر إستير إلى المطبخ بكل ما ملكت، إلى أن تؤلمها عيناها. بدأت الموسيقى حينئذ، انبثقت دفعة واحدة من البيانو وملأت البيت بأكمله، الحديقة والشارع، ملأت كل شيء بقوتها، بنظامها، ثم غدت ليّنة وغريبة. إنّها الآن تبث، تتوزع كالماء في الجداول، تذهب مباشرة إلى كبد السماء، إلى غاية السحب لتختلط بالضوء. تذهب إلى كل الجبال، تذهب إلى منابع السيلين. كانت لها قوة الوادي.

كانت إستير تنصت إلى لغة السيّد فيرن ويدها متشبثتان بالسياج
الصدئ. لم يعد حاليا يتحدث مثل معلم المدرسة، إته يقص حكايات
عجيبة لا تستطيع أن تتذكرها، حكايات شبيهة بحكايات حلم.

نشعر في تلك الحكايات بأننا أحرار، لا مجال للحرب، لا مجال
للأسان والإيطالين، لا شيء يثير الخوف أو يوقف الحياة، مع أن هناك
حزنا كذلك. تتوقف الموسيقى وتساءل، هناك لحظات يتمزق فيها كل
شيء، يتشظى ثم يصمت.

تنطلق الموسيقى من جديد، تستمع بانتباه إلى كل لفظة هاربة، ما
كان هناك شيء بهذه الأهمية، ما عدا أغاني أمها، أو عندما كان أبوها
يقرأ لها مقاطع من كتب تفضلها، مثل دخول السيّد بيكويش سجن
لندن، أو لقاء نيكولد ناكليبي بعمه.

دفعت إستير السياج واجتازت الحديقة، دخلت إلى المطبخ
ومشت إلى غاية البيانو دون أن تحدث صوتا. كانت ترى كل ملمس
عاجي ينغرس بدقة تحت أصابع الشيخ القلقة، تستمع بانتباه إلى كل
لفظة.

توقف السيّد فيرن فجأة وأصبح الصمت ثقيلًا لا يحتمل، بدأت
إستير تتراجع، لكنّ السيّد فيرن استدار نحوها، وكان الضوء ينير وجهه
الأبيض وعشونه الغريب الذي يشبه عشون عنزة.

قال: «ما اسمك؟».

قالت إستير، «هيلين.»

«طيب، ادخلي.»

كان ذلك طبيعيا، كأنه يعرف الفتاة.

ثم استأنف العزف، دون أن يوليها اهتماما. كانت تستمع إليه
واقفة بمحاذاة البيانو دون أن تجرؤ على التنفس. لم يحدث أن بدت لها

الموسيقى جميلة إلى هذا الحد. كان البيانو يمحو كل شيء في الغبش، وكانت يدا الشيخ الطويلتان تركضان على الملامس، تتوقفان وتنطلقان مجدداً، وكان السيد فيرن يبحث من حين إلى آخر عن أسماء عجيبة في كومة من الأوراق.

سوناتات مجانية

فولفغانغ أماديوس موتسارت

كارل تشيرني

الموسيقى بطريقة علمية، مرجع سابق. 636

لودفيغ فان بيتهوفن

سوناتات، الجزء الثاني، موريتز موسكوفيتشي

فرانز ليزت

ورقة موسيقية، الشريط الرابع

يوهان سيباستيان باخ

أجنحة إنجليزية

استدار نحو إستير:

"هل ترغبين في العزف؟"

نظرت إليه إستير مندهشة.

«في الواقع أنا لا أعزف.»

هزّ كتفيه.

"هذا غير مهم، حاولي. انظري كيف تتحرك أصابعي."

أجلسها على مقعد بجانبه، كانت له طريقة عجيبة في جعل

أصابعه تجري على الملامس، مثل حيوان نحيل قلق.

حاولت إستير تقليده، ولشدّ ما كانت المفاجأة كبيرة عندما

استطاعت محاكاته.

«هل رأيت؟» الأمر بسيط، اليد الأخرى الآن.»

تابعها، وكان يبدو متلهفا.

"طيب، يجب أن أعطيك دروسا، ربّما استطعت العزف، ولكن هناك عمل، جرّبي التساوقات."

وضع أصابع إستر وأبعد أصابعه، كان يملك يدين طويلتين ورشيقتين، لم يكونا يدي شيخ، بل يدين فتيتين قويتين بأوردة ناتئة. كانت أصوات التساوقات تنبعث بغرابة، ترتج تحت أصابع الفتاة وتلامس قلبها.

عندما انتهى الدرس شرع السيّد فيرن في البحث بتهيّج في حزمة الأوراق المرتبة عليّ البيانو، أخرج واحدة وأعطاهها لإستر:

"عليك بتعلم قراءة النوتات، عودي عندما تتعلمينها."

أصبحت إستر منذ ذلك الوقت ترجع عصرا كلما استطاعت، تدفع مصبّعة الدارة وتدخل المطبخ دون ضجيج، في الوقت الذي يعزف السيّد فيرن، يعرف في لحظة ودون أن يدير رأسه، أنها هناك ويقول: «ادخلي، اجلسي.»

تجلس إستر قربه على المقعد وتنظر إلى يديه الطويلتين اللتين تركضان على الملامس، كأنهما هما اللتان تؤلفان العلامات. يدوم طويلا بحيث تنسى كل شيء، تنسى حتى المكان. يوضح لها السيّد فيرن كيف تجعل الأصابع تنزلق على الملامس. كتب نوتات على ورق أبيض، كان يرغب في أن تغنيها وتعزفها في الوقت نفسه. تلمع عيناه ويضطرب هتونه الذي كعثنون عنزة، "لك صوت جميل، لكنني لا أدري إن كنت قادرة فعلا على العزف على البيانو."

كان يغضب عندما تخطئ، "انتهى بالنسبة لنهار اليوم، اذهبي، دعيني وشأني!". لكنّه يشدها من يدها ويعزف لها سوناتة لموتسارت،

تلك التي تروق له. وإذ تخرج إستر إلى الشارع تنهر أمام الشمس والصمت، وكان عليها انتظار بعض الثواني لتتهدي سبيلها.

تشاهد إستر السيد فيرن في ساحة القرية في نهاية الظهر، يأتي الناس للتسليم عليه، بيد أنه يتحدث في كل أمر، ما عدا الموسيقى. الناس الأثرياء هم الذين كانوا يقطنون الدارات، في الجهة الأخرى من السيل، في وسط الحدائق التي غرست فيها أشجار القسطل الكبيرة. لم يكن والد إستر يحبهم كثيرا، لكنّه يرفض الحديث عنهم بسوء، لأنهم يساعدون الفقراء الذين يأتون من روسيا أو من بولونيا. يحيي السيد فيرن الجميع بأدب، يبادل كل واحد منهم أطراف الحديث ثم يعود إلى بيته الخرب.

تنتعش الساحة مساء، يصل الناس من كل شوارع سان مارتان، الناس الأغنياء الذين يسكنون الدارات والفقراء الذين يعيشون في غرف الفندق، المزارعون العائدون من الحرب، القرويون الذين يرتدون المآزر، الفتيات اللائي يتجولن ثلاثة ثلاثة تحت نظرات الدركيين والجنود الإيطاليين، الصائغون والخياطون القادمون من شمال أوروبا.

يجري الأطفال خلف الفتيات أو يلعبون لعبة التخبئة خلف الأشجار، أما إستر فتبقى جالسة على الحائط الصغير الذي بجانب الساحة وهي تتأمل جميع الناس، تصغي لضجيج الأصوات والنداءات. ينفجر فجأة صراخ الأطفال كزقزقة العصافير.

ثم تختفي الشمس خلف الجبل، كان هناك ما يشبه سحابة حلبيية تظلل القرية. غزا الظلّ الساحة وبدا كل شيء غريبا وبعيدا. فكرت إستر في والدها الذي يمشي في الأعشاب الطويلة، هناك في جهة ما من جهات الجبل، بعد عودته من مواعيده.

لا تأتي إليزابيث إلى الساحة أبدا، تنتظر في بيتها وهي تنسج قطعة من الصوف لتجاوز قلقها. لم تستطع إستير فهم هذا، رجال ونسوة مختلفون كثيرا، يتكلمون كل اللغات ويفدون إلى هذه الساحة من كل جهات العالم. تنظر إلى الشيوخ اليهود الذين يرتدون معاطفهم الطويلة السوداء، نساء البلد اللاتي أبلت ثيابهن أشغال الحقول، والفتيات اللاتي يدرن حول النبع بثيابهن الفاتحة.

فرغت الساحة تدريجيا عندما اختفى الضوء، عاد كل واحد إلى بيته وخفت الأصوات الواحد تلو الآخر. تسمع بقبقة النبع وصراخ الأطفال الذين يلاحقون بعضهم بعضا عبر الشوارع. وصلت إليزابيث إلى الساحة، أخذت إستير من يدها ونزلتا سويا إلى الشقة الصغيرة المظلمة، سارتا بالإيقاع نفسه، وكانت خطاهما متناغمتين في الشارع. إستير تحب هذا، ضغطت جيدا على يد أمها، كأنّ الاثنتين في الثالثة عشرة والمستقبل أمامهما.

يتذكر ترستان دائما يدي أمه وهي تعزف على البيانو ظهرا، عندما يبدو كل شيء نائما في الأرياض. هناك أحيانا مدعوون في قاعة الاستقبال، يسمع الأصوات، ضحكات صديقات أمه. لم يعد ترستان يعرف أسماءهن، لم يكن يبصر سوى حركة الأيدي على ملامس البيانو. وتسررب الموسيقى.

كان ذلك منذ زمان، لا يعرف متى ذكرت له اسم هذه الموسيقى، الكاتدرائية المغمورة، مع صوت الأجراس الذي يقرع في قعر البحر. كان ذلك في كان، في وقت آخر، في عالم آخر، حاول عندئذ العودة إلى هذه الحياة، كما في الحلم.

تعلو موسيقى البيانو، تملأ غرفة الفندق الصغيرة، تهرب في الأروقة وتبلغ كل طابق، تصدي بقوة في صمت الليل. يشعر ترستان بقلبه

يخفق على إيقاع الموسيقى، يستيقظ فجأة من حلمه، مرعوبا وظهره يقطر عرقا، يستقيم في سريره ليستمع، ليتأكد أن لا أحد سمع الموسيقى، يستمع إلى النفس الهادئ لأمه النائمة. وفي الجهة الأخرى من المصارع هناك خريز الماء في حوض الينبوع.

كانوا يسكنون في الطابق الأول من فندق فيكتوريا، غرفة صغيرة ذات شرفة مطلة على الساحة، تحتل عائلات فقيرة الطوابق كلها التي خصصها لها الإيطاليون. هناك ناس كثيرون نهارا يبحث كان الفندق يطنّ مثل خلية نحل.

عندما وصلت السيّدة أورورك إلى سان مارتان بالحافلة، كان ترستان ولدا في الثانية عشرة، وحيدا وحجولا. وكان شعره حليقا حول رأسه عن آخره، وكان يرتدي ملابس إنجليزية غريبة، سروالا طويلا جدا من نسيج صوفي رمادي، جوارب من القطن وصدريّة عجيبة، كان كل شيء فيه عجيبا.

عاشوا في كان مصطافين في دائرة الانجليز المغلقة التي ضيّقتها الحرب أكثر فأكثر. اندلعت الحرب وتطوّع والد ترستان الذي كان تاجرا في إفريقيا الاستوائية، في القوات المسلحة الاستعمارية، ومنذ ذلك الوقت لم يعرف أيّ شيء عنه.

انقطع ترستان عن الدراسة، وكانت أمه هي التي أعطت له دروسا، كما أنّ السيّدة أورورك لم ترغب في تسجيل ابنها بمدرسة السيّد سليغمان عندما قدم إلى الجبل.

أوّل ذكرى تحتفظ بها إستير هي طيفه في ثيابه الغريبة عندما كان يمكث أمام باب الفندق وهو ينظر إلى الأطفال الداهيين إلى المدرسة.

كانت السيّدة أورورك جميلة، فساتينها الطويلة وقبعاتها الكبيرة مع وجهها الوقور وتعابير نظرها الكئيبة قليلا. كانت تتحدث الفرنسية

جيداً، بلا نبرة، ويشاع أنّها إيطالية حقيقية، يشاع أنّها جاسوسة في خدمة الدركيين، أو أنّها مجرمة تتوارى، الفتيات بخاصة هنّ اللائي يروين حكايات بصوت خفيض، كما يتحدثن عن راشيل التي تذهب لزيارة نقيب الدركيين خفية.

والحال أنّ ترستان لم يكن يرغب في البداية في الاختلاط بالأطفال الآخرين. كان يتحوّل في القرية وحيداً، ويحدث أحياناً أن يذهب إلى الحقول وينزل مع المنحدر إلى النهر، وإذا كان هناك أطفال آخرون يصعد مجدداً دون أن يعود. ربّما كان يخاف منهم، وكان يريد أن يقول إنّّه ليس بحاجة إلى أحد.

تشاهده إستير يمشي في الساحة مساءً وهو يمدّ يده إلى أمه بتكلف. كانا يسيران معاً تحت شجر الدولب إلى طرف الساحة، هناك حيث الدركيون، ثم يعيدان السير في الاتجاه المعاكس.

الناس لا يكلمون كثيراً السيّدة أورورك، لكنّها تبادل السيّد هنريش فيرن بعض الكلمات لأنّه موسيقي. لا تذهب أبداً مع الآخرين لتسجيل اسمها في القائمة بفندق محطة النهاية. لم تكن يهودية.

مرّ الوقت وحل الصيف، كل الناس يعرفون أنّ السيّدة أورورك ليست غنية. يشاع كذلك أنّها لا تملك مالا لأنّها ذهبت إلى الصائغين لتستلف مالا مقابل حليّها، يقال إنّها لا تجد ما تبادله، ما عدا بعض الأوسمة، قلادات من العاج وحليّ لا قيمة لها.

ينظر ترستان إلى أمه وكأنّه لم يشاهدها أبداً، يريد أن يتذكر زمان الإقامة في كان، أشجار المستحية في ضوء العصر، زقزقة العصفير في الخارج، صوت أمه، اليدين اللتين تعزفان دائماً الكاتدرائية المغمورة، الموسيقى الحادة أحياناً والحزينة في بعض الأحيان. كان منظراً طبيعياً يتظلل وينأى.

لم يعد ترستان قادرا على المكوث في غرفة الفندق. لفحت الشمس وجهه ويديه وبيّضت شعره الطويل. تمزقت ثيابه واتسخت جرّاء الجري في الأدغال.

تعارك مرّة مع غاسباريني في الطريق، في مخرج القرية، لأنّ الولد كان يسخر من إستير، كان غاسباريني أكبر منه سنا وأقوى، أوقف ضربة ترستان بمفتاح، احتاح البغض وجهه وقال: "أعد بأنك أحرق! أعد!" قاوم ترستان إلى حد الإغماء، وفي النهاية أطلق غاسباريني سراحه وأقنع الآخرين بأنّه اعترف.

تغيّر كل شيء منذ ذلك اليوم. الوقت صيفا حاليا، أصبحت الأيام أطول. يخرج ترستان من الفندق كل صباح عندما تكون أمه نائمة في الغرفة الضيقة، ولا يعود إلا في الظهيرة، جائعا وقد أدمى العليق رجليه.

أمه لا تقول شيئا، لكنّها تحسّ جيدا. قالت له بصوت غريب عندما ذهب مرّة: "ترستان، يجب أن تعلم بأنّ هذه الفتاة ليست لك". توقف: "ماذا، عمّ تتحدثين؟ عن أية فتاة؟". كررت فحسب: "ترستان، إنّها ليست لك؟". لكنّهما لم يتطرقا إلى المسألة مرّة أخرى.

كان ترستان في ساحة القرية صباحا، في الوقت الذي يقف اليهود في الطابور أمام فندق محطة النهاية. الرجال والنساء ينتظرون الدخول بالتناوب لتسجيل أسمائهم في الدفتر من أجل الحصول على بطاقات الجراية.

كان ترستان نصف محتبئ خلف الأشجار وهو ينظر إلى إستير ووالديها اللذين ينتظران، كان حجلا نوعا ما لأنّه ووالدته لا يحتاجان إلى الوقوف في الطابور، إنّهما ليسا كالأخرين.

هنا، في الساحة، نظرت إليه إستير لأول مرّة، كان المطر ينزل مدرارا والنساء يتدثرن بأوشحتهن ويفتحن مظلاتهن الكبيرة السوداء. يبقى الأطفال في جوارهن دون ركض ودون جلبة.

في ظلّ شجر الدولب ينظر ترستان إلى إستير في طابور الانتظار، كانت عارية الرأس وقطرات المطر تلمع على شعرها الأسود، تمدّ يدها إلى أمها، يبدو والدها طويلا جدا بجوارها. لا تتكلم، لا أحد يتكلم، ولا الدركيين الواقفين قدام باب المطعم.

كلّما فتحت الباب أبصر ترستان قسما من القاعة الكبرى التي تضيئها النوافذ المفتوحة على الحديقة. كان الدركيون واقفين أمام النوافذ ويدخنون، وكان أحدهم جالسا إلى طاولة بدفتر مفتوح أمامه يسجل فيه الأسماء.

هناك شيء عجيب وغريب بالنسبة إلى ترستان، كأنّ الناس الذين يلجئون القاعدة لن يخرجوا. كانت نوافذ الفندق المطلة على الساحة موصدة والستائر مشدودة.

عندما يجنّ الليل يغلق الدركيون المصارع ويتمتسون في الفندق. تغدو الساحة سوداء، كأنّها قفر، لا أحد يستطيع الخروج.

الصمت هو الذي كان يجذب ترستان نحو باب الفندق. غادر الغرفة الدافئة حيث تنفّس أمه ببطء، حلم الموسيقى والحقول، لمشاهدة إستير وسط الأطفاف السوداء التي تنتظر في الساحة. يكتب الدركيون اسمها. تدخل هي وأبوها ووالدتها ويدوّن الرجل، صاحب الدفتر، اسمها على الكراس، بعد الأسماء الأخرى.

تمتّى ترستان لو كان معها في الطابور، يتقدم معها إلى غاية الطاولة، لا يمكنه أن ينام في غرفة فندق فيكتوريا عندما يحدث هذا.

كان سكّون الساحة رهيباً، وكنا لا نسمع سوى تحرير الماء في حوض
الجدول، ونباح كلب في جهة ما.

ثم خرجت إستير. سارت في الساحة منعزلة قليلاً عن أبيها وأمها،
وإذ مرتّ قرب الشجر أبصرت ترستان، وكانت هناك شعلة في عينيها
السوداوين، كأنها شعلة غضب أو ازدراء، شعلة قوية جعلت قلب
الولد يخفق بقوة. تراجع. كان يوّد أن يقول لها إنك جميلة، لا أفكر إلا
فيك، أحبك. بيد أن الأطياف تسارعت في الأزقة.

صعدت الشمس إلى السماء وكان الضوء يلهب بين الغيوم،
العشب يجهز في الحقول والأدغال تجلد الأرجل. يركض ترستان
للإفلات، ينزل إلى الجدول المثلج. كان الهواء مليئاً بالروائح وغبار
الطلع والذباب.

كأنه لم يكن هناك صيف آخر قبل هذا. الشمس تصمخ حقول العشب، وكانت حجارة السيل والجبال تبدو نائية في جهة السماء الزرقاء المظلمة. غالبا ما كانت إستير تذهب إلى النهر، هناك في أسفل الوادي حيث يتحد السيلان.

يصبح الوادي في هذه الجهة أوسع وتبدو دائرة الجبال أكثر نوى. كان الهواء في الصباح ناعما وباردا، وكانت السماء زرقاء ناصعة. تبرز الغيوم في الظهيرة من جهة الشمال والشرق، في أعلى الأسنام التي تنفخ أشكالها اللولبية الباهرة. يهتزّ الضوء في أعلى ماء الوادي. الاهتزاز في كل مكان، وإذ ندير الرأس يتحد مع حرير الماء وأغاني الجراد. جاء غاسباريني مع إستير ذات مرّة إلى الوادي. ولما كانت الشمس في كبد السماء، بدأت إستير في صعود المنحدر لتؤوب إلى بيتها عندما أمسكها غاسباريني من يدها: "تعال، سنذهب لرؤية ابن عمي في الأسفل، في روكيلير".

ترددت إستير، وقال غاسباريني: "ليس بعيدا، فقط في الأسفل، سنذهب في عربة الجد." لقد رأت إستير الحصاد سابقا مع أبيها، لكنّها ليست متأكدة من ذكرى لون القمح.

ركبت العربة أخيرا، كانت هناك نساء بأوشحة على رؤوسهن، وكان هناك أطفال. الأب غاسباريني هو الذي كان يقود الحصان. اتبعت العربة الطريق ونزلت مع الأشرطة إلى غاية الوادي. لم تعد هناك ديار، ما عدا النهر الذي يسطع تحت الشمس، وحقول القمح.

أُتلفت الطريق وكانت العربة ترتج، وذلك ما يضحك النساء. كان الوادي أوسع قبل روكيلير بقليل. قبل أن ترى أي شيء، سمعت إستير أصوات نساء، ضحكات حادة تصل مع الرياح الحارة وضوضاء صماء متلاحمة كصوت المطر. قال غاسباريني: "وصلنا، هنا حقول القمح." أتحد حينها السبيل بالطريق الكبير وأبصرت إستير فجأة كل أولئك الرجال في العمل. كان هناك ناس كثيرون، عربات متوقفة وأحصنة ترعى عشب المنحدر، أطفال يلعبون، وقرب العربات رجال مسنون منشغلون بحمل القمح بمذراة خشبية.

حُصدت أغلب الحقول. كانت النساء موشحات بخرق، منحنيات على الحزم التي يربطنها قبل دفعها إلى الطريق بمحاذاة العربات. هناك قرحن أطفال رضع، أطفال يلعبون بالسنابل التي تقع أرضا. وثمة أطفال آخرون أكبر سنا يلتقطون السنابل من الحقول ويضعونها في أكياس نبات الجوتة.

الشباب يشتغلون في عمق الحقل. على خطوات من بعضهم البعض، يشكلون صفا مثل العساكر. وكانوا يتقدمون ببطء وهم يهزون مناجلهم الكبيرة. هم الذين سمعتهم إستير من بعيد عندما وصلت. ترتفع المناجل نحو الخلف في حركة آلية، تسطع شفراهما الطويلة تحت الشمس، تظلّ لحظات جامدة ثم تقع مجددا وهي تصر في القمح. كان الرجال يتحدثون صوتا أجشا بملقوهم وصدورهم، سعالا خافتا يرن في الوادي.

اختبأت إستير خلف العربات لأنها لم تكن ترغب في أن يراها أحد، لكنّ غاسباريني جذبها من يدها وأرغمها على السير في وسط الحقل. كانت السيقان قاسية وشائكة، تخرق نعال الخيط وتخرّ أكعبهم. وكانت هناك رائحة، رائحة حريفة من الغبار والعرق، رائحة ممزوجة بالإنسان والنبات.

الشمس ساطعة تحرق الأحناف، الوجوه والأيدي. وكان هناك من حولهم في الحقل نساء وأطفال بأسمال لم يحدث أن رأهم من قبل إستير. يلتقطون السنابل التي سقطت من حزم الحبوب، بنوع من السرعة المحمومة، ويضعونها في أكياسهم القماشية. قال غاسباريني بصوت متعال: «إنهم إيطاليون. لا يوجد قمح عندهم، لذا يأتون إلى هنا لالتقاط السنابل المتبقية.»

كانت إستير تنظر بفضول إلى الفتيات ذوات الثياب الرثة والوجوه التي لا تختلف كثيرا عن خرق متآكلة. «من أين أتوا؟» أشار غاسباريني إلى الجبال، في عمق الوادي. «جاءوا من فالديري، من سانتا أنا (ينطقها سانتانا)، جاءوا مشيا عبر الجبل لأنهم يجوعون في بلدتهم.»

تفاجأت إستير، لم تتصور البتة أن يكون الإيطاليون مثل هؤلاء الأطفال والنسوة، بيد أن غاسباريني أخذها إلى صفّ الحصادين. "انظري، هذا ابن عمي." شاب يرتدي قميصا داخليا وقد لفحت الشمس وجهه ويديه. توقف عن هزّ منجله الكبير. «إذا؟ هل تقدم لي خطيبتك.» انفجر ضاحكا، وتوقف الرجال الآخرون ليتفحصوا وجوههم.

هزّ غاسباريني كتفيه ومشى مع إستير إلى طرف الحقل ليجلسا على منحدر. لا يُسمع من هنا سوى صفير المنجل في القمح والصوت المبحوح للرجال: ران! ران! قال غاسباريني: "قال أبي سيخسر الإيطاليون الحرب لأنهم لا يجدون عندهم ما يسدّ الرمق." وتساءل إستير: "ربّما سيستقرون هنا." فيجيب غاسباريني دون تردد: «لن يتركوه، سيطردوهم. والحال أنّ الألمان والإيطاليين سيهزمون قريبا، مع ذلك فقد خفض صوته: «والدي في الجبل. والدك أنت؟»

فكرت إستير، لم تكن متأكدة من إجابتها. قالت مثله: «والدي أيضا في الجبل». وسأل غاسباريني: «ماذا يفعل؟» فأجابت إستير: «يساعد اليهود الذين يعبرون الجبال، يساعدهم في الاختباء.»

بدا غاسباريني غاضبا: «الأمر مختلف. مساعدة المقاومين شيء آخر.» ندمت إستير على كلامها. أوصاها والدها بعدم الحديث عن الحرب أبدا، ولا عن الناس الذين يأتون إلى بيتهم، مع أيّ كان. قالوا إنّ الجنود الإيطاليين يهبون مالا لكل من كشف عن الآخرين.

ربّما أعاد غاسباريني هذا الكلام على مسامع الرقيب موندوليني؟ بقيّ الاثنان صامتين لفترة طويلة وهما يلوكان حبات القمح التي كانا يخرجانها واحدة فواحدة من جرابيهما الشفافين.

قال أخيرا: «ماذا يفعل أبوك؟ أقصد ماذا كان يفعل قبل الحرب؟» أجابت إستير: «كان أستاذا.» بدا غاسباريني منتبها: «أستاذ ماذا؟» أجابت إستير: «أستاذ التاريخ في الثانوية. التاريخ والجغرافيا.» لم يقل غاسباريني شيئا آخر. كان ينظر أمامه ووجهه مقطب. فكرت إستير في طريقة حديثه قبل لحظات وهو ينظر إلى الأطفال الذين يلتقطون السنابل: «إنّهم يجوعون في بلدهم.»

قال غاسباريني لاحقا: «والدي يملك بندقية، لا زالت عنده، إنّها محبّاة عندنا في الكوخ، سأريك إياها في يوم ما إن كنت ترغيبين في ذلك.»

مكث هو وإستير برهة دون أن ينبسا بنت شفة، كانا يستمعان إلى صوت المناجل وأنفاس الرجال. كانت الشمس ثابتة في كبد السماء، ولا أثر للظلال في الأرض.

هناك بين سيقان الحبوب نمل كبير يتقدم، يتوقف ويقلع من جديد، كان النمل بدوره يبحث عن الحبوب التي تسقط من السنابل.

سأل غاسباريني: «هل صحيح أنك يهودية؟» نظرت إليه وكأنها لا تفهم. كرّر الشاب: «قولي، صحيح؟ أنت يهودية؟»، ظهر على وجهه فجأة نوع من التخوف جعل إستير تردّ بسرعة: «أنا؟ لا، لا!». «بقيّ وجه غاسباريني مشدودا وقال: "يقول أبي لو جاء الألمان إلى هنا لقتلوا كل اليهود."»

أحست إستير فجأة بقلها ينبض بقوة، بألم، والدم ينبض سرايين عنقها، ينبض في الصدغ والأذنين، وامتألت عيناها بالدموع دون معرفة السبب. ربّما بسبب الكذب. سمعت صوت الولد البطيء، الملحّ، وصوتها الذي يرنّ ويردد: «أنا؟ لا، لا!»، والخوف أو الألم الذي يفيض من عينيها.

كانت السماء زرقاء في أعلى الحقول، سوداء تقريبا، والضوء يسطع على المناجل وحجارة الجبال. تحرق الشمس ظهرها وكتفيها تحت الفستان، وبعيدا، في وسط الحقل، تسمرت النساء والأطفال، مثل نمل لا يتعب، وهم يبحثون بنهم في سيقان الحبوب والدم يسيل من أيديهم الجريحة.

وقفت إستير فجأة وغادرت المكان دون كلمة، كانت تمشي وسط سهام سيقان الحبوب التي تنفذ إلى حذائها القماشي، وخلفها كان الصوت المضطرب للولد الذي ينادي: «هيلين! هيلين! انتظريني! إلى أين أنت ذاهبة؟».

عندما وصلت إلى الطريق حيث تنتظر العربات حمولة الحبوب المحزوزة راحت تعدو بكل قواها باتجاه القرية. كانت تركز دون أن تلوي، دون تضييع دقيقة واحدة، وهي تفكر في أنّ كلبا شرسا وراءها حتى تستطيع الجري أكثر فأكثر. كان نسيم الوادي البارد ينزلق عليها بعد حرارة حقول القمح. كان مثل الماء.

ركضت إلى أن أحسّت بألم ولم تعد قادرة على التنفس، ثم جلست على قارعة الطريق وكان الصمت مخيفاً. وصلت شاحنة وسط غيمة من الدخان الأزرق. كان يقودها دركيون، وضعها الإيطاليون في الخلف، وبعد لحظات نزلت إستير في ساحة القرية. لم تخبر أمها بما جرى لها هناك في الأسفل حيث يحصد الناس. لقد حافظت طويلاً على مذاق القمح المرّ في فمها.

مع ذلك فقد أخذ الإيطاليون بيانو السيّد فيرن تحت المطر باكراً جداً. انتشر الخبر دون معرفة كيف حصل ذلك. كان أطفال القرية حاضرين، وبعض العجائز بمازهن ويهود يرتدون القفاطين الشتوية بسبب الأمطار.

في ذلك الوقت بدأ الأثاث العجيب، الأسود البراق، بشمعداناته البرونزية التي في هيئة شياطين، يصعد الطريق محمولاً من أربعة جنود إيطاليين بدلاهم العسكرية.

رأت إستير هذه القافلة العجيبة تعبر أمامها، هذا البيانو الذي يتأرجح ويتمايل مثل تابوت كبير، وريش القبعات الأسود يهتزّ في كل رجة.

توقف الجنود عدة مرات لاسترجاع النفس، وكلما وضعوا البيانو على ألواح الرصيف رتّت الأوتار في اهتزاز كبير شبيه بأنين. في ذلك اليوم تحدثت إستير لأوّل مرّة عن راشيل، تابعت الموكب من بعيد، ثم أبصرت شبح السيّد فيرن الذي كان يصعد الشارع بدوره، تحت المطر. اختبأت إستير في كوة أحد الأبواب للانتظار، وتوقفت راشيل قريباً. كانت قطرات الماء تبلّل شعر راشيل الجميل الأحمر وتنزل على خديها كالدموع. ربّما رغبت إستير في أن تكون صديقتها لأجل هذا.

بيد أن البيانو كان قد اختفى في الجهة العليا من الشارع باتجاه فندق محطة النهاية. مرّ السيّد فيرن قربهما دون أن يراهما. كان وجهه أبيض عابسا بسبب القنوط أو المطر، وكان عثنونه الأبيض مضطربا، كأنه يتكلم لوحده، وربّما كان يلعن الجنود الإيطاليين بلغته. كان الأمر مضحكا وحزينا في الوقت نفسه.

أحسست إستير بانقباض الحلق لأنّها فهمت معنى الحرب فجأة. عندما تكون هناك حرب، يمكن أن يجرؤ رجال الشرطة وجنود بقبعات غربية مزخرفة بريش على أخذ بيانو السيّد فيرن من بيته ووضعه في قاعة الطعام بفندق محطة النهاية، مع أن السيّد فيرن يتمسك به أكثر من تمسكه بأيّ شيء في العالم، ذلك ما بقيّ له في حياته.

صعدت حينها راشيل الشارع باتجاه الساحة، وكانت إستير تمشي قربها، وعندما وصلتا اختبأتا خلف شجرة الدلب وبقيتا تتأملان سقوط المطر.

عندما كانت راشيل تتحدث كانت هناك سحابة من البخار تتشكل حول شفيتها، وكانت إستير سعيدة لأنّها هناك، رغم بيانو السيّد فيرن، لأنّها كانت ترغب منذ مدة في الحديث إلى راشيل دون أن تجرؤ. إستير تحب شعرها الأشقر الطويل الذي يتدلّى على كتفها بحرية. إنّه يضايق كثيرا سكان القرية، نساء البلد والرهبان اليهود كذلك، لأنّ راشيل لم تعد تذهب إلى القدس، كما أنّها تحدّث أحيانا الدركيين الإيطاليين أمام الفندق.

ولكنّها كانت من الجمال بحيث فكرت إستير بأنّه ليس مهما أن تفعل ما يفعله الآخرون. لقد حدث أن تعقيتها إستير دون أن تنتبه، سواء في شوارع القرية عندما تشتري بعض الأغراض، أو عندما تتجول مع أبيها وأمها عصرا.

الناس يروون أموراً عنها، الشباب يقولون إنَّها تخرج ليلاً رغم
حضر التجول، يقولون إنَّها تذهب للسباحة في الوادي عارية. الفتيات
يقصصن أشياء أقلَّ غرابة، لكنَّها أكثرَ سَمًا، يقلن إنَّ راشيل تعاشر
النقيب موندوليني، تذهب لزيارته في فندق محطة النهاية وتتجول معه في
الشوارع في المدرَّعة، وعندما تنتهي الحرب ويهزم الإيطاليون سيقصِّون
شعرها الجميل، مثل عملاء الغستابو والجيش الإيطالي. إستير تعرف
جيداً أنَّهن يردِّدن ذلك بفعل الغيرة.

في ذلك اليوم بقيت إستير وراشيل معاً لفترة طويلة تتحدثان
وتتأملان المطر الذي ينقر برك الماء، وعندما توقف المطر جاء الناس إلى
الساحة ككل صباح، نساء البلد بمازرنهن وأخذتهن الجلدية، واليهود
بمعاطفهم وثياهم المضحكة، والشيوخ بالقفاطين السوداء والقبعات.
الأطفال أيضاً يبدأون في الجري، أغلبهم بثياب رثة وأقدام حافية.

أشارت بعد ذلك راشيل إلى السيِّد فيرن، كان هو الآخر في
الساحة، مختبئاً في الجهة الأخرى من الجدول. كان ينظر إلى جهة
الفندق، كأنَّ بمقدوره رؤية البيانو.

كان طيفه النحيل الذي يتسلل من شجرة إلى أخرى، مادّاً عنقه،
محاولاً رؤية ما بداخل الفندق والدركيون يدخنون أمام الباب، شيئاً
مثيراً للضحك والشفقة في آن واحد، ما جعل إستير تشعر بالخجل.

انزعجت فجأة، أخذت بيد راشيل وذهبتا نحو طريق الجدول،
ذهبتا إلى الطريق الواقع في أعلى الوادي، سارتا سوياً في الدرب الذي
ما زال يسطع جراء المطر، إلى غاية الجسر، دون أن تتكلما.

يلتقي السيلان مع التيارات في الأعلى، يقود الدرب إلى غاية
المجريين حيث يوجد شاطئ ضيق من الحصى. كان صوت السيول
مصمَّماً، لكنَّ إستير وجدته رائقاً. لا يوجد شيء آخر في العالم من هذه

الجهة، ولا يمكن أن نتكلم. كانت الغيوم قد انفصلت والشمس تسطع على الحجارة وتجعل الماء السريع برّاقاً.

مكثت إستير وراشيل فترة طويلة جالستين على الحجارة المبللة وهما تنظران إلى الماء الذي كان يشكل دوامات. أخرجت راشيل سجائر، علبة غريبة مكتوبة بالإنجليزية، وبدأت تدخن. كان الدخان المرّ اللين يدور حولها ويجذب الزنابر.

في لحظة ما قدّمت السيجارة لإستير لتجرّب، بيد أن الدخان جعلها تعطس، ما أضحك راشيل.

صعدتا المنحدر بعد ذلك لأنهما شعرتا بالبرد، ثم جلستا على الحائط الصغير، هناك تحت الشمس. شرعت راشيل في الحديث عن والديها بصوت غريب، كانت متشددة وقاسية نوعاً ما. إنّها لا تحبهما لأنّهما يخافان دوماً، ولذلك هربا من بولونيا واختبأ في فرنسا. لم تتحدث لا عن الإيطاليين ولا عن موندوليبي، ولكنّها فتشت فجأة في جيب فستانها وكشفت عن خاتم في يدها المفتوحة. "انظري، لقد منحوني هذا."

كان خاتماً قديماً وجميلاً بحجر كريم أزرق باهت يلمع وسط أحجار أخرى ناصعة البياض.

قالت راشيل "إنّه صغير، الأحجار المحيطة ألبس". لم تبصر إستير ما يشبهه من قبل.

"هل هو جميل؟"

قالت إستير "نعم". لكنّها لم تحب هذا الحجر المعتم. كان له بريق عجيب، مخيف قليلاً. رأت أنّه مثل الحرب، مثل البيانو الذي أخذه الدركيون من بيت السيّد فيرن. لم تقل شيئاً، بيد أن راشيل فهمت وأعدت الخاتم إلى الجيب بسرعة.

سألت راشيل: «ماذا ستفعلين عندما تنتهي الحرب؟»، وأردفت قبل أن تجد إستير متسعا من الوقت للتفكير:

"أنا أعرف ما سأفعله، أريد أن أعزف مثل السيّد فيرن، أعزف على البيانو، أغني. أذهب إلى المدن الكبرى، إلى فيينا، إلى باريس، إلى برلين، إلى أمريكا، إلى كل مكان."

أشعلت سيجارة أخرى، وإذ كانت تتحدث نظرت إستير إلى جانبيّتها الموشاة بشعرها الأحمر المضيء، نظرت إلى ذراعيها ويديها اللتين بأظافر طويلة. أحست إستير بالدوران، ربّما بسبب دخان السيجارة أو بسبب الشمس.

تحدّثت راشيل عن السهرات في باريس، في فارسوفيا، في روما، كأنّها عرفت كل ذلك فعلا، وإذ تحدّثت إستير عن موسيقى السيّد فيرن غضبت راشيل فجأة. قالت إنّه عجوز أحمق، متشرد بيانو في المطبخ.

لم تعترض إستير حتى لا تشوّه صورة راشيل، جانبيّتها الدقيقة وهالة شعرها الأشقر. حتى تبقى بمحاذاتها مطولا وتستنشق رائحة سيجارتها. لكنّ سماعها تتحدث بتلك الطريقة أمر محزن، مثل التفكير في بيانو السيّد فيرن في وحدته بقاعة الفندق الكبرى في محطة النهاية المليئة بالدخان، مع الدركيين وهم يشربون الخمر ويلعبون الورق. يذكر هذا بالحرب، بالموت، بالصورة التي تعود باستمرار إلى ذهن إستير، بوالدها الذي يسير في الحقول الكبرى، بعيدا عن القرية، يحنّفي وكأنّه لن يرجع ثانية.

عندما أنهت راشيل سيجارتها الإنجليزية ألقت بالعقب في عمق الوادي ونهضت وهي تمسح مؤخرتها بيدها، ورجعتا معا دون أن تتكلما، عادتا إلى القرية حيث ينبعث الدخان من المداخن إيدانا بالغداء.

وصل أغسطس. تمتلئ السماء حالياً، وكل مساء، يسحب بيضاء أو رمادية وتصعد راسمة أشكالا مثيرة. منذ وقت طويل أصبح والد إستير يذهب في الصباح الباكر مرتديا كنزته المخملية الرمادية وفي يده محفظة تلميذ، المحفظة نفسها التي كان يحملها سابقا عندما يذهب لتدريس التاريخ والجغرافيا في الثانوية بمدينة نيس.

كانت إستير تنظر بقلق إلى وجهه المتوتر المعتم، يفتح باب الشقة، إلى أسفل الزقاق الذي لا يزال مظلما، ثم يستدير ليقبل ابنته. سألته إستير ذات يوم: «إلى أين تذهب؟» فأجابها برودة: «أذهب لرؤية الناس.» ثم أردف: «لا تطرحي علي أسئلة يا إستير ليتا، لا يجب الحديث عن هذا أبدا، هل فهمت؟».

كانت إستير تعلم أنه يذهب لمساعدة اليهود في عبور الجبال، لكنّها لم تطلب أي شيء، لهذا كان الصيف مرعبا رغم جمال السماء الزرقاء، رغم حقول العشب الكبيرة، رغم غناء الجراد وصوت الماء على حجارة السيول. لا تستطيع إستير البقاء في مكائها بالشقة ولو دقيقة واحدة، تقرأ على وجه أمها قلقها الشخصي، الصمت، ثقل الانتظار، وبمجرد أن تشرب طاسة الحليب الساخن لفطور الصباح، تفتح باب الشقة وتصعد الأدراج باتجاه الشارع.

تكون خارج البيت عندما تسمع صوت أمها ينادي: «هيلين؟ هل خرجت؟»، لا تناديهما أمها إستير أبدا عندما يمكن سماعها من الخارج. في أحد الأماسي سمعت إستير والدتها في السرير بغرفتها المظلمة متذمرة من قضاء إستير كل وقتها في التسكع، فأجاب والدها ببساطة: «تركيتها: قد تكون الأيام الأخيرة.»

من وقتها بقيت تلك الكلمات في بالها: الأيام الأخيرة... إنّها هي التي تجذبها نحو الخارج، دون مقاومة، هي التي تجعل السماء بهذه الزرقة،

والشمس بهذا الألق، والجبال وحقول العشب بهذا السحر، بهذه الجاذبية.

تحسّين إستير الضوء منذ الفجر من خلال فراغات الورق المقوّى الذي يسدّ نافذة المنفذ، تسمع الزقزقة القصيرة للعصافير التي تناديها، سقسقة طيور الدوري: الأصوات الحادة لطيور السمّام التي تدعوها إلى الخارج.

عندما تستطيع في النهاية فتح الباب والخروج إلى هواء الشارع البارد مع الجدول الثلج الذي يجري وسط الألواح، تشعر بانطباع غريب تجاه الحرية، بسعادة لا حدّ لها. بمقدورها الذهاب إلى أواخر بيوت القرية ورؤية الوادي المديد، الأوسع في ضباب الصباح. وتنمحي كلمات أبيها.

تبدأ وقتئذ في الجري في أعلى الوادي، دون أن تحذر الأفاعي، تصل إلى حيث يقود الدرب إلى أعلى الجبل، إلى هناك يذهب أبوها باتجاه المجهول كلّ صباح.

كانت عيناها مأخوذتين بضوء الصباح وهي تريد رؤية الأسماء، جبل أشجار الأرزية، الأجراف، المنحدرات الخطيرة. تسمع في الأسفل، في عمق الوادي، أصوات الأطفال في الجدول، كانوا يتسلّون بصيد القشريات في ماء السيل البارد وسيقاتهم نصف مغروسة في حفرة السيل الرملية.

سمعت إستير بوضوح ضحكات البنات ونداءهن الصرارة: «ماريز! ماريز!...»، استمرت في التقدم نحو حقل الأعشاب إلى أن خفتت الأصوات والضحكات ثم اختفت وتلاشت.

هناك في الجهة الأخرى من الوادي منحدر الجبل المعتم وكرات الحجارة الحمراء المزروعة بالأدغال الشائكة. بدأت الشمس تلهب في

حقل العشب، وكانت إستير تشعر بالعرق يتصبب على وجهها وتحت ذراعيه. وبعيدا، في مأمن بعض الكتل الصخرية، لا ريح ولا نفس ولا حركة، إنّه ذلك الصمت الذي جاءت تبحث عنه.

تشعر إستير بالراحة عندما لا تجد أي أثر للإنسان، ما عدا صرير الحشرات الحاد، ومن حين إلى آخر الصوت الخاطف لقبرة واهتزاز العشب. تستمع إلى نبضات قلبها السريعة، تستمع أيضا إلى صوت الهواء الخارج من منخريها. إنّه لا تعرف لماذا تحب هذا الصمت. كان رائعا، لا غير، وكان ضروريا.

وشيئا فشيئا يزول الخوف، ضوء الشمس، السماء حيث تبدأ الغيوم في النفخ، وحقول العشب الكبيرة حيث يبقى الذباب والنحل معلقا في الضوء، أسوار الجبال المعتمة والغابات. بمقدور كل هذا أن يبقى، أن يستمر، لن يوقفه أحد.

أرادت إستير ذات مرّة أن تدلّ أحدهم على هذا المكان، على هذا السر. أخذت غاسباريني عبر الأعشاب، إلى الكتل الصخرية، من حسن الحظ أنّ غاسباريني لم يتحدث عن الأفاعي، ربّما فعل ذلك ليثبت أنّه لم يخف، ولكنّ، عندما اقتربا من الكتل، قال غاسباريني بخفة: «الأمر ليس جيّدا ها هنا، سأنزل.» ثم عاد مسرعا، بيد أنّ إستير لم تغضب، تفاجأت فقط عندما فهمت لم هرب الولد بسرعة. هو لم يكن بحاجة إلى أن يعرف بأنّ كل هذا سيدوم، بأنّ كل هذا يجب أن يستمر يوما بعد يوم، لمدة سنوات وقرون، وأنّه ليس بمقدور أحد إيقافه.

ليست حقول الأعشاب ذات الأفاعي هي التي تخيف إستير، الحصاد هو الذي كان يرعبها. كانت سنابل القمح مثل الأشجار التي تفقد أوراقها. لقد عادت إستير مرّة إلى الحصاد، إلى الجهة التي ذهبت إليها مع غاسباريني، في أسفل الوادي، قرب روكيلير.

تكاد الحقول اليوم أن تكون محصودة عن آخرها. تفرق صف الرجال المسلحين بمناجلهم الكبيرة البرّاقة. لم تبق سوى بعض الفرق المعزولة. كانوا يصدون في أعلى الحقول، بجانب الربوة، على المرتفعات الضيقة.

الأطفال يربطون الحزم الأخيرة، النساء والأطفال الفقراء يهيمنون بين سيقان الحبوب، لكن أكياسهم بقيت فارغة.

مكثت إستير جالسة على المنحدر تتأمل الحقول المنتوفة، لم تفهم لماذا تشعر بذلك الحزن، بذلك الغضب، مع أن السماء زرقاء والشمس تسطع فوق سيقان الحبوب.

جاء غاسباريني ليجلس قربها. لم يتكلما، كانا ينظران إلى الحاصدين وهم يتقدمون على طول المرتفعات. كان غاسباريني يحمل قبضة من السنابل، وكانا يقضمان حبوب القمح ويتذوقان طويلا السائغ الحامز.

لم يعد غاسباريني يتحدث عن الحرب واليهود، كان يبدو منقبضا وقلقا، كان ولدا في الخامسة أو السادسة عشرة، بيد أنه عريض وقوي مثل رجل، تحمر خدها بسهولة مثل حدود الفتيات.

تشعر إستير أنّها مختلفة عنه، ومع ذلك فإنّها تحبه، وإذا يمر أصدقاؤها في الطريق، على طول الحقول، يسخرون منه، أمّا هو فينظر إليهم حانقا ويهّم بالنهوض، كأنّه يريد ضربهم.

قدم غاسباريني مرّة إلى بيت إستير باكرا جدا ليلتقي بها. نزل السلم الصغير في أسفل الشارع وطرق الباب. والدة إستير هي التي فتحت الباب. تأملت لحظة دون أن تفهم، ثم تعرفت إليه وأدخلته إلى المطبخ. كانت تلك أوّل مرّة يدخل إلى بيت إستير. تأمل من حوله، الغرفة الضيقة المعتمة، الطاولة الخشبية والمقاعد، المدفأة المعدنية، القدور المرتبة على اللوح.

وعندما قدمت إستير كادت أن تنفجر ضحكا وهي تراه خجلا أمام الطاولة ونظراته مثبتة على غطائها، وكان يطرد الذباب بظهر يده من حين إلى حين.

أحضرت إليزابيث زجاجة عصير الكرز الذي أعدته في الربيع، شرب غاسباريني كأس العصير وأخرج من جيبه منديلا لمسح فمه. دام الصمت في المطبخ طويلا، وفي الأخير صمّم على الكلام بصوت أحش: "أريد أن أطلب الإذن لأخذ هيلين هذا الجمعة إلى حفلة بالكنيسة".

كان ينظر إلى إستير وهي واقفة أمامه، كأنها قادرة على مساعدته. سألت إليزابيث، "أية حفلة؟"، "إنها حفلة السيّدة العذراء، يوم الجمعة"، وشرح غاسباريني: "ستعاد السيّدة العذراء إلى الجبل، ستترك الكنيسة".

التفتت إليزابيث نحو ابنتها: "طيب، أعتقد أنك أنت التي تقررين". فقالت إستير بجّد: "سأذهب إن كان والداي موافقين"، وقالت إليزابيث: "سأسمح لك، لكن، عليك أن تستشيرني أباك".

أقيم الحفل يوم الجمعة كما كان منتظرا، أعطى الدركيون الموافقة، وفي الصباح بدأ الناس يقدون إلى الساحة الصغيرة المقابلة للكنيسة. أشعل الأولاد الشموع في الكنيسة وعلقوا باقات الورد. كان هناك بخاصة نساء ورجال مسنون لأن أغلب الرجال كانوا مسجونين ولم يعودوا من الحرب. لكنّ الفتيات جئن بفساتين الصيف، ثياب مقوّرة وسيقان عارية وأحذية من القماش ووشاح على الشعر.

جاء غاسباريني للبحث عن إستير، كان يرتدي طقما، سروال غولف رماديا فاتحا ملكا لأخيه الأكبر، ولم يحصل أن لبسه إلا في يوم القربان العلي.

كانت تلك أول مرّة يرتدي ربطة عنق حمراء. ابتسمت والدة إستير ابتسامة ساخرة من الفلاح الصغير الذي يرتدي أجمل الثياب، لكنّ إستير نظرت إليه مؤنبة.

صافح والد إستير غاسباريني وقال له كلمات لطيفة. كان غاسباريني مأخوذاً بالقامة الطويلة لوالد إستير، إضافة إلى أنّه أستاذ، وإذا طلبت إستير الإذن من والدها قال دون تردد: "نعم، من المهمّ الذهاب إلى الحفل". قال ذلك بنبرة جادة أدهشت إستير.

لقد فهمت الآن وهي ترى الكنيسة مكتظة لماذا كان ذلك مهمّاً. جاء الناس من كل الجهات، قدموا حتى من جهات الجبال المعزولة، من حظائر بوريون وحظائر موليير، وكان الدركيون في الساحة الكبيرة، يتأملون مرور الحشد قدام فندق محطة النهاية حيث رفع العلم.

بدأ الحفل حوالي العاشرة، دخل الحاخام المعبد متبوعاً بجزء من الحشد، وكان هناك في الوسط ثلاثة رجال ببدايات زرقاء داكنة، همس غاسباريني في أذن إستير: "أنظري، هذا ابن عمي." تعرفت إستير إلى الشاب الذي كان يحصد القمح في الحقل، قرب روكيلبير. «عندما تنتهي الحرب سيأخذ العذراء إلى الأعلى، إلى الجبل.»

كانت الكنيسة طافحة ولم يستطع الأطفال الدخول، وإذا ابتداءً الجرس في الرنين ظهرت حركة الحشد وبرز الأشخاص الثلاثة حاملين التمثال، لأول مرّة ترى إستير تمثال العذراء. كانت امرأة صغيرة ذات وجه بلون الشمع، وكانت تحمل بين يديها رضيعاً له نظرة غريبة شبيهة بنظرة رجل.

كان التمثال يرتدي معطفاً كبيراً من الساتان الأزرق، وكان يلعب تحت الشمس. وكانت العينان تلمعان أيضاً، عينان سوداوان وسميكتان مثل جلد الحصان.

ابتعد الحشد ليعبر التمثال الذي كان يتمايل على الرؤوس، وعاد الرجال الثلاثة إلى الكنيسة، وسمعت في الجلبة لازمة سلام ملائكي، "عندما تنتهي الحرب، سيذهب ابن عمي مع الآخرين، سيأخذون التمثال إلى المحراب في الجبل."

كان غاسباريني يردد ذلك بنوع من نفاذ الصبر، ومع انتهاء الحفل ذهب الجميع إلى الساحة على أطراف البنان. حاولت إستير رؤية الدركيين الإيطاليين. كان زيهم العسكري يكوّن بقبعة عجيبة في ظلّ الزيفون، والحال أنّ إستير كانت ترغب في مشاهدة راشيل.

كان اليهود المنعزلون قليلا ينظرون بدورهم، يمكن مشاهدتهم من بعيد بسبب ثيابهم السوداء وقبعاتهم وثياب النساء الرثة والوجوه الشاحبة، ورغم حرارة الشمس المتقطعة فقد حافظ الشيوخ على القضاطين. كانوا ينظرون وهم يداعبون لحاهم دون أن ينبسوا. وكان الأطفال اليهود لا يندمجون مع الحشد المحتفل، يظلّون قرب آبائهم دون حراك.

أبصرت إستير فجأة ترستان، كان في طرف الساحة مع الأطفال اليهود. لم يكن يتحرك، كان ينظر، وكانت تعابير وجهه غريبة، تكشيرة جمدها الشمس.

أحست إستير بالدم يتدفق تحت جلدها، تخلصت من يد غاسباريني ومشت طولا باتجاه ترستان. كان قلبها يدق بقوة، اعتقدت أنّ ذلك من القلق، "لماذا تنظر إليّ دائما؟ لماذا تحرسني؟ ابتعد قليلا." ولمعت عيناه الزرقوان الداكنتان، لكنّه لم يجب، "اتركني وشأني! رح تلعب، اتركني، لست أخي!"

سمعت إستير غاسباريني يناديها: "هيلين! تعالي، إلى أين أنت ذاهبة؟" كانت نظرة ترستان تعبّر عن قلق كبير، ما جعلها تتوقف

عندما دخلت إستير إلى القاعة أحست بارتياح، بيد أن قلبها استمر في الخفقان في صدرها بقوة. وأبصرت راشيل. كانت مع الجنود المزيين بالريش وسط القاعة التي وضعت طاولاتها وكراسيها لصق الجدار، وكانت ترقص مع موندوليبي. كانت هناك نساء أخريات، غير أن راشيل هي الوحيدة التي كانت ترقص والأخريات يتأملنها وهي تقوم بحركات نصف دائرية بفستانها الفاتح الذي يرتفع كاشفا عن ساقها الرشيقتين. وكان زندها العاري يستند قليلا إلى كتف الجندي.

كان الدركيون والجنود يتوقفون أمامها من حين إلى حين، وكان على إستير أن تقف على البنان كي تراها. لم تسمع إستير صوتها بسبب الموسيقى، لكنّها تخيّلت أنّها تسمع أحيانا تعجبا، فقهقهة. لم يحدث أن رأت راشيل بذلك الجمال، ربّما شربت بشكل مقبول، لكنّها كانت من ذلك النوع من الناس الذين يتحكمون في سكرهم.

كانت تقف مستقيمة فحسب، تدور وتدور على إيقاع موسيقى المازوركا، وكان شعرها الأحمر القاتم يكنس ظهرها. عبثا حاولت إستير التقاط صورتها، كان وجهها الباهت مائلا إلى الخلف، لقد ذهب بعيدا، إلى عالم آخر، أخذها صحب الموسيقى والرقص.

كان الجنود والدركيون ملتفتين نحوها، ينظرون إليها وهم يدخنون ويشربون، وكانت إستير تتوهم أنّها تسمع ضحكهم. توقف الأطفال أمام الباب محاولين الاستطلاع وانحنت النساء لرؤية الطيف الواضح الذي يرقص في القاعة الكبرى. التفت الدركيون وقتئذ إلى الخارج، كانوا يقومون بحركات جعلت الجميع يتعدون. بقي الشباب في الخارج حياديين في الساحة، في الجهة الأخرى من الجدول. لا أحد يهتم بالأمر، وذاك ما جعل قلب إستير يخفق، كانت تشعر بأنّ الأمر غير طبيعي، وبأنّ هناك في جهة ما، ما يشبه الوهم. الناس يتظاهرون

بعدم رؤية شيء، ولكنهم كانوا يفكرون في راشيل، إنهم يمتقونها في أعماقهم، أكثر من كراهيتهم الجنود الإيطاليين.

لم تتوقف الموسيقى بصوتها الأغن، البولكا، تحت إيقاع السيد فيرن، الصوت المخنوق للشبابة الذي يضيع في الهواء.

عندما غادرت إستير الفندق توقف غاسباريني أمامها. كانت عيناه تلمعان غضبا، «تعالى تتجول»، هزت إستير رأسها، نزلت مع الزقاق إلى الجهة التي يمكن منها رؤية الوادي، كانت تريد البقاء وحدها، ألا تسمع الموسيقى والأصوات.

في لحظة ما أمسك غاسباريني بمعصمها وجذبها نحوه بشكل أخرج وكأنه يريد أن يرقص، كان وجهه أحمر من الحرارة، وكانت ربطة العنق تضايقه، مال على إستير وأراد تقبيلها. شمت إستير رائحته، رائحة ثقيلة أشعرتها بخوف وجذبتها في الوقت ذاته، رائحة رجل.

بدأت في إبعاده أولا وهي تردّد: «اتركني وشأني، اتركني!» ثم قاومت بهوس، خدشته ومكث في وسط الطريق لا يريم، وكان الأولاد يضحكون من حوله. ففز ترستان حينئذ إلى رقبة غاسباريني، كان يريد أن يتمكن منه، بيد أنه كان خفيفا وبقيّ معلقا ورجلاه تتأرجحان في الفراغ. ألقى به غاسباريني أرضا بضربة بسيطة فراح يصرخ: "أيها الحقيير الصغير، سأكسر لك رأسك إن أنت كررت هذا!".

شرعت إستير في الركض عبر الشارع، بأسرع ما يمكن، ثم نزلت مع الحقول إلى السيل. توقفت عن الجري واستمعت إلى نبضات قلبها في الصدر وفي الحلق. حتى هنا، على مقربة من الوادي، كانت تسمع موسيقى الحفل الحزينة النائحة، الشبابة التي تعيد، دون توقف، الجملة نفسها على الأسطوانة، في حين كانت راشيل تدور موندوليبي، وكان وجهها الأبيض الجامد البعيد كوجه أعمى.

كانت الليالي سوداء بسبب حظر التجول، وجب إذن جذب ستائر النوافذ وسدّ المنافذ بالخرق والورق المقوّى. يصل المقاومون أحيانا في الظهيرة، يجلسون في المطبخ الضيق، على المقاعد، حول الطاولات المغطاة بنسيج كتان.

تعرفهم إستير جيّدا، لكنّها لا تعرف أسماء أغلبهم، بعضهم من القرية وآخرون من الأماكن المجاورة، يذهبون قبل حلول الليل. وهناك من يجيئون من بعيد، من نيس وكان، موفدو إنياس فينك، غوتمان، وإستير، أيل، وهناك من يأتون من الأدغال الإيطالية.

وكان من هؤلاء أحدهم تحبه إستير كثيرا، كان ولدا بشعر أكثر شقرة من شعر راشيل، كانوا يسمونه ماريو. كان يجيء من الجهة الأخرى من الجبال حيث الفلاحون والرعاة الإيطاليون يقاتلون الفاشيين. عندما يأتي يكون متعبا جدا فيمكث هنا للنوم على الوسائد أرضا، هنا بالمطبخ. كان يتلهى أكثر مع إستير.

يقصّ عليها حكايات عجيبة، نصف كلامه بالفرنسية ونصفه بالإيطالية. كانت له عينان صغيرتان ذات زرقّة مثيرة، عينا ثعبان، هكذا كانت إستير تقول في سرها. يحدث أحيانا، عندما يقضي ليلته في المطبخ، أن يأخذ إستير في الفجر لتتجول حول القرية، دون أن يولي اهتماما لجنود فندق محطة النهاية.

تذهب معه إلى حقول العشب في أعلى الوادي. يدخلان معا إلى الأعشاب الطويلة، هو في الأمام وهي تتعقبه من خلال الأثر الذي

يتركه في الأعشاب، هو الذي حدثها عن الأفاعي لأول مرّة، لكنّه لم يكن يخافها. كان يقول إنّه يستطيع ترويضها، وحتى القبض عليها، أو مناداتها بالصفير كالكلاب.

أخذ إستير في أحد الصباحات بعيدا إلى حقول العشب، إلى ما بعد ملتقى السيلين. كانت إستير تسير خلفه، يخفق قلبها وهي تسمع ماريو يصفر صفيرا عجيبا، ناعما وحادا، موسيقى لم تسمعها من قبل أبدا.

تكون حرارة الشمس دوامات في الأعشاب، والجبال التي حول الوادي تشبه أسوارا عملاقة تولد منها الغيوم. سارا طويلا عبر الأعشاب مع تصفيرات ماريو الناعمة التي تبدو أنّها قادمة من كل الجهات دفعة واحدة وتحدث بعض الدوار.

توقف ماريو فجأة ويده إلى الأعلى، وصلت إستير إلى غاية ظهره دون أن تحدث صوتا. التفت ماريو نحوها. كانت عيناه الخضروان تلمعان. قال لها مندهشا: «انظري!» عبر الأعشاب على شاطئ الرمل والحصبة، وعلى حافة النهر أبصرت إستير أمرا ما لم تبيّنه، كان من الغرابة بحيث لم تستطع نظرها التخلص منه. كان ذلك يشبه جبلا سميكاً مصنوعاً من ساقين قصيرتين مزخرفتين بشكل لولبي: لون ورقة ميتة تسطع تحت الشمس، كأننا أخرجناها من الماء في الحين. اقتشعرت إستير فجأة: كان الجبل يتحرك وإستير تنظر عبر الأعشاب إلى الأفقى المتشابكة مع الأخرى وهما تنزلقان وتلتويان على الشاطئ.

انفصل رأسهما في لحظة ما، خطم قصير، لعينيهما حدقة عمودية، فمهما مفتوحان قليلا، ظلّت الأفعيان ملتحمتين تنظران بثبات كما يحدث في حالة نشوة، ثم راح جسدهما يلتويان على الشاطئ وهما تنزلقان بين الحجارة مشكلتين ببطء حلقات جانبية، تتحدان مع

بعضهما بعقد تنزلقان من الأعلى إلى الأسفل وتنفكان بهزّ ذيلهما مثل سياط.

استمرتا في الانزلاق والتدحرج، ورغم ضجة النهر فقد ظنت إستير أنّها تسمع صرير القشور على بعضها بعض، سألت إستير بأذلة جهدا لتتحدث بصوت خفيض: «هل تقفان؟».

كان ماريو ينظر إلى الحيتين، وكان وجهه الغليظ كلّه في نظرتيه، في عينيه الضيقتين المفلوقتين كعيون الثعابين. استدار وقال: «بلى. إنهما تتزاوجان.» نظرت إستير حينها إلى الحيتين بانتباه أكبر وهما تنزلقان على الشاطئ بين الحجارة، دون أن تنتبها لوجودهما.

استغرق ذلك طويلا، كانت الحيتان ثابتتين أحيانا وباردتين كقطع من الأغصان، تضطربان فجأة وتضربان على الأرض بقوة، وكانتا معقودتين بدقة بحيث يتعذر رؤية رأسيهما، وفي النهاية هدا جسدهما وسقط رأساها كل في جهة.

أبصرت إستير الحدقة الجامدة الشبيهة بمغتالة والنفس الذي ينفخ جسديهما جاعلا القشرة مشعة. فكّت إحدى الأفعيين العقدة ببطء شديد، انزلقت بعيدا بين الأعشاب على طول النهر، وإذ بدأت الأخرى في الزحف شرع روميو يصفر بين أسنانه بطريقته العجبية وهو لا يكاد يفتح فمه، كان صغيرا دقيقا، خفيفا، وبالكاد يسمع.

عدّل الثعبان رأسه ونظر بثبات إلى ماريو وإستير الواقفين أمامه في وسط الأعشاب. أحست إستير أن قلبها يرتجف تحت نظرهما. ترددت الأفعى لحظة. كان رأسها الواسع يكون زاوية مستقيمة مع جسدها المستقيم، ثم اختفت في طرفة عين على طول سهل الأعشاب.

عاد ماريو وإستير إلى القرية بمحاذاة الطريق، عبر الأعشاب الطويلة، ولم يقولا شيئا، كانا متنبهين إلى كل ما يوجد تحت قدميهما،

ليس إلا. وإذ أدركا الطريق سألته إستير: «ألا تقتلها أبدا؟»، ضحك ماريو: "نعم، نعم، أعرف أيضا كيف أقتلها. أخذ قضيبا صغيرا من حافة الطريق، وشرح كيف يجب أن تفعل بضرب الثعبان ضربة قوية على العنق، قرب الرأس، وسألت إستير مرّة أخرى: «وهل كان بمقدورك أن تقتلها هنا؟» تملك ماريو شعور غريب وأدار رأسه: «هنا، لا، لا أستطيع، كان قتلها أمرا مؤلما.»

لأجل هذا تحب إستير ماريو، بدل أن يقصّ عليها مرّة حكايات، قصّ عليها نتفا من حياته. كان راعيا قبل الحرب في جهة فالدييري. لم يرغب في الذهاب إلى الحرب فاختبأ في الجبل، لكنّ الفاشيين قتلوا خرافه وكلبه، وهكذا التحق ماريو بالمقاومة.

تملك اليوم إستير وثائق مزيفة. جاء رجال إلى المطبخ مع ماريو في أحد الأماسي ووضعوا على الطاولة بطاقات هوية للجميع، لإستير، لأبسيها وأمها ولماريو كذلك. نظرت إستير مطوّلا إلى البطاقة الصفراء التي تحمل صورة أبيها وقرأت الكلمات المكتوبة:

الاسم: جوفري، اللقب: بيار، ميشال

المولود بتاريخ: 10 نيسان، المكان: مرسيليا (بوش-دو-رون)

المهنة: تاجر

الأوصاف:

الأنف: الظهر: مستقيم

القاعدة: متوسطة

الطول: متوسط

الشكل العام للوجه: طويل

اللون: فاتح

العينان: خضراوان

الشعر: كستنائي

ثم بطاقة أمها باسم: لورا زوجة جوفري، اللقب: مادلين، المولودة بتاريخ 3 شباط 1912 في بوتيفي (موريون)، بلا عمل، وبطاقتها الخاصة، جوفري هيلين، المولودة بتاريخ 22 شباط 1931 في نيس (ألب ماريتميم)، بلا عمل، الأوصاف: الأنف: الظهر: مستقيم، القاعدة متوسطة، الطول: متوسط، الشكل العام للوجه: دائري، اللون: فاتح، العينان: خضروان، الشعر: أسود.

تحدّث الرجال مطولا حول الطاولة، وكان السراج ينير وجوههم بشكل عجيب. حاولت إستير سماع ما يقولونه دون أن تفهم، كأنهم لصوص بصدد التحضير لعمل شرير.

نظرت إلى وجه ماريو العريض، إلى شعره الأحمر وعينيه الضيقتين المائلتين، وقالت في سرها لعله يحلم بالأفاعي في سهول العشب، وبالأرانب التي يصطادها بالمصيدة في الليالي القمراء.

عندما كان الرجال يتحدثون أباهما كان هناك اسم يتردد، اسم لا تستطيع نسيانه لأنه يرّجّج جيدا، مثل اسم بطل في كتب التاريخ التي لدى والدها: أنجيلو دوناتي. أعدّ أنجيلو دوناتي قاربا إلى ليفورن، قاربا كبيرا بشراع ومحرك يأخذ كل الهاربين وينقذهم، سيعبر القارب البحر ويأخذ اليهود إلى أورشليم، بعيدا عن الألمان.

كانت إستير تنصت إلى هذا وهي ممددة على الأرض، على الوسائد التي يتخذها ماريو سريرا له. غفت وهي تحلم بقارب أنجيلو دوناتي، بالرحلة الطويلة في عرض البحر إلى أورشليم. فحضت إليزابيث حينئذ وأحاطت إستير بذراعيها. سارتا معا إلى الغرفة الصغيرة المقبية حيث يوجد سرير إستير. سألت إستير قبل النوم: «قولي، متى نذهب في قارب أنجيلو دوناتي؟ متى نذهب إلى أورشليم؟»

قَبَلَتْهَا أمها وقالت لها مازحة بصوت خفيض، وبقلق في الحلق:
"هيا نامي، لا تكلمي أيّ أحد عن أنجيلو دوناتي، هل فهمت؟ هذا
سرّ"، وقالت إستير: «أصحيح أنّ القارب سيأخذ الجميع إلى
أورشليم؟» فأجابت إليزابيث: "صحيح، وسنذهب نحن كذلك، قد
نذهب إلى أورشليم."

أبقت إستير على عينيها مفتوحتين في الظلام، كانت تستمع إلى
الأصوات التي ترنّ في المطبخ الصغير خفية، وإلى ضحك ماريو، ثم
ابتعدت الخطى إلى الخارج وأوصدت الباب. لقد نامت عندما نام أبوها
وأمها في السرير الكبير بجوارها وسمعت صوت تنفسهما.

إنّها نهاية الصيف، المطر ينزل كل ظهيرة، وهناك خرير الماء الذي يتدفق على السقوف وفي كل القنوات. الشمس تسطع صباحا في أعلى الجبال وإستير تشرب قدح الحليب بسرعة لتخرج. تنتظر ترستان في الساحة قبالة الجدول وينزلان مع الأطفال الآخرين وهم يركضون نحو الوادي سالكين طريق الجدول.

عكرت الأمطار قليلا ماء بوريون الغزير البارد. يبقى الأولاد في الأسفل وتصعد إستير مع الفتيات الأخريات إلى غاية الموضع الذي يسيل فيه الشلال بين كتل الحجارة تنزعن ملابسهن في الأدغال. تسبح إستير بالسروال التحتي كأغلب الفتيات، بيد أنّ هناك فتيات، مثل جوديت، لا يجرؤن على نزع لباسهن. ما هو جميل، هو الدخول إلى الماء حيث التيار أقوى، والتشبث بالصخور وترك الماء يسيل على كامل الجسد، يضغط على الأكتاف والصدر وينزلق على الأرداف والسيقان محدثا صوتا مستمرا. ننسى حينئذ كل شيء. يغسل الماء البارد أعماق الأعماق ويخلّصك من كل ما يزعجك، من كل ما يحرقك.

تحدثت جوديت، صديقة إستير، (إنّها ليست صديقتها بالمعنى الحقيقي، ليست مثل راشيل، لكنّهما كانتا تجلسان معا في قسم السيّد سليغمان) عن التعميد الذي يحو كل الذنوب، تصورت إستير أنّ ماء الوادي الأملس البارد الذي يتدفق عليك ويغسلك شبيه بذلك.

عندما خرجت إستير من الشلال، وبقيت تحت الشمس واقفة على الصخرة المسطحة، أحست بأنّها جديدة، وبأنّ الألم والغضب قد

زالا. ثم نزلن حيث الأولاد. فتشوا عبثا في كل ثقب الشلال بحثا عن السرطانات، وحتى ينتقموا ألقوا بالماء على الفتيات.

جلس الجميع آنذاك على صخرة كبيرة مسطحة في أعلى الشلال، وانتظروا وهم يتأملون الماء. صعدت الشمس إلى السماء الصافية واستضاءت غابة البتولا والكستناء. كانت هناك زنابير هائجة جذبتها قطرات الماء الملتصقة بالشعر والبشرة العارية.

كانت إستير منتبهة إلى كل تفصيل، إلى كل ظلّ. تنظر بحيطه تكاد تكون مؤلمة إلى كل ما هو قريب أو بعيد، خطّ الذرى في السماء، أشجار الصنوبر الكثة في قمم الرّوابي، الأعشاب الشائكة، الحجارة، الذباب الصغير المعلق في الضوء. صراخ الأولاد، ضحك الفتيات، كل كلمة ترنّ بداخلها بغرابة، مرتين أو ثلاث مرات، مثل نباح الكلاب.

كانوا غرباء، غامضين، غاسباريني بوجهه الأحمر وشعره القصير، كتفاه العريضتان مثل كتفي رجل، والآخرون، ماريز، آن، برنارد، جوديث، هزيلون في ثيابهم المبللة بنظرهم التي يخبئها ظلّ المحاجر، أو بأشباههم المهشة النائية في آن واحد.

ترستان ليس كالآخرين، كان قليل النباهة، وكانت نظرتة دافئة جدا، أصبحت إستير اليوم تشده من يده عندما يذهبان للتجول حول القرية، يتظاهران بالحب، ينزلان إلى الشلال، تقوده نحو المضيق وهما يشبان من صخرة إلى صخرة. ذاك ما كانت تتقنه في الحياة. قالت في سرها: الجري عبر الصخور والقفز بحفة، مع حساب الاندفاع، اختيار المعبر في ربع ثانية.

كان ترستان يريد أن يتعقبها، لكنّ إستير كانت سريعة بالنسبة إليه. كانت تثب بسرعة بحيث لن يستطيع أحد تعقبها. تقفز دون

تفكير، القدمان حافيتان والأحذية القماشية في يدها، ثم تقف لتتصت إلى النفس المتسارع للولد الذي لا يقدر على اللحاق بها.

تتوقف على شاطئ الماء عندما تبلغ أعلى الشلال، تختبئ خلف كتلة من كتل الصخرة وترصد كل الأصوات، الطقطقات، اهتزازات الحشرات التي تختلط بضجة التيار، تسمع الكلاب تنبح بعيدا، ثم صوت ترستان الذي يناديها: «هيلين! هي - لي - ن...!»

كانت معجبة بعدم الرد، بالبقاء محتبئة خلف الصخرة، لأنها تشعر وكأنها مسؤولة عن حياتها وقادرة على تقرير مصيرها. إنها مجرد لعبة، لكنّها لن تخبر أحدا. من سيفهم هذا؟

وإذ يبعث ترستان من كثرة الصياح ينزل مع التيار المائي، ووقتها تترك إستير مخبأها، تصعد المنحدر إلى غاية الممر، إلى أن تبلغ المقبرة، هناك تقوم بحركات كثيرة وتصرخ لبيصرها ترستان.

لكنّها تعود أحيانا وحدها إلى القرية، تدخل إلى البيت وتلقي بجسدها على سريرها، الوجه لصق الوسادة، وهي تبكي. لم تعد تعرف لماذا.

إنّها نهاية الصيف، الفترة الأكثر التهابا عندما تصبح حقول القمح صفراء وتخمثر الحبوب في أطراف الحقول، مع حرارة لادغة. ذهبت إستير بعيدا، وحيدة، عبرت المنطقة التي يجبس فيها الرعاة بهائمهم شتاء، أكواخ بدائية بلا نوافذ، أقبية شبيهة بمغارات.

ظهرت السحب فجأة وأطفأت الأضواء، كأنّ يدا عملاقة انفتحت في السماء. ذهبت إستير بعيدا بحيث اعتقدت أنّها ضاعت، كما في الأحلام عندما يضع أبوها في تلال الأعشاب الطويلة. لم يكن الإحساس بالضياح في مدخل المضيق، في عمق الجبل المظلم، أمرا مرعبا حقا، لكنّ ذلك يثير قشعريرة بسبب حكايات الذئاب.

حكى ماريو عن الذئب التي تمشي في الثلج شتاء قطعانا خلف قطعان، هناك في إيطاليا. كانت تنزل إلى الوديان لتختطف الخرفان وصغار الماعز، والحال أن ربح المطر هي التي جعلت إستير تحس بقشعريرة.

كانت ترى وهي واقفة على صخرة، في أعلى الأدغال، غيوما رمادية تلبّد منحدرات الجبال وتصدع الوادي ثانية، الحجاب يتلع الحواجز الحجرية والغابات والكتل الصخرية.

بدأت الرياح في الهبوب بقوة، برد قارس بعد حرارة الأعشاب المختمرة. شرعت إستير في الركض محاولة اللحاق بأكوخ الرعاة قبل هطول المطر، بيد أن القطرات الثلجة السميقة بدأت تضرب الأرض. الحياة هي التي كانت تنتقم، تستدرك الوقت الذي سرقته إستير في المخايئ، كانت تجري وقلبها يخفق في صدرها بقوة.

الحظيرة كبيرة مثل كهف، تشكل نفقا طويلا في الجبل، وفي السقف المظلم خفافيش. اختبأت إستير في المدخل نصف المغلق بكتلة من العليق الشوكي وشعرت بالهدوء مع بداية نزول المطر.

البرق يسطع في الغيوم. بدا الماء يسيل على طول الربوة مؤلفا جداول كبيرة حمراء. سيذهب السيّد سليغمان قريبا لفتح المدرسة، ستكون النهارات أقصر فأقصر، وسيسقط الثلج على الجبال. كانت إستير تفكر في هذا وهي تنظر إلى سقوط المطر والجداول الجارية في الأسفل. فكرت بأنهم ذاهبون إلى شيء آخر لا يعرفونه.

في هذه الأيام، الأيام الأخيرة، لم يعد الناس كما كانوا، أصبحوا يسرعون لما يتكلمون ويتحركون. الأطفال بخاصة هم الذين تغيروا. غدوا فاقد الصبر وهاتجين لما يلعبون أو يذهبون لصيد السمك في السيل، أو يجرون في الساحة. قال غاسباريني مرّة أخرى: «سيأتي الألمان

قريبا ويأخذون اليهود»، قال ذلك كمسلمة. أحست إستير بانقباض الحلق مجددا، لأن ذلك ما سيأتي به الوقت، وذاك ما تريد منعه.

قالت "سيأخذوني أنا بدوري." نظر إليها غاسباريني بانتباه: «إذا كانت لك ورائق مزيفة فلن يأخذوك.» وقال: «هيلين ليس اسما يهوديا»، وقالت هيلين للتوّ، دون أن تصرخ، وبرودة: "اسمي ليس هيلين، اسمي إستير، اسم يهودي.»

قال غاسباريني: "عليك أن تختبئي إن وصل اليهود." لأول مرة كان مزاجه عكرا، وقال أيضا: "إذا جاء اليهود سأخبتك في مستودع الحصاد." كان الأطفال في الساحة يتحدثون عن راشيل، وإذا اقتربت إستير أبعدها بمقابض أياديهم: "أذهبي! أنت صغيرة جدا!" غير أنّها كانت تعرف عما يتكلمون لأنّ أباها البكر كان مع المجموعة.

سمعتهم يقولون إنّهم رأوا المكان الذي يذهب إليه النقيب موندوليني مع راشيل، إلى هري قديم من جهة الجسر، قرب النهر. الساعة منتصف النهار، وبدل أن تذهب إستير لتناول الغداء جرت في الشارع إلى غايصة الجسر، ثم عبر الحقول إلى الكوخ. سمعت إستير لما وصلت نجيب الغربان في السكون وظنت أنّ الأولاد لفقوا حكاية، وإذا اقتربت من الكوخ القديم رأهم كامنين خلف الأدغال. كان هناك عدة فتیان كبار وفتيات أيضا.

بني الكوخ بجهد كبير على سطحين في أسفل الشارع. نزلت إستير عبر المنحدر دون جلبة، إلى غاية الكوخ، كان هناك ثلاثة شبان ممددين على العشب وينظرون إلى وسط الكوخ من خلال ثقب في أعلى الجدار، تحت السقف تماما.

وإذا وصلت إستير همضوا وبدأوا في ضربها دون أن يقولوا كلمة واحدة. ركلوها ولكموها في الوقت الذي كان أحدهم يشدها من ذراعها.

تنخبط إستير وعيناها ممتلئتان بالدموع، دون أن تصرخ. حاولت أن تشدّ من الرقبة ذاك الذي كان يشدها، لكنّه تراجع وهو يترنح. كان الولد يتراجع وإستير متعلقة برقبته بكل قواها، في الوقت الذي كان الآخرون ينهالون عليها ضربا من جهة الظهر لتطلق سراحه.

سقطت في الأخير على الأرض وعيناها ملبدتان بسحابة دم. صعد الأولاد المنحدر وهربوا مع الطريق. ثم انفتح باب الكوخ ورأت إستير من خلال السحاب الأحمر راشيل تنظر إليها. كانت ترتدي فستانها الجميل الفاتح والشمس تلمّع شعرها كالتحاس. خرج بعدها النقيب وهو يعدّل ثيابه ومسده في يده.

انفجر ضحكا إذ أبصر إستير في المنحدر والأولاد هارين، وقال شيئا بالإيطالية. لحظتها بدأت راشيل في الصراخ بدورها، بصوت غريب حاد فقطّ لم تعرف إليه إستير. صعدت إلى أعلى المنحدر وشعرها يلمع، التقطت حجارة وألقت بها على الأولاد الفارين برعونة، دون أن تتمكن منهم.

كان الألم يمنع إستير النهوض. بدأت صعود المنحدر زاحفة، باحثة عبثا عن ثقب لتحتبئ فيه، لإيقاف الخجل والخوف، بيد أنّ راشيل قدمت وجلست قربها، ربت على شعرها ووجهها وقالت بصوت أجش من فرط الصراخ: «لا شيء يا حبيبي، انتهى...» بقينا وقتئذ وحدهما تحت الشمس على منحدر العشب. كانت إستير ترتعد من البرد والتعب، نظرت إلى الضوء في شعر راشيل وثمّت رائحة الجسد، ثم نزلتا إلى السيل وساعدتها راشيل بعناية على غسل وجهها للتخلص من الدم الجاف.

كانت إستير من التعب بحيث اتكأت على راشيل لصعود المنحدر إلى القرية. ثمّت الآن أن تمطر السماء، ألا يتوقف المطر عن السقوط إلى أن يأتي الشتاء.

سمعت إستير بموت ماريو مساء، كانت هناك دقائق على الباب ليلا، أدخل والد إستير مجموعة من الرجال، يهوديا اسمه غوثمان ورجلين قدما من لونتوسك. انسحبت إستير من سريرها، وارتت باب الغرفة وعيناها مغضنتان بسبب ضوء المطبخ.

بقيت في إطار الباب وهي تتطلع إلى الرجال الذين يتمتمون حول الطاولة، كأنهم يتحدثون السراج. كانت إليزابيث جالسة معهم، وكانت تنظر هي الأخرى إلى شعلة السراج دون أن تنبس.

فهمت إستير للتوّ أنّ أمرا خطيرا حصل، وإذ خرج الرجال الثلاثة في العتمة أبصرها والدها واقفة بلباس النوم في إطار الباب، قال لها في البداية بنوع من القسوة: «ماذا تفعلين هنا؟ عودي إلى فراشك!» ثم اقترب منها واحتضنها بين ذراعيه، كأنه ندم على صراخه.

اقتربت إليزابيث والدموع تنزل من عينيها وقالت: «ماريو هو الذي مات.» روى والدها ما جرى، لم تكن سوى كلمات، مع أنّها لم تنته بالنسبة إلى إستير، إنّها حكاية تبتدئ دون توقف، كما في الأحلام.

عندما كانت إستير تنزل الشارع في الظهيرة قاصدة الكوخ المهجور حيث كان لراشيل موعد مع النقيب موندوليني، كان ماريو يمشي في الجبل وحقيبة الظهر مليئة بالقنابل البلاستيكية والمتفجرات الموقوتة والخراطيش للالتحاق بالفريق الذي سيخرب الخط الكهربائي لبورتمون، حيث نصّب الألمان مركز القيادة.

كانت الشمس تسطع على الأعشاب، هناك حيث سارت إستير باتجاه الكوخ المهجور، وفي اللحظة ذاتها كان ماريو يمشي في الحقول وحيدا، في سفح الجبل، ولا بدّ أنّه كان يمشي ويصفر للأفاعي كعادته، ينظر إلى نفس السماء مثلها، يسمع أصوات الغربان نفسها. لماريو شعر

أكثر حمرة من شعر راشيل، راشيل الواقفة تحت الشمس بفستانها الفاتح ذي الأزرار المفكوكة من جهة الظهر وكتفاها تسطعان تحت الشمس، كتفان منتعشتان وجذابتان.

ماريو يحب راشيل كثيرا، هو الذي قال ذلك لإستير ذات يوم، وإذا فتح قلبه لها علت وجهه حمرة، أي أنه غدا قرمزيا، ما جعل إستير تنفجر ضحكا بسبب لون خديه. قال لإستير عندما تنتهي الحرب سيأخذ راشيل للرقص يوم السبت، ولم تكن لراشيل الشجاعة الكافية لتصارحه بالحقيقة، لتقول له إن راشيل لا تحب الأشخاص الذين مثله، وأنها تحب الضباط الإيطاليين، وأنها ترقص مع النقيب موندوليني، وأن الناس يقولون إنها مومس، وأنهم سوف يقصّون شعرها عندما تضع الحرب أوزارها.

كان ماريو بصدد نقل حقيبة المتفجرات إلى الرجال في الدغل، في جهة بورتمون. كان يمشي مسرعا عبر التلال للوصول قبل المساء لأنه كان يريد العودة لينام في سان مارتان هذه الليلة. لهذا استيقظت إستير عندما طرق الباب الرجال الثلاثة، كانت تظن أنه ماريو.

انزلقت إستير بين العشب اليابس باتجاه الكوخ الخرب. كانت راشيل نائمة لصق النقيب في الكوخ الحار الرطب، أما هو فكان يقبلها من فمها وعنقها ومن كل الجهات. الفتيات هن اللائي سردن هذا، لكنهن لم يشاهدن أي شيء لأن الكوخ كان مظلمًا جدًا. سمعن فقط أصواتا، تأوهات، حفيف الملابس، وإذا انتهى الأولاد من ضرب إستير ركضوا إلى غاية الطريق واختفوا.

بقيت تجرّ نفسها على العشب في المنحدر والغيمة الحمراء قدّام عينيها، في ذلك الوقت بالذات سمعت دوي الانفجار، بعيدا، بعيدا، جدا، في أسفل الوادي. لهذا خرج النقيب من الكوخ ومسدسه في يده،

لأنه سمع الدويّ. لكنّ إستير لم تنتبه إلى ذلك لأنّ راشيل كانت واقفة في اللحظة نفسها أمام الكوخ، بشعرها الأحمر اللامع مثل قبة، وكانت تشتم الأطفال وتجلس قرب إستير.

شرع النقيب في الضحك وذهب في سبيله، في حين جلست راشيل على العشب لتداعب شعر إستير. كان هناك دويّ انفجار واحد، وكان من الرعب بحيث أحست إستير بظبليّ أذنيها تنغمسان. عندما وصل رجال المقاومة لم يلاحظوا سوى ثقب كبير في العشب، ثقب فاغر بجواف محترقة تفوح بارودا، وإذ بحثوا في الأعشاب المجاورة وجدوا أيضا خصلة شعر أحمر، وهكذا أدركوا أنّ ماريو قضى نحيبه، ذاك ما بقي منه. مجرد خصلة شعر أحمر.

بكت إستير بين ذراعي والدها. شعرت بالدموع تنهمر من عينيها وتسيل على خديها، على أنفها ومعطفها، تنحدر على شكل خيط على قميص أبيها.

أمّا هو فكان يتحدث عن ماريو، عن كل ما قام به، عن شجاعته، لكنّ إستير لم تكن تبكي بسبب هذا. لم تكن تدري لماذا كانت تبكي، ربّما بسبب تلك الأيام التي قضتها في الجري بين الأعشاب، بسبب تلك الأتعاب، وبسبب موسيقى السيّد فيرن كذلك. ربّما بسبب الصيف الذي كفّ عن اللهب، الحصاد، سيقان الحبوب التي تتعفن، السحب السوداء التي تتراكم كل مساء، وقطرات المطر الباردة التي تولّد الينابيع الحمراء وتحفر الجبل.

كانت منهكة جدا، وكانت تريد أن تنام، أن تنسى كلّ شيء، أن تكون بعيدا، إنسانا آخر، باسم آخر، اسم حقيقي، وليس باسم مخترع في بطاقة الهوية. أمها هي التي أخذتها بين ذراعيها وجرّتها ببطء إلى المخدع المعتم حيث سريرها.

كان جبينها ملتها وهي ترتعد كأنّ بها حمى، وسألت بصوت
أجش مثير للضحك: "متى يذهب قارب أنجيلو دوناتي؟ متى يأخذنا إلى
أورشليم؟" غمغمت إليزابيث ما يشبه أغنية: «لا أدري يا حبيبي، يا
حياتي، نامي الآن.»

جلست على السرير قرب إستير وداعبت شعرها كما كانت
صغيرة. "حدثيني عن أورشليم من فضلك." تمت صوت إليزابيث في
هدوء الليل، أعاد الحكاية نفسها، الحكاية التي سمعتها إستير مذ بدأت
تفهم الكلمات، الكلمة السحرية التي حفظتها دون أن تفهمها، مدينة
النور، الجداول، الساحة التي تلتقي فيها كلّ طرق العالم. أرض
إسرائيل، أرض إسرائيل.

كان كل شيء عجبيا في أسفل المضيق، جديدا ومقلقا. لم يحدث لترستان أن شعر بذلك من قبل. كلما صعد السيل تدريجيا غدت الصخور أكبر فأكبر، أكثر فأكثر سوادا، في حالة سديمية، كأن عملاقا قذفها من قمم الجبال. الغابة بدورها مظلمة، توشك أن تنحدر إلى حدّ الماء، وفي تجاويف الحجارة يعيش السرخس والعليق متلاحمين، مانعين العبور مثل حيوانات.

تعقب ترستان في هذا الصباح إستير بعيدا أيضا. بقيّ فريق الفتيان والفتيات في مدخل المضيق، في لحظة ما سمع ترستان نداءهم، ثم لُفت أصواتهم بخير الماء الذي يشلّ بين الصخور.

كانت السماء في أعلى الوادي زرقاء بالكامل، لون مزعج ومتوتر يؤلم العيون. تعقب ترستان إستير داخل المضيق دون أن يناديها، ودون أن يقول شيئا. كانت تلك لعبة، مع أنه كان يشعر بقلبه ينبض بسرعة، كما لو أنّ ذلك صحيح، كما لو أنّها كانت تلك مغامرة.

يحسّ بضغط الدم في شرايين العنق وفي أذنيه، يحدث اهتزازا غريبا يرنّ في الأرض كذلك، يتحد مع ذبذبات ماء الشلال، وكان الظلّ في المضيق باردا، وإذ يتنفس ترستان يمزق الهواء أعماقه، يصفر من فتحة في الجبل كما من نافذة.

لهذا كان كل شيء جديدا هاهنا، سحريا ومقلقا. كان مكانا لم يتخيله أبدا، حتى عندما كانت تقرأ له والدته الكتب، الرحلة الخامسة للسندباد البحري وقت بلوغه الجزيرة المهجورة أين تعيش الصخور.

ثمة ألم في أعماقه، دوار، ولم يفهم لماذا. ربّما مرّد ذلك السماء الزرقاء فوق الحدّ، قرقعة الشلال حيث تختبئ كل الأصوات الأخرى، أو بسبب الأشجار السوداء المعلقة في أعلى الوادي. كان الظلّ بارداً في أسفل المنحدر، وكان ترستان يشتمّ رائحة الأرض الغريبة. الأوراق الميتة تتعفن بين الصخور، وتحت قدميه كانت هناك آثار غليان ماء أسود.

كان الفتاة تنسحب أحيانا من أمامه، تثب من صخرة إلى أخرى، تحتفي في التجاويف ثم تظهر في النوى. رغب ترستان في مناداتها، في مناداتها باسمها: «هيلين!» كما يسميها الأولاد الآخرون، لكنّه لم يستطع. كانت لعبة. يجب القفز بين الصخور بقلب نابض ونظرة يقظة، البحث عن كل زاوية فيء والكشف عن الآثار.

كلما تمّ صعود الشلال غدت المضيقات أكثر انحسارا. كانت الكتل الصخرية كبيرة، معتمة وقد أبلأها الماء. كأنّ ضوء الشمس بقي حبيسا هناك. بدت في هيئة حيوانات عملاقة، متحجرة وماء السيل يشلّ من حولها.

الحواجز الحجرية للمضيق فوقهما مغطاة بغابة سميقة، سوداء. كان كل شيء متوحشا. زال كل شيء، جرف، غسله ماء الشلال، ولم تبق سوى هذه الحجارة، خريز الماء والسماء القاسية.

التحق بإستير في وسط دائرة من الصخور الداكنة حيث يكون ماء الشلال حوضا. كانت مقرفضة على حافة الماء تغسل ساعديها، ثم ما لبثت أن نزعَت ثيابها بحركات سريعة وغطست في الحوض، ليس بالرجلين كما تفعل الفتيات عادة، بل بالرأس أوّلا، بعد أن سدّت أنفها.

هزّ ترستان بريق الضوء على جسدها الناصع البياض. بقيّ في أعلى الصخور دون حراك. كان يراقب إستير وهي تعوم، كانت لها

طريقة خاصة في السباحة، ترسل ذراعاً فوق الرأس وتختفي في الماء، وإذا وصلت إلى الطرف الآخر من الحوض هزت رأسها وأومات لترستان للحاق بها.

بعد تردد نزع ترستان ثيابه خلف الصخور برعونة ودخل بدوره في الماء المثلج. كان السيل ينزل ببطء إلى الحوض بإيقاع شلال. سبح ترستان بكل قواه نحو الطرف الآخر وقد ابتلع ماء كثيراً. هناك صخرة كبيرة تشرف على المضيق في الطرف الآخر من الحوض. خرجت إستير من الماء ونظر ترستان مجدداً إلى بريق الضوء على بشرتها البيضاء، على ظهرها وعلى ساقها الرشيقتين. هزت شعرها الأسود نائفة خلفها قطرات الماء. صعدت الصخرة بخفة واستقرت تحت الشمس في القمة. استحي ترستان من جسدها العاري وبشرتها البيضاء. صعد ببطء إلى أعلى الصخرة ليجلس بمحاذاة إستير. شعر بجلده يحترق بعد السباحة.

كانت إستير قاعدة في الأعلى ورجلاها تتدليان في الفراغ. نظرت إليه كما لو أنّ الأمر طبيعي. كان جسدها طويلاً وعاضلاً مثل جسد فتى، وكانت هناك نعومة النهدين والظلّ الخفيف والنبض.

حريير الماء السائل يملأ الوادي الضيق إلى حدّ السماء، وما من أحد سواهما في هذا المضيق، كأنهما وحيدان في العالم. لأول مرة في حياته أحسّ ترستان بالحرية، ما جعل كل جسده يهتز، كأنما اختفت بقية العالم دفعة واحدة ولم تبق سوى هذه الصخرة الدكناء، ما يشبه الجزيرة الصغيرة في أعلى الشلال الموحش. لم يعد ترستان يفكر في السباحة حيث الأطياف السوداء تنتظر تحت المطر قبل دخول فندق نهاية المحطة. لم يعد يفكر في أمه، في وجهها المتوتر الحزين عندما تذهب لتحاول بيع قلاذاتها الزهيدة إلى الصائغين لشراء الحليب واللحم والبطاطس.

كانت إستير مائلة إلى الخلف على الصخرة الملساء مغمضة العينين، وكان ترستان ينظر إليها دون أن يجروء على الدنو منها، دون أن يجروء على وضع شفثيه على كتفيها البراقتين ليتذوق قطرات الماء التي لا تزال عالقة ببشرتها.

يمكنه نسيان نظرة الأولاد اللاذعة، كلمات الفتيات التشهيرية في الساحة عندما يتحدثن عن راشيل. أحس ترستان بقلبه ينبض في صدره بقوة. شعر بإشعاع الحرارة في دمه، بكل ضياء الشمس الذي دخل الصخور السوداء وسرى في جسديهما.

جذب ترستان يد إستير، وفجأة، ودون أن يفهم جراته، وضع شفثيه على شفثي الفتاة. أشاحت إستير بوجهها في البداية، ثم قبلته، كما لو أنها تلتقط أنفاسه وتطفئ كلماته، كما لو أن عليها التخلص من الخوف الذي تشعر به في هذا العناق، كما لو أنه لا يوجد شيء، لا من قبل ولا من بعد، ماعدا هذا الإحساس العذب المحرق، ما عدا مذاق ريقها وصوت أسنانهما التي تصادم، ماعدا النفس المتقطع ونبضات قلبيهما.

كانت هناك دوامة ضوء، مثل الماء البارد والضوء حدّ الغثيان. أبعدت إستير وجه ترستان بيدها، تمددت على الصخرة مغمضة العينين وقالت: «ألن تتخلى عني أبدا؟» كان صوتها أجشاً ومليئاً ألماً، «أنا الآن مثل أختك، ألن تقول هذا لحد؟» لم يفهم ترستان. «لن أتخلى عنك أبدا.» قال ذلك بوقار أضحك إستير.

وضعت يدها في شعره وجذبت رأسه نحو صدرها. «اسمع يا حبيبي.» بقيت جامدة، ظهرها مسند إلى الصخرة الملساء وعيناها مغمضتان تحت الشمس.

كانت بشرة إستير حارقة لصق أذن ترستان، حارقة كالحمي، وكان يسمع صوت القلب الأصم ويرى السماء الشديدة الزرقة ويسمع قرعة الماء الذي يشلّ حول جزيرتهما.

كان الألمان الآن قريين جدا. روى غاسباريني أنه شاهد ذات مساء الرصاصات الخطاطة في جهة بورتمون، قال إن الإيطاليين خسروا الحرب وأنهم سيسلمون أنفسهم. سيحتل حينئذ الألمان كل القرى، كل الجبل. أبوه هو من قال ذلك.

اجتمع كل الناس هذا المساء في الساحة قبالة الفندق. كانوا يتحدثون فيما بينهم، رجال القرية ونساؤها، وكذلك اليهود، الشيوخ الذين يرتدون القفاطين والقبعات الكبيرة، ويهود الدارات الأثرياء، والسيد هينريتش فيرن، وهناك أيضا والدة ترستان بفستانها الطويل وقبعتها العجيبة.

حين كان الناس يتحدثون عن هذه الأمور المساوية كان الأطفال يركضون كعادتهم في الساحة، وربما قصدوا الركض بسرعة لنسيان قلقهم. جاءت إستير إلى الساحة مع أمها وانتظرتا جامدتين وهما يستمعان إلى حديث الناس. ليس ذلك ما كان يهم إستير. كانت ترقب فندق محطة النهاية بثبات علها تبصر راشيل.

يقول الفتيان والفتيات إن راشيل تنازعت مع أهلها وأنها تسكن اليوم في الفندق مع النقيب موندوليني، لكن لا أحد شاهدها داخله أو خارجه. كانت كل مصارع الفندق الخضراء موصدة هذا المساء، ماعدا تلك المطلة على الساحة من الجهة الأخرى.

بقي الجنود في الداخل، في القاعة الكبرى يدخنون ويتحدثون. اقتربت إستير وسمعت صخب أصواتهم. وصل عسكريون آخرون إلى

أسفل الوادي بالحافات صباحا. قال غاسباريني إن الإيطاليين أصبحوا يخافون منذ ما حصل لماريو، لذا لم يعودوا يجرؤون على الخروج إلى القرية.

مكثت إستير جالسة على الحائط بلا حراك وهي ترقب واجهة الفندق لأنها ترغب في رؤية راشيل، وعندما نزلت أمها ثانية بقيت جالسة في الظل. منذ أيام وهي تبحث عن راشيل. ذهبت إلى الكوخ المهجور ودخلت المهري الخرب وقلبها يخفق ورجلاها ترتعشان، كأنها تقوم بعمل محظور.

انتظرت تأقلم عينيها مع العتمة. بيد أنه لم يكن هناك شيء، ماعدا كومة الأعشاب التي استعملت مهادا للماشية، وهناك الرائحة الحامزة للبول والغفونة.

أرادت أن ترى راشيل لحظة واحدة. جهزت في رأسها ما ستقوله لها، إنها أخطأت. لم تأت إلى الكوخ للتجسس عليها، وأن كل هذا لا شأن له وأنها تعاركت دفاعا عنها. ستقول بكل ما أوتيت من قوة: «هذا غير صحيح! هذا غير صحيح!» لتعرف أنها تصدقها، وأنها ظلت صديقتها، وأنها تصدقها ولا يقوله الآخرون ولا تضحك معهم. ستدلهما على الآثار الزرقاء التي على أضلاعها، على ظهرها، لذا لم تعد قادرة لا على الكلام ولا على المشي في ذلك اليوم، لأنها كانت تتألم كثيرا ولم تكن قادرة على الوقوف.

أين كانت راشيل؟ ربما أخذوها بالسيارة آنفا، في الليل عندما لم يكن بمقدور أحد رؤية شيء، أخذوها بعيدا، إلى إيطاليا، إلى الجهة الأخرى من الجبال، أو أسوأ من ذلك، إلى الشمال حيث يسجن الألمان اليهود.

كان الناس هذا المساء في الساحة يذهبون ويجيئون ويتحدثون بكل اللغات، ولا أحد يهتم براشيل. يتظاهرون بأنهم لم يلاحظوا شيئا.

ذهبت إستير إليهم لتسألهم الواحد تلو الآخر: «هل شاهدتم راشيل؟ ألا تعرفون أين راشيل؟»، لكنهم أداروا رؤوسهم منزعجين، تظاهروا بأنهم لم يعلموا ولم يفهموا. حتى السيد فيرن لم يقل شيئاً، لوى رأسه دون أن ينس، كان هناك حث كبير وغيره، لهذا خافت إستير وتألمت. بقيت مصارع الفندق مغلقة، ولم تستطع إستير أن تتخيل ما هو موجود في الغرف الحزينة المظلمة كالمغارات، ربّما كانت راشيل محتجزة في إحداها، وأنها تنظر من خلال الشقوق إلى الناس وهم يذهبون ويجيئون في الساحة، ربّما تراها الآن ولا تريد الخروج لأنها تعتقد أنّها مثل الأخرى، تختبئ في الأعشاب للتحسس عليها وتضحك مع الآخرين. التفكير في هذا يشعرها بالدوار.

نزلت إستير في الضوء الخافت إلى أسفل القرية، هناك حيث يُبصر الوادي المضاء بنوع من الضباب الخفيف وظلال الجبال العالية. في اليوم التالي كان هناك صوت موسيقى في أسفل الساحة، من جهة دارة التوتة، جرت إستير بكل قواها. في الطريق المنحدر، قدام السياح، توقفت مجموعة من النساء، وأطفال كذلك.

صعدت إستير الجدار متشبثة بالسياح، ومن مكائها، من تحت ظلّ الشجرة، شاهدت السيد فيرن جالسا في المطبخ أمام البيانو الأسود. «لقد جلبوه! أعادوا البيانو إلى السيد فيرن!» أرادت إستير إذاعة الخبر وهي تلتفت نحو الناس. كان التعبير ذاته على كافة الوجوه. وشيئا فشيئا تجمعوا في الساحة لسماع السيد فيرن يعزف على البيانو، صحيح أنّه لم يعزف أبدا مثل هذا. كانت النوتات تحلّق من خلال باب المطبخ المعتم وتصعد إلى الفضاء الساكن، تملأ كل الشارع وكل القرية. يبدو أنّ البيانو الذي مكث وحيدا لفترة طويلة أصبح يعزف وحده. تنساب الموسيقى، تطير وتلمع.

تستمع إستير المتشبهة بالسياج في ظلّ التوتة، وبالكاد تنفّس بسبب سرعة النوتات التي تخرج وتملأ جسدها وصدرها. فكرت بأنّه يمكن أن يتجدد كل شيء الآن كما، كان عليه من قبل. يمكنها أن تجلس مجدداً بمحاذاة السيّد فيرن وتتعلم كيف تجعل أصابعها تنزلق على الملامس، تقرأ الموسيقى على الصفحات التي يعدّها. فكرت بأن لا شيء ينقضي بعودة بيانو السيّد فيرن.

سيكون كل شيء بسيطاً، لن يخاف الناس مرّة أخرى، لن يسعوا إلى الانتقام، ستمشي راشيل في الشوارع مجدداً لتبضع لوالديها، ستذهب إلى الساحة، وسيلمع شعرها الذي كالتحاس الأحمر تحت الشمس، وفي الصباح ستنتظر إستير قرب النافورة وستذهبان معا لتجلسا تحت ظلّ شجر الدلب وتحدثان. ستقص ما ستفعله لاحقاً، عندما تنتهي الحرب. ستصبح مغنية في فيينا وروما وبرلين. كانت موسيقى السيّد فيرن هكذا: تُوقف الزمن، كما أنّها تجعلك تمشي بشكل معكوس. وإذا انتهى السيّد فيرن من العزف ظهر على عتبة المطبخ، تطلّع إلى الجميع بعينيه اللتين ترفان بسبب ضوء الشمس، وبعثونه الذي كان يضطرب.

كانت سحنته غريبة، كما لو أنّه ينوي البكاء. خطأ خطوة أو خطوتين في الحديقة باتجاه الناس الذين توقفوا ليقول لهم: شكراً أصدقائي، وشرع الناس في التصفيق، بعض الرجال والنساء الذين كانوا في الشارع في بداية الأمر، ثم الجميع، حتى الأطفال. وكانوا يصرخون أيضاً مهللين به. صفقت إستير بدورها، فكرت بأنّ ذلك شبيه بما مضى في فيينا، لما كان السيّد فيرن يعزف أمام سادة بالفراك وسيّدات بلباس السهرة، يوم كان شاباً.

كان يوم جمعة عندما دخلت إستير لأول مرّة إلى الكنيسة في أعلى القرية، هناك حيث أقيم حفل السبت. الشيء نفسه في كل جمعة: كان

السيد يعقوب، مساعد الحاخام الشيخ إيزيك سالنتر يذهب من بيت إلى بيت ويطلق على الباب عندما يعرف أن اليهود يسكنون هناك. يدق على باب إستير دائما، لكن لا أحد يذهب إلى الكنيسة، لأن أمها وأباها لا يؤمنان بالعقيدة.

وإذ سألت مرة لم لا يذهبون إلى المنزل الخشبي للكنيسة، أجابها أبوها ببساطة: «إن كنت ترغيبين في الذهاب فأنت حرّة.»، كان يعتقد دائما أن الدين مسألة حرية.

ذهبت عدة مرات أمام الكوخ الخشبي في الوقت الذي كانت النساء والفتيات يدخلن لتحضير الكنيسة، أبصرت الأضواء تشع من خلال الباب المفتوح وسمعت هدير الصلوات. إنها تشعر اليوم، أمام الباب المفتوح بالقلق نفسه.

النساء اللاتي يرتدين الأسود يعبرن أمامها ويدخلن القاعة دون النظر إليها. تعرفت إلى جودير، تلك التي كانت تجلس معها في المدرسة، كانت تلف رأسها بخمار، وإذ ولجت الكوخ مع أمها استدارت نحو إستير وأشارت لها.

رابطت إستير فترة طويلة واقفة في الجهة الأخرى من الشارع وهي تنظر إلى الباب المفتوح، وفجأة، ودون أن تفهم لماذا، مشت إلى غاية الباب ودخلت الكوخ. كان الجو معتما في الداخل مثل مغارة بسبب قدوم الليل. سارت إستير إلى أقرب حائط كما لو أنها تريد أن تختبئ. كانت النساء واقفات أمامها، ملتحفات بخمارهن السوداء دون أن يعرفها اهتماما، ماعدا فتاة أو اثنتان استدارتا.

كانت عيون الأطفال السوداء تلمع بعناد في العتمة، ثم جاءت إحدى الفتاتين نحوها، اسمها سيسيل، كانت هي الأخرى في مدرسة السيد سليغمان، أمسكتها من يدها وأخذتها إلى وسط الغرفة. ذهبت

إستير إلى الأمام، هناك حيث تجتمع الفتيات الأخريات، أحست أنها على أحسن ما يرام مذ اختبأت وسطهن.

النساء ينشطن كثيرا حول السيد يعقوب، يحضرن المنضدة، يحضرن الماء وينصبن الشموع المذهبة. بدأ النور يلعب فجأة في جهة ما من جهات الغرفة فاستدارت نحوه كل الأنظار. برزت نجوم من الأنوار المتعاقبة، مرتجفة في البداية، موشكة على الانطفاء، ثم استقرت مرسله أشعة طويلة. كانت هناك نسوة يذهبن من مشكاة إلى أخرى وشمعة في اليد، وكان النور يكبر. وكانت هناك، في الوقت نفسه، ضوضاء أصوات شبيهة بأغنية غامضة. أبصرت إستير الناس الذين دخلوا الكوخ، رجال ونساء يتوسطهم الحاخام الشيخ إيزيك سالنتر. ذهبوا إلى وسط القاعة، أمام الأضواء وهم يتكلمون بلغتهم الغريبة.

كانت إستير تتأمل مندهشة خماراتهم البيضاء النازلة على جوانب الوجه، وكلما دخلوا كبر الضوء وغدت الأصوات أكثر قوة. إنها الآن تغني وترد عليها النسوة المرتديات الأسود بأصوات أكثر عذوبة. كانت الأصوات المتناوبة داخل القاعة تحدث صوتا مثل صرير الريح أو المطر، يخفت تدريجيا ثم يرن بقوة ما بين الحيطان الضيقة، جاعلا أضواء الشموع تترنح.

كانت الفتيات والبنات الصغيرات من حولها يرددن الكلمات الغامضة، وجوههن باتجاه الأضواء وهن يرتحن أجسادهن إلى الأمام وإلى الخلف.

اختلطت رائحة مصالة الشموع برائحة العرق والأغنية الموقعة، وكان ذلك شبيها بدوران. لم تجرؤ على الحركة، مع أنها، ودون أن تنتبه، بدأت تهز نصفها الأعلى إلى الأمام وإلى الوراء متبعة حركات النساء من حولها.

أرادت أن تقرأ على شفاههن الكلمات الغريبة بهذه اللغة الغريبة التي تتكلم بداخلها، كأنّ المقاطع اللفظية توظف الذكريات. بدأ التيه يسكنها في هذه المغارة الآهلة بالغرابة وهي تنظر إلى لمعان القناديل التي تؤلف نجوما في الضوء الخافت.

لم يحدث أن رأت نورا مثله، ولا سمعت أغنية مشاهمة. الأصوات تتصاعد، ترنّ، تنزل، ثم تنبثق بعيدا. يحدث أحيانا أن يتكلم صوت لوحده، صوت واضح لامرأة تغني جملة طويلة. تنظر إستير إلى جسدها المحجوب الذي يترنح بقوة أكبر، وإلى يديها المبتعدتين قليلا ووجهها ممدد نحو الشعلة.

عندما تتوقف عن الكلام تسمع تمتمة الحاضرين وهم يرددون سرّاً، آمين، آمين، ثم يجيب صوت رجل من بعيد، صوت يعكس الكلمات الغريبة، الكلمات التي تشبه الموسيقى.

لأوّل مرّة تعرف إستير معنى الصلاة. لم تفهم كيف دخل هذا إلى أعماقها، بيد أنه كان يقينا: إنّه ضجيج الأصوات الأخرس حيث ينفجر فحاة تمثّل اللغة، الترتّج المنتظم للأجساد، نجوم الشموع، الظلّ الحارّ المليء بالروائح. إنّه زوبعة الكلمة.

هنا، في هذه الغرفة، لاشيء آخر يكسب قيمة، لاشيء يهدّد، لا موت ماريو ولا الألمان الذين كانوا بصدد صعود الوادي في مدرّعاتهم، ولا طيف والدها الطويل الذي يسير باتجاه الجبل فجرا، ذاك الذي يختفي في الأعشاب كمن يغوص في الموت.

كانت إستير ترتّج جسدها ببطء إلى الأمام وإلى الوراء، وكانت عيناهما مثبتتين في الأضواء، وفي أعماقها ينادي صوت الرجال والنساء ويجيب، قاطعا وحادا. ينطق كل تلك الكلمات بلغة الغرابة. بمقدور إستير عبور الزمان والجبال كالطائر الأسود الذي دلّها عليه أبوها، إلى

غاية الجانب الآخر من البحار، إلى حيث يولد الضوء، إلى أرض
إسرائيل.

السبت، الثامن أيلول. أيقظ إستير صوت. صوت هدير يجيء من كل الجهات دفعة واحدة، يملأ الوادي، يرنّ في كل شوارع القرية، يدخل إلى أعماق البيوت قاطبة. استيقظت إستير، وفي عتمة المخدع أبصرت سرير والديها فارغا.

كانت والدتها في المطبخ وقد ارتدت ملابسها ووقفت قرب باب المطبخ المفتوح. نظرتهما هي التي هزّت إستير: نظرة عكّرها القلق، نظرة تردّد على المدير القادم من الخارج. قالت إليزابيث قبل أن تجد الوقت الكافي لطرح سؤال: «ذهب والدك هذه الليلة، لم يرد إيقاظك.» المدير يتعبد، يرجع، يبدو غير حقيقي.

قالت إليزابيث: «إنّها الطائرات الأمريكية الذاهبة إلى جنوى... خسرو الإيطاليون الحرب، لقد وقّعوا الهدنة.» التصقت إستير بأمها: «إذن، سيدخل الإيطاليون.» جمّدها القلق بدورها، دخل إلي يديها ورجليها مثل مدّ مثلج. خفض ذلك نفسها وفكرها.

استعد أزيز الطائرات، إنّه يتدحرج بعيدا، كصوت إعصار. لكنّ إستير تسمع الآن هديرا آخر أكثر دقة، إنّه صوت الشاحنات الإيطالية التي تسير في أسفل الوادي وتصعد نحو القرية متحاشية الجيش الألماني. قالت إليزابيث بصوت خفيض: «لم تنته الحرب، سيأتي الآن الألمان، يجب أن نذهب، على الجميع أن يغادروا.» واستدركت: «على اليهود أن يذهبوا بسرعة، قبل وصول الألمان.»

أصبح الآن دويّ الشاحنات عالياً، إنَّها تعبر آخر منحرج قبل دخول القرية. أخذت إليزابيث حقيبة جاهزة قرب الباب، حقيبة الجلد القديمة التي كانت تضع فيها كل الأشياء الثمينة. «أذهبى لتلبسي، عليك بارتداء ملابس دافئة وأحذية ملائمة، سنعبّر الجبل، وسيلتحق بنا والدك هناك.»

كانت تتحرك بسرعة محمومة وتصطدم بالكراسي بحثاً عن شيء نافع تكون قد نسيتته. ارتدت إستير ملابسها في عجلة. لبست فوق كنزها الفرو الصوفية التي تركها ماريو على مسند كرسي يوم قضى نحبها، وعقدت على رأسها وشاحاً أسود لأمها.

كانت الشمس في الخارج تسطع على الساحة الكبيرة وترسم على الأرض ظلال الأغصان المقطوعة، وكانت قبة الكنيسة تلمع، وفي السماء سحب بيضاء جميلة. نظرت إستير من حولها باهتمام مؤلم. كان الناس يقدون إلى الساحة من كل صوب.

اليهود الفقراء يخرجون من الأزقة، من الطبقات التحتية حيث عاشوا كل تلك السنين. كانوا يصلون بأمعتهم، بحقائبهم القديمة المصنوعة من الورق المقوّى، بصررهم ومثونتهم المخبأة في أكياس من القماش.

أما كبار السن، مثل الحاخام إيزيك سالنتر، يعقوب والبولونيين فقد ارتدوا القفاطين الشتوية وقبعاتهم الأستراخانية. كان للنساء أحياناً معطفان، الواحد فوق الآخر، وكلهن يلتحفن خمارات سوداء.

وصل اليهود الأثرياء بدورهم، بحقائبهم الجميلة ولباسهم الجديد، لكنّ معظمهم لم يحملوا أغراضهم لأنهم لم يجدوا الوقت الكافي لذلك. وصل آخرون من الشاطئ بالسيارة، وكانت وجوههم متوترة وشاحبة. فكرت إستير أنّهم قد لا يرون كل هذا مرّة أخرى، هذه الساحة، هذه الديار، الينبوع والجبال الزرقاء البعيدة.

كان صوت محركات الشاحنات يدوي في الساحة، مانعا، في كل الأحوال، الحديث على الجميع. الشاحنات متوقفة في الساحة خلف بعضها البعض، على طول الشارع، إلى غاية روضة القسطل الكبيرة. المحركات تدوي، وكانت هناك سحابة زرقاء تطفو على قارعة الطريق، والناس متكئين حول الينبوع، وكان الأطفال هناك، لكنهم لا يركضون. كانوا يرتدون ثيابا رثة ويظلون قرب أمهاتهم جالسين على حزم من القش وهيئاتهم مخدرة.

كان جنود الجيش الإيطالي الرابع قدام الفندق ينتظرون إشارة الرحيل. دنت منهم إستير. صدمت بسحن وجوههم، بهيئاتهم الضائعة والنظرة الغائبة. أغلبهم لم ينم هذه الليلة بانتظار النبأ الذي يؤكد الهزيمة وتوقيع الهدنة.

الجنود لا يراقبون أحدا، ينتظرون وقوفا أمام الفندق وهدير الشاحنات يصاعد في الجهة الأخرى من الساحة، كان اليهود يراوحوں مكائهم حول الينبوع حاملين أمتعتهم أبعد، كأنهم يبحثون عن المكان الأنسب للانتظار.

كان ناس القرية والمزاعون هناك، لكنهم منعزلون. لقد مكثوا تحت أقواس البلدية وهم يراقبون اليهود المتلفين حول الينبوع، وكان ترستان جامدا تحت فيء الأروقة المقنطرة، نصف محتبئ، الوجه الجميل شاحب وتحت العينين تجاعيد كبيرة.

بدا شديد الخوف وبعيدا في بزته الانجليزية التي أبلاها تسكع الصيف، أيقظه بدوره صوت هدير المحركات الذي ملأ الوادي. ارتدى ملابسه بسرعة، وإذ هم بالخروج من غرفة الفندق نادته أمه: «إلى أين أنت ذاهب؟» ولما أحجم عن الرد قالت له بصوت أبجّ القلق بغرابة: «ابق. لا يجب الذهاب إلى الساحة، الأمر خطير.» بيد أنه كان خارجا.

يبحث عن إستر في الساحة وسط الناس الذين كانوا ينتظرون، وإذا أبصرها لوّح لها ليلتحق بها، ثم توقف. كان هناك جمع غفير، وكانت للنسوة نظرات مكروبة. ثم وصلت السيّدة أورورك. لبست بلا مبالاة، هي الأنيقة عادة. لم ترتد سوى مشمّع فوق فستانها، ولم تلبس قبعتها، وكان شعرها الطويل يتموّج على كتفيها، وكان وجهها مهزولا وعيناها متعبتين.

إستير هي التي عبرت الساحة وذهبت إلى ترستان. لم يكن بمقدورها أن تتكلم، ولم تعرف ماذا تقول. انعقد حلقها، قبلت ترستان بخفة ثم صافحت السيّدة أورورك. ابتسمت لها والدة ترستان، احتضنتها، قبلتها على خدها وقالت لها بعض الكلمات، «حظ سعيد ربّما». كان لها صوت رزين، وكانت تلك أوّل مرّة تكلم فيها إستر. في اللحظة التالية، عندما نظرت إلى الأروقة المقنطرة مجددا، كان ترستان والسيّدة أورورك قد اختفيا.

الشمس تسطع الآن بقوة. ظهرت السحب البيضاء الجميلة من جهة الشرق وانزلقت ببطء في السماء. يعبر الظلّ البارد الساحة من حين إلى آخر، يطفى آثار الأغصان المقطوعة على الأرض. تخيلت أباهما يسير في الجبل، في خط الذرى تماما، مع شساعة الوديان في الظلمات، ربّما كان يشاهد القرية من هناك، قريتها المجهرية والحشد الأسود الذي يكاد يشبه النمل.

قد ينزل إلى أسفل الوادي في الوحدة، عبر تلال العشب المصفرّ من جهة نانثيل أو القسطل حيث له موعد مع اليهود القادمين من نيس وكان، ومن بعيد أيضا، متفادين تقدم الجنود الألمان.

كان هناك في ساحة القرية دويّ محركات، وشرع الإيطاليون في الرحيل. لا بدّ أنّهم تلقوا الإشارة التي انتظروها منذ الفجر، أو أنّهم

قلقوا ولم يعودوا قادرين على تحمل الانتظار، ذهبوا متلاحقين في شكل فرق، وأغلبهم راجلين.

رحلوا وسط دويّ المحركات دون أن يتكلموا، ودون أن يتسّموا. كانت الشاحنات ترتج وقد شرعت في صعود الطريق باتجاه أعالي الجبال، عبر وادي بوريون. يزداد هدير المحركات ويتعكس في أسفل الوادي ليرجع كصدى الرّعد، في حين كان الجنود مسرعين.

اقتربت إستير من الفندق، ربّما ستبصر راشيل في لحظة ما وهي تغادر الفندق مع النقيب موندوليبي. كان هناك رجال بلباس مدني، بشمّعات وقبعات من اللبد، وكانت هناك نساء، لكنّ راشيل لم تكن معهم. كلّ شيء كان يجري بسرعة دون أن تراها إستير، ربّما صعّدت في إحدى الحافلات مع هؤلاء الناس.

قلب إستير يدق بقوة، أحست بانقباض الحلق عندما كانت تنظر إلى الجنود الإيطاليين الأخيرين وهم يتجمعون حول الشاحنات، يقفزون إلى الشاحنات المسطحة المغطاة وهي سائرة.

كان كلّ شيء رماديا جدا وحزينا. تمت إستير رؤية شعر راشيل النحاسي لآخر مرّة. قال الناس في الساحة إنّ الضباط ذهبوا باكرا، قبل العاشرة، راشيل تسير في الجبل إذن وتعبر خط الحدود في ممّر سيريجا.

يشرع الناس الآن في الرّحيل. اجتمع في وسط الساحة، قرب الينبوع، مجموعة من الرجال حول السيّد سليغمان، معلم المدرسة. تعرفت إستير إلى بعض أولئك الذين كانوا يأتون مساء أحيانا للقاء أبيها في المطبخ. تحدّثوا طويلا لأنّ بعضهم كان يريد إتباع طريق شاحنات الإيطاليين وعبور ممّر سيريجا، وكان الآخرون يريدون أن يسلكوا أقرب سبيل عن طريق ممّر فونستر. قالوا إنّه لأمر خطير المشي خلف الإيطاليين، ربّما كان ذلك هو الطريق الذي سيسلكه الألمان لقبلتهم.

ثم صعد السيد سليغمان إلى حافة الينبوع، بدا حائرا ومتأثرا، مع أنّ صوته كان يرنّ بوضوح، كما كان يقرأ الكتب على الأطفال، قال في البداية كلمات بالفرنسية: "أصدقائي! أصدقائي... اسمعوني." توقفت حوضاء الانطلاق وطرح الناس الذين شرعوا في الرحيل حقائبهم للاستماع إليه. وبنفس الصوت الفصيح القوي الذي كان يقرأ به للأطفال الحيوانات المريضة والطاعون لنا، قرأ هذه الأبيات التي بقيت محفورة إلى الأبد في ذاكرة إستير. قرأها ببطء، كأنها كلمات صلاة، وعلمت إستير لاحقا أنّ رجلا اسمه حايين ناحمان بيالك هو من كتبها:

على طريقي المتعرج

لم أعرف مودة.

لقد ضاع خلودي.

كانت إليزابيث تبكي بصمت قرب إستير. الشهقات تمزّ كتفيها، وكان وجهها مجمّدا ومتجهما. فكرت في أنّ ذلك أكثر رعبا من كل الأصوات ومن كل صراخ الدنيا. احتضنت والدتها بكل قواها لكتف الشهقات، كما نفعل مع ولد.

شرع الناس في السير نحو أعلى الساحة، عبروا قرب الينبوع حيث كان السيد سليغمان يتأملهم. الرجال يسرون في المقدمة، متبعين بالنساء، ثمّ الشيوخ والأطفال. شكّل ذلك فريقا طويلا أسود ورماديا تحت شمس حارقة، كما في لحظة دفن.

أبصرت إستير طيف السيد فيرن وهي تمرّ أمام الفندق، كان ظلّا خفيا نصف محتبّي تحت شجرة الدلب. كان يبدو برجليه المقوستين وسترته الطويلة المرمّدة ذات الجيوب المترهلة وقبعته وعثنونه مثل حارس مقبرة يحضر من بعيد مأمّما لا يعنيه كثيرا.

برغم حزن أمها، وبرغم الأسى الذي جعل صدرها ضيقا حرجا، رغبت إستير في الضحك عندما أبصرت طيف السيّد فيرن. تذكرت كيف كان يخبئني عندما كان الجنود الإيطاليون يصعدون الشارع حاملين الببانو.

سارعت نحوه ورفعت يده. نظر إليها الشيخ كما لو أنه لم يتعرف إليها، أشاح بوجهه فاضطرب عثنونه الغريب وهو يردّد: "لا، لا، اذهبوا، اذهبوا كلكم، أنا لا أستطيع، يجب أن أبقى هنا، إلى أين أذهب، إلى الجبل؟" ضغطت إستير على يده بكل قواها وشعرت بالدموع تترقق في عينيها. "لكنّ الألمان سيأتون، عليك أن تذهب معنا."

استمرّ السيّد فيرن في النظر إلى الناس الذين يمشون في الساحة. «لا. لا.» كان يتحدث ببطء. «لا. لا. ماذا سيفعلون بشيخ مثلي؟» ثم قبل إستير مرّة واحدة وتراجع بسرعة. "إلى اللقاء الآن، إلى اللقاء."

عادت إستير جريا إلى جوار أمها وشرعنا في السير مع الآخرين باتجاه أعلى القرية، وعندما استدارت إستير لم تر السيّد فيرن ثانية. ربّما عاد إلى جهة الببانو في مطبخ الدارة المعتمة، لم يبق سوى بعض الأشخاص واقفين تحت أفواس البلدية، أشخاص من القرية ونساء يرتدين فساتين مشجرة ومآزر.

كانوا ينظرون إلى فرقة الهاربين الذين اختفوا في أعلى الجبل، في الجهة التي تبدأ فيها نواذر العشب وغابات الكستناء.

الناس يسيرون الآن في الطريق تحت شمس الظهيرة، كانوا من الكثرة بحيث لم تشاهد إستير لا بداية الفرقة ولا نهايتها. لم يعد هناك دويّ للمحركات في الوادي، ولا صوت، ماعدا انكشاش الأرجل على طريق الحجارة، وصوت النهر على الحصى.

كانت إستير تمشي وتنظر إلى الناس من حولها، إنها تعرف أغلبهم. هم الذين شاهدتهم في شوارع القرية، في السوق أو في الساحة مساء وهم يثرثرون في أفواج صغيرة والأطفال يركضون ويطلقون صراخا حادا. هناك الشيوخ بمعاطفهم الكبيرة ذات الياقات المفراة وقبعاتهم السوداء التي تطل من تحتها ضفائر شعر أشيب. وهناك المسمّى حزان، السيّد يعقوب الذي يمشي بمحاذاة الحاخام الشيخ إيزيك سالنتر وهو يحمل حقائبه الثقيلة.

وماعدا الحاخام إيزيك والسيّد يعقوب فإنّ إستير لا تعرف أسماءهم، إنهم اليهود الأكثر فقرا، أولئك الذين قدموا من ألمانيا، من ألمانيا وروسيا بعد أن خسروا الحرب. عندما دخلت إلى المعبد، إلى الكوخ في أعلى القرية أبصرتهم إستير واقفين حول الطاولة حيث أشعلت الشموع. كان رأسها ملفوفا في الوشاح الأبيض الكبير عندما سمعتهم يرددون كلمات الكتاب المقدس بلغة غريبة ورائعة، لغة تنفذ إلى الأعماق دون أن نفهمها.

وإذ تراهم الآن تحت الشمس، على طريق الحجارة هذه، الظهور محنية وهم يسرون ببطء بمعاطفهم الكبيرة التي تثقل كاهلهم. تشع إستير بقلبها ينبض بقوة، كما لو أنّ شيئا مؤلما ومحمّما بصدد الوقوع، كأنّ العالم بأسره يمشي في هذا الطريق باتجاه المجهول.

كانت تنظر بخاصة إلى النساء والأطفال. ثمة نسوة مسنات لمختهن في مؤخرات المطايخ، لا يخرجن أبدا، ماعدا إلى الحفلات والأعراس. إنهن يتقدمن الآن في عرض الطريق وهن يرتدين معاطفهن الثقيلة ويلقفن رؤوسهن بحمارات سوداء دون أن ينبسن، ووجوههن الشاحبة مقطبة تحت الشمس.

وهناك نساء أصغر لازلن رشيقات برغم المعاطف والحزم المتنوعة التي تربكهن وهن يسحبن الحقائب، كن يتحدثن فيما بينهن، وهناك من كنّ يضحكن، كأنهن ذاهبات في نزهة.

الأطفال يركضون أمامهم وهم يرتدون بدلات صوفية حارة وأحذية جلدية واسعة لا يلبسوها إلا في المناسبات الكبرى. كانوا يحملون حزما وحقائب بها خبز وفواكه وزجاجات من الماء. كانت إستير تبحث عن أسمائهم في الذاكرة وهي تسير معهم، سيسيل غرانبيرغ، مايارل، جليستار، صراح وميشال لوبلنير، ليّا، أميلي سيريشير، فيزا، جاك مان، لازار، ريفكولي، روبير دافيد، ياشيت، سيمون شولفيتش، تال، ريببكا، أندري، مارك، ماري، أنتوانيت، لوسي، إيلان سالنتر... لكنّها لا تعثر على أسمائهم إلا بمشقة، لأنّهم لم يعودوا أولئك الأطفال والفتيات الذين عرفتهم، أولئك الذين شاهدتهم في المدرسة، أولئك الذين يركضون ويصرخون في الشوارع، الذين سيسبحون عراة في الشلالات ويلعبون لعبة الحرب في الأدغال.

الآن وهم يرتدون ثيابا كبيرة جدا، ثقيلة جدا ويتنعلون الأحذية الشتوية، الفتيات يخفين شعرهن بالأوشحة والأطفال يلبسون قبعاتهم المستديرة أو البرنيطة، فإنّهم لم يعودوا يركضون بسرعة، ما عادوا يتخاطبون، إنهم يبدون يتامى في رحلة، أصبحوا حزائى ومتعبين، لا ينظرون لا إلى شيء ولا إلى أحد.

كان الفريق يعبر أعلى القرية مرورا بالمدرسة المغلقة ومركز الدرك، وكان السكان ينظرون إليهم لحظة وهم يمرّون، كانوا واقفين أمام الأبواب أو متكئين على مرافقتهم في النوافذ، صامتين مثل أولئك الذين يمشون أمامهم.

كانت تلك أول مرّة، وكانت مؤلمة. أدركت إستير أنّها ليست مثل ناس القرية. هم يستطيعون الاستمرار في العيش في هذا الوادي، تحت هذه السماء ويشربون ماء الشلالات. سيقون أمام أبوابهم، ينظرون من خلال النافذة وهي تمرّ أمامهم مرتدية ثيابها السوداء وفرو

ماريو، رأسها ملفوف في الوشاح وقد رضّت قدميها أحذية الشتاء،
عليها أن تمشي مع أمثالها الذين لم يعد لهم بيت، ليس لهم الحق في نفس
السماء، في نفس الماء.

انقبض حلقها من الغضب والقلق وأصبح قلبها يدق في الصدر
بقوة. فكرت في ترستان، في وجهه الأبيض وعينيه المحمومتين، نداوة
خدّ السيّدة أوروك ويدها التي صافحت يدها لحظة، وقلبها الذي خفق
لأنّها كلّمته لأول مرّة، ولا بدّ أنّها لن تراها أبدا. فكرت في راشيل، في
الفندق الخالي حاليا. الريح تنفذ إليه من النوافذ المفتوحة وتدوم في
القاعة الكبيرة. لأول مرّة تفهم أنّها أصبحت فتاة أخرى. لن يستطيع
أبوها أن يناديها إستير ليتا أبدا، لا أحد يناديها هيلين. لا فائدة من النظر
إلى الوراثة. لقد توقف كلّ هذا.

الفريق يمشي في طريق الحجارة، مابين تلال الأعشاب، هناك حيث كانت تختبئ إستير سابقا لتنتظر عودة أبيها. كان السيل يصدي في الأسفل، وهناك اندعاك الماء الذي يرنّ في منحدرات الجبل. تكدست الغيوم في السماء من جهة الشرق مكونة أشكالا هندسية سحرية في أسفل الوادي، مثل قبب ثلجية، مثل قصور.

تذكر إستير أنّها رأها قادمة وهي ممددة على الصخور المسطحة التي لازالت مبللة بماء السيل. تحسّ بالقطرات الباردة التي تنحسر على ساقيها وهي تستمع إلى موسيقى الماء وطنين الزنابر، تذكر بأنّها كانت تحبّ الذهاب مع السحب لأنّها تنزلق في الريح بحرية، لأنّها كانت تذهب دون اكتراث إلى الجهة الأخرى من الجبال، إلى غاية البحر.

تتخيّل كلّ ما تراه، الوديان والأنهار والمدن الشبيهة بالنامل والخلجان الكبيرة حيث يسطع البحر. الغيوم ذاتها اليوم، مع أنّ لها شيئا مربكا. إنّها تشكل ما يشبه السدّ في عمق الوادي، في كل قمم الجبال، وتنصب جدارا كبيرا أبيض معتما لا يمكن تحطيه.

ضغطت إستير بقوة على يد أمها وهما تسيران في الطريق بخطى متناغمة وسط الكتبية الطويلة. فقدت الغابة أنافتها. استبدلت أشجار القسطل والبلوط بأشجار طويلة من الصنوبر تكاد تكون سوداء. لم يحدث أن ذهبت إستير أبعد في وادي الشلال. يتعذر الآن رؤية طرف الوادي، ولا أسوار السحب، ماعدا سيقان الأشجار في لحظات، والسيل الذي يلمع تحت الشمس.

تباطأ الفريق وهو يعاني على طول الطريق الضيق المائل. توقف الشيوخ والنساء اللاتي يحملن الأطفال على قارعة الطريق للاستراحة، كانوا يجلسون على الصخور أو على حقائبهم. لا أحد يتكلم، يمكن سماع وقع الأحذية على الحجارة وصراخ الأطفال الذي يرن بغرابة وقد خنفته الأشجار. كان شبيها بأصوات الحيوانات.

أفزع الفريق، وهو يعبر الغابة، غربانا حلقت بعيدا وهي تنعق، نظرت إستير إلى الطيور السود وتذكرت ما قاله أبوها في أحد الأيام وهو يتحدث عن إيطاليا، دها على غراب في السماء: «إن استطعت الطيران مثل العصفور ستصلين إليها هذا المساء.» لم تجرؤ على طرح السؤال على إليزابيث، أن تقول لها: «متى يلتحق بنا وأبي؟» لكنها ضغطت بقوة على يدها وهي تسير، وكانت تنظر إليها خفية. وجه أمها مقطب، شاحب، شفتاها معقودتان وقد شاخت ملامحها بسبب الوشاح الذي ارتدته لتشبه النساء الأخريات.

كانت تشعر بانقباض لأنها تتذكر أيام الصيف، عندما كانت إليزابيث ترتدي فستانها الأزرق الممّور وحذاءها المسير، تمشط شعرها الأسود الحريري مطوّلا إرضاء لوالد إستير، ثم ترافقه إلى ساحة القرية. تتذكر إستير ساقى أمها الطويلتين وبشرتها الملساء على شظيبتها والضوء الذي يلح على كتفيها العاريتين، أكيد أن لا شيء يعود الآن من كل هذا. «هل يمكن العثور على ما تركناه خلفنا بعد ذهابنا؟ هل سنعود إلى هنا مع أبي، أحقا أننا ذاهبون دون رجعة؟»

لم تسأل إستير عن هذا عندما ارتدت ملابسها بسرعة، حملت الحقيبة وخرجت من البيت صاعدة السلام الستة التي تقود إلى الشارع. سارتا معا في الشارع صوب الساحة ولم تجرؤ إستير على طرح السؤال. بيد أن أمها فهمت. لم تقم سوى بتكشيرة غريبة وهي

هَزَّ كَتْفَيْهَا، ثُمَّ أَبْصَرَهَا إِسْتِيرَ بَعِيدًا وَهِيَ تَمْسَحُ عَيْنَيْهَا وَأَنْفَهَا لِأَنَّهَا كَانَتْ تَبْكِي.

عَضَتْ حَيْنَهَا عَلَى شَفَتَيْهَا بِكُلِّ قَوَاهَا إِلَى أَنْ انْبَثَقَ الدَّمُ، كَمَا كَانَتْ تَفْعَلُ عِنْدَمَا تَرِيدُ مَحْوَ حِمَاةِ ارْتِكَبَتَهَا.

لَمْ تَنْظُرْ إِلَى أَمْهَا ثَانِيَةً حَتَّى لَا تَقْرَأَ الأَلْمَ الَّذِي فِي عَيْنَيْهَا، حَتَّى لَا يَعْرِفَ أَحَدٌ أَنَّهَا كَانَتْ تَتَفَكَّرُ بِدَوْرَهَا فِي هَذَا. كَانَ النَّاسُ قَدْ تَبَاعَدُوا فِي طَرِيقِ الْحِجَارَةِ الصَّاعِدِ فِي الْغَابَةِ، الشَّبَابِ وَالرِّجَالِ وَالصِّغَارِ فِي الْمَقْدَمَةِ. لَمْ تَعُدْ أَصْوَاتَهُمْ مَسْمُوعَةً عِنْدَمَا يَتَخَاطَبُونَ، وَخَلْفَهُمْ كَانَ الْمَوْكَبُ الطَّوِيلُ الْمُنْسَحَبُ.

وَمَعَ أَنَّهِنَّ لَمْ تَكُونَا تَسِيرَانِ بِسُرْعَةٍ بِسَبَبِ ثِقَلِ الْحَقَائِبِ الَّتِي أَلْهَبَتْ أَيْدِيَهُمَا، فَقَدْ تَجَاوَزَتْ إِسْتِيرَ وَأَمْهَا نِسَاءَ أُخْرِيَاتِ، الْعَجَائِزِ اللَّائِي يَتَعَثَّرْنَ فِي الْحِجَارَةِ وَالنِّسَاءِ اللَّائِي يَحْمِلْنَ أَطْفَالَ بَيْنَ سَوَاعِدِهِنَّ، وَالشُّيُوخَ الْيَهُودَ الَّذِينَ يَرْتَدُونَ الْقَفَاطِينَ الثَّقِيلَةَ وَهُمْ يَتَوَكَّأُونَ عَلَى عَصِيَّتِهِمْ.

عِنْدَمَا اقْتَرَبْنَا مِنْهُنَّ تَبَاطَأَتْ إِسْتِيرَ لِمُسَاعَدَتِهِمْ، لَكِنَّ أَمْهَا سَحَبَتْهَا وَقَتْنَدَ مِنْ ذِرَاعِهَا بِشَيْءٍ مِنَ الْعَنْفِ. فَزَعَتْ إِسْتِيرَ لِرُؤْيَا الْمَلْمَحِ الْقَاسِيِ عَلَى وَجْهِهَا وَهِيَ تَتَجَاوَزَانِ الْمَتَأَخَّرِينَ، وَكَلِمَا سَارَتَا أَصْبَحَتْ أَطْيَافَ النِّسَاءِ الْجَالِسَاتِ عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ أَقْلَ فَأَقْلَ.

فِي لِحْظَةٍ مَا أَصْبَحَتْ إِسْتِيرَ وَأَمْهَا تَسِيرَانِ وَحَدَهُمَا، وَلَمْ تَكُنْ تَسْمَعَانِ سِوَى وَقْطَعِ خَطَاهُمَا وَالانْقِصَافِ اللَّيْنِ لِلجَدُولِ فِي الأَسْفَلِ.

كَانَتْ الشَّمْسُ قَرِيبَةً جَدًّا مِنْ خَطِّ الْجِبَالِ، كَانَتْ خَلْفَهُمَا. غَدَّتِ السَّمَاءُ شَاحِبَةً، مَائِلَةً إِلَى اللَّوْنِ الرَّمَادِيِّ، وَأَمَامَهَا تَكَدَسَتْ السَّحْبُ السُّودَاءُ الثَّقِيلَةَ، وَإِذْ بَحِثَتْ إِيزَابِيثَ عَنْ هَذَا مِنْذُ وَقْتِ طَوِيلٍ، فَقَدْ أَبْصَرَتْ فَجْأَةً مَا يَشْبَهُ الْفَسْحَةَ، عَلَى سَطْحِ فِي أَعْلَى السَّيْلِ. قَالَتْ:

«سنقضي ليلتنا هاهنا.» ونزلت قليلا إلى حدّ الصخور التي تشرف على السيل. لم يحدث أن رأيت إستير موضعا بذلك الجمال.

صنعت الطحالب بساطا بين الكتل الصخرية الدائرية، وفي الأعلى، يسارا، كان هناك شاطئ صغير من الرمل تأتي إليه أمواج السيل لتتلاشى. بدا الموضع لإستير مثل صورة من الجنة، بعد قسوة طريق الحجارة ولفح الشمس، وبعد كدر كبير وأتعاب لا تعدّ.

ركضت لتتمدد على الطحالب ما بين الكتل الصخرية وأجفلت عينيها. عندما أعادت فتحهما أبصرت أمامها وجه أمها. غسلت إليزابيث ذراعيها ووجهها في ماء السيل، وكان ضوء المساء يصنع هالة حول شعرها المفكوك. تمتت إستير: «إنك غاية في الجمال. يجب أن تذهبي لتغتسلي»، وقالت إليزابيث: «إنه منعش، لا بدّ أن ناسا آخرين سيتوقفون هنا ليبيتوا.»

نزعنا إستير حمارها وحذاءها ودخلت إلى الماء الثلج إلى منتصف الربلتين رافعة فستانها. كان الماء البارد ينزلق على ساقها ويخدرهما. شربت الماء في باطن يدها، رشّت وجهها لتلطيف لهب الشمس. بلّلت الماء طرف فستانها وكمّيت صدريتها الصوفية وعلق بالفرو.

وصل الناس متأخرين قليلا. توقف كثير منهم في الأسفل، في فرجة أخرى، وسمعت إستير أصوات الأطفال ونداءات النساء. يعرف الجميع أنه لا يجب إشعال النار حتى لا يكشفهم الجيش الألماني. لقد تمّ تحضير وجبة العشاء كيفما اتفق.

أخرجت النساء الخبز وقسمته قطعاً أكلها الأطفال أمام السيل. أحضرت والدّة إستير قطعة جبن جافة منحتها إياها صاحبة الشقة، لقد بدت لذيذة. أكلنا تينا أيضا، ثم ذهبنا للشرب من السيل جاثيتين.

شيّدتا في الشاطئ، قبل مجيء الليل، ملجأ بأغصان الصنوبر، وكانت الأبنان المترامية بمثابة سقف.

وصل الليل ببطء، كانت الأصوات البشرية تصدي بقوة أكبر في الغابة وفي كل مكان. لم تنم إستير رغم التعب، سارت إلى مصب السيل تدلها أصوات الأطفال. لاحظت في الأسفل، على بعد مئة متر، فتيات يلعبن على حافة السيل. وبرغم ثياهن فقد كنّ في الماء إلى منتصف السيقان، وكنّ يرششن أنفسهن ضاحكات.

تعرفت إليهنّ إستير. إنهنّ الفتيات البولونيات اللاتي وصلن إلى القرية مع أوليائهن في مطلع الصيف، اللواتي يتكلمن بلغتهن الغربية أثناء الغناء. تذكر إستير أنّ والدها حدثها ذات مساء عن مدينة ذات اسم غريب مثل لغة الفتيات، رزيسزو، وعن الجنود الألمان الذين أحرقوا بيوت اليهود وطردوهم، سجنوهم في قاطرات البهائم وأرسلوهم إلى المحتشدات، إلى الغابات حيث على الأطفال العمل إلى حدّ التهلكة. تذكر هذا وتنظر إلى الفتيات. إنهنّ الآن هنا في هذه الغابة العميقة على ضفة السيل، طردوهن من جديد وهاهن يذهبن نحو المجهول، إلى الجبال حيث تتكدس السحب، مع أنّهن يظهرن غير مباليات، كما لو أنّهنّ في رحلة.

دخلت إستير إلى الفسحة لمشاهدتكن. الفتيات يلعبن حاليا للامساك ببعضهن، يجرين من شجرة إلى أخرى بفساتينهن الطويلة التي تنتفخ حولهن، كأنهن يرقصن. كان لكبيرتكن التي في العاشرة أو الحادية عشرة شعر وعيون باهتة، في حين كانت أخواتها سمروات، وإذ شاهدن إستير تسمرن.

تقدمن بحذر، جماعيا، وتفوهن بكلمات بلغتهن. لقد جنّ الليل. إستير على دراية بأنّ عليها العودة إلى أمها، مع أنّها لا تستطيع فصل نظرهما عن عيني الفتاة الشاحبتين. أمّا الأخريات فقد استأنفن اللعب.

كان أولياؤهن قرب الصنوبر، نساء يرتدين الأسود ورجال بالقفاطين. وكان هناك أيضا شيخ بلحية طويلة رمادية شاهدته إستير في مدخل المعبد، في الكوخ.

أخذت الفتاة الصغيرة إستير من يدها وقادتها إلى غاية الشجرة. طرحت عليها إحدى النساء أسئلة وهي تبتسم، لكنّها فعلت ذلك بلغتها الغريبة. كان لها وجه جميل مستقيم، وكانت عيناها ذات زرقاة شاحبة، كعيني الفتاة الصغيرة. قسمت حينها قطعة من الخبز الأسود وقدمتها لإستير.

لم تجرؤ إستير على الرفض، بيد أنّها أحست بنوع من الحياء لأنّها أكلمت من قبل جبنا وتينا، دون أن تقتسم شيئا. أخذت الخبز وذهبت جارية إلى طريق الحجارة دون أن تقول شيئا، أسرع نحو الفسحة حيث تنتظرها أمها. كان الليل يضيق على الأشجار ويضع ظلالات محيرة في كل مكان. لا زالت تسمع أصوات الفتيات وضحكاتهن القادمة من الخلف.

بدأ المطر يسقط. كان يحدث على السقوف صوت حفيف لئّن، صوتا لئنا هادئا بعد هدير محركات الشاحنات ووقع الخطى. خرجت راشيل إلى الشوارع رغم ظلام الليل وأخذت تمشي تحت المطر متدثرة بخمار أمها الكبير، وإذ بدأ صوت الشاحنات الإيطالية يدوي في كل أرجاء الوادي، رغبت في الركض إلى الساحة، لكن أمها قالت لها: «لا تذهبي إلى هناك: لا تذهبي إلى هناك، أرجوك، ابق معنا!» كان والدها مريضا ولم تخرج.

دوّت الشاحنات طوال اليوم في الوادي وفي الجبال. كان الدويّ قريبا أحيانا بحيث كان هناك شعور بأنّ الشاحنات على وشك اقتلاع الجدران، ثم كان وقع الخطى، ربّما كان ذلك أظنّ، ذلك الصوت

الرَّحْو، ذلك العدو السريع. كان الناس يصعدون الزقاق ويتعدون إلى أن أقبل الليل.

هناك أصوات ونداءات ضيقة الأنفاس وبكاء أطفال. بقيت راشيل يقظة في الظلام طيلة الليل، جالسة على كرسي قرب السرير حيث تنام أمها.

سمعت في السرير الآخر بالغرفة الضيقة النفس السريع لأبيها والسعال الجاف للمريض بالرَّبو. هناك هدوء كبير صباح الأحد. الشمس تسطع في الخارج من خلال فراغات المصارع، وكانت زقزقة العصفير في السماء كما في الصيف.

إلا أن راشيل أبت الخروج وفتح المصارع. كانت من التعب بحيث أحست بألم في القلب، وإذا استيقظت أمها لتحضير نفسها ولتطبخ، تمددت راشيل على السرير الذي لا يزال دافئا ونامت.

لقد سقط الليل حاليا. المطر ينزل ببطء على سقوف القرية، وحين استيقظت راشيل لم تفهم جيّدا أين هي. ظنت أنها في غرفة الفندق مع موندوليني، ثم تذكرت ما جرى. ربّما فكرت أن الدركي بقيّ وحده في الفندق وأنه ينصت بدوره إلى سقوط المطر. ذهب الجنود الإيطاليون كلهم وعاد الصمت إلى الجبل. قال لها مرّة وهي تمشط شعرها أمام مرآة الغرفة بعدما اقترب منها وهو ينظر إليها نظرة غريبة: «عندما تنتهي الحرب سأخذك إلى إيطاليا، إلى كل مكان، إلى روما، إلى نابولي، إلى البندقية، سنقوم برحلة طويلة.» في ذلك اليوم بالذات أعطاها الخاتم الذي بجوهرة زرقاء.

سارت راشيل في الشوارع الصامتة، المصارع كلها موصدة. فكرت في شيء يجعل قلبها يخفق، فكرت في نهاية الحرب حاليا. عندما قنبل الأمريكيون جنوى قال موندوليني لقد انتهى الأمر، سيوقّع

الإيطاليون الهدنة. ذهب الجنود الإيطاليون إلى الجبل وعادوا إلى بيوتهم. نامت المدينة بلا ضجيج مثل شخص مرهق جدًا.

أسرعت راشيل نحو الساحة. عندما تصل أمام الفندق ستدق المصراع كعادتها وسيأتي ليفتح الباب. ستشم رائحته، رائحة التبغ، رائحة جسده، ستسمع صوته يرن في صدره. إنها تحب عندما يتكلم عن إيطاليا، يتحدث عن المدن، عن روما، عن فلورنسا والبندقية، يقول بهدوء أشياء بالإيطالية، كأنها قادرة على فهمه. بمقدورها أن تذهب بعيدا عندما تنتهي الحرب، بعيدا عن الناس الذين يترصدون ويهمزون، بعيدا عن الشبان الذين يرمونها بالحجارة، بعيدا عن البيت الخرب، عن الشقة الباردة حيث يسعل أبوها.

ستسافر إلى هذه المدن حيث الموسيقى في الشوارع، في المقاهي، في دور السينما، في المحلات. إنها ترغب في أن يكون ذلك حقيقيا، وبسرعة، في أن ترتعش رجلاها من تحتها وتتوقف في فتحة الباب والماء يقطر على رأسها ويلصق الخمار الأسود بشعرها.

إنها في الشارع الذي يصعد إلى الساحة. تمرّ أمام دار التوت أين يسكن السيد فيرن. لا يوجد ضوء في ثقب المصراع، ولا صوت، الليل مظلم جدا. لكن راشيل تدرك أن الشيخ في البيت، وإذا أرهفت السمع بدا لها أنها تسمعه يكلم نفسه بصوته المرتعش. تحيلته بصدد طرح الأسئلة والإجابة عليها، ورغبت في الضحك.

تسمع الآن الماء الذي يشلّ في حوض النافورة. الأشجار في الساحة مذهشة بفعل الضوء. لماذا كل هذا الضوء؟ هل تمّ رفع حظر التجول؟ فكرت راشيل في العسس. أطلق الدركيون الرصاص على زوج روسلي ليلة ذهابه لإحضار الطبيب من أجل الولادة. يقول موندوليني عندما يتحدث عن الجنود «مخبولون»، يقول ذلك وهو يخفض صوته بازدراء، إنه لا يحب الألمان. يقول إنهم كالحوانات.

ترددت راشيل في الساحة. هناك ضوء ساطع يجيء من الفندق، يضيء الأشجار والبيوت كزخرف مسرح. الضوء يرسم ظلالاً سحرية، لكنّ راشيل تنصت إلى خرير الماء الذي يتساقط في الحوض، تشعر أنّها مطمئنة. ربّما قرّر الدركيون والجنود الاحتفال بنهاية الحرب، مع أنّ راشيل تعرف الآن أنّ ذلك غير صحيح. الضوء الذي ينير الساحة بارد، يجعل قطرات المطر لامعة، لا يوجد أيّ ضجيج، ولا صوت، كل شيء ساكن وفارغ.

اقتربت راشيل من الفندق لما جانبت الحاجز المفرغ. ألمها الضوء وجذبها رغماً عنها، رغم قلبها الذي ينبض بقوة ورجليها اللتين ترتعشان، لم يحدث لها أن رأت ضوء بهذه الكثافة. يبدو الليل في الضواحي بهيما أكثر، وأكثر سكوناً.

لما وصلت راشيل بالقرب من الفندق رأت الجندي واقفاً أمام الباب، كان جامداً بينديقة في يده. نظر أمامه، كأنه يريد ثقب الليل بكل هذا الضوء. بقيت راشيل ثابتة، ثمّ تراجعت ببطء لتختبئ. كان الجندي ألمانيا. أبصرت حينها الشاحنات المتوقفة، وهناك في الظلّ كانت سيارة الغستابو. تراجعت راشيل إلى الأشجار وهربت، نزلت جارية في الأزقة إلى البيت القديم، وكانت خطاها ترنّ في الصمت كعدو فرس. قلبها يدق بقوة، تشعر بألم في وسط الصدر، بحرقّة. لأول مرّة في حياتها خافت إلى درجة الموت.

رغبت في الجري عرض الجبال حتّى إيطاليا، إلى معسكرات الجنود ليلاً. كانت توّد سماع صوت موندوليبي، شمّ رائحته، عقد ذراعيه حول قامته، غير أنّها وصلت إلى باب البيت، إنّها تعرف أنّ الوقت فات، تعرف أنّ الألمان سيأتون الآن، وسيأخذونها، سيأخذون كذلك أباهاً وأمها ليذهبوا بهم بعيداً.

انتظرت لحظة حتى يهدأ قلبها ويخف نفسها، إنها تبحث عن
الكلمات التي ستقولها لأبيها وأمها لطمأنتهما، حتى لا يعلما فوراً، إنها
تجهما حدّ الموت، دون أن تدرك ذلك.

أيقظهما المطر فجرا. مطر خفيف يندي ببطء فوقهما على قمم أشجار الصنوبر ويختلط بانكسار السيل. بدأت القطرات تنفذ من سقف ملجئهما، القطرات الثلجة تططب على وجهيهما. حاولت إليزابيث جاهدة ترتيب الأغصان، بيد أنها لم تفلح سوى في جعل المطر ينفذ أكثر فأكثر.

حملتا وقتئذ حقائبهما واختبأتا في جذع أرزية مرتجتين وقد التفتتا في حماريهما. بين ضوء النهار شكل الأشجار. كانت سحابة بيضاء تنزل مع الوادي، وكان البرد شديدا بحيث بقيت إستير وإليزابيث متشابكتين في جذع الأرزية، دون أن تتشجعا على الحركة. ثم دوت أصوات الرجال في الغابة ونداءات، يجب النهوض، التدثر بالملابس الرطبة، جمع الحقائب، ثم الرحيل.

كانت قدما إستير تتألمان فراحت تترنح في طريق الحجارة وهي تنظر إلى طيف أمها قدّامها. طلعت أشكال أخرى من الغابة شبيهة بأشباح. كانت إستير تأمل في أن ترى خلفها الفتيات البولونيات. بيد أنه لم يكن هناك لا صوت أطفال ولا ضحك، ماعدا الاحتكاك المتجدد للأحذية على حجارة الطريق، وخرير السيل المستمر، الذاهب في الاتجاه الآخر.

بدت الغابة لانهائية بعد أن قبض عليها الضباب. لا يمكن رؤية لا أعالي الأشجار ولا الجبال. إنّهاء كمن يمشي بلا هدف، منحنية إلى الأمام، مثقلة بحمولة الحقائب، متعثرة وقد كدمت قدميها تنوءات الحجارة.

تجاوزت إستير وإليزابيث فارين انطلقوا قبل الفجر وتعبوا، نساء مسنات جالسات على حزمهن على قارعة الطريق. كانت وجوههن تبدو في الظلام أكثر شحوبا. لا يتألن، ينتظرن على حافة الطريق، وحيادات أحيانا ومستسلمات.

يصل الطريق إلى السيل، ووجب الآن عبور المجازة. كان الضباب وهو يتعد، يسمح برؤية المنحدر المقابل، المغطى بأشجار الأرزية المعتمة والسماء الزرقاء، وذاك ما شجع إليزابيث على عبور السيل وهي تمد يدها إلى إستير، ثم شرعنا في صعود منحدر الجبل دون توقف. في الأعلى، على الجانب الأيمن، كان هناك كوخ من الحجارة، ربما قضى فيه الهاربون ليلته لأنّ العشب مدعوس من كل الجهات.

سمعت إستير مجددا نعيق الغربان، وبدل أن تقلقها هذه الأصوات أراحتها لأنها تريد أن تقول: «إننا هنا، إننا معكم!»

وصلت إليزابيث وإستير إلى المحراب قبل الظهر، الوادي يتسع عند مخرج الغابة، أبصرتنا على الهضبة المشرفة على السيل البيوت العسكرية والمعبد. تذكرت إستير حديث غاسباريني عن العذراء، عن التمثال الذي يرفع إلى المحراب صيفا ليتمّ إنزاله شتاء مرتديا معظفا كي لا يبرد. بدا لها بعيدا بحيث لم تفهم أنه حصل فعلا.

اعتقدت أنها سترى التمثال في مغارة، محتبعا وسط الأشجار، محاطا بالأهجار، وكانت تنظر دون أن تفهم هذه البنايات الكبيرة البشعة الشبيهة بثكنات.

بحثت إستير عن عيني النقيب موندولين، لكنّه لم يكن هناك، ربّما سلك طريقا آخر، من جهة ممّر سيريغا، ربّما يكون وصل إلى إيطاليا. لا توجد راشيل.

ضغطت إستير على يد إليزابيث: «هل يلتحق بنا أبي هنا؟» لكن إليزابيث لم ترد. وضعت الأمتعة أمام حائط البناية وطلبت من إستير حراستها. ذهبت للحديث مع ناس كانوا مع السيد سليغمان، لكنهم لا يعرفون، سمعتهم إستير يتحدثون عن طريق بورتمون، عن باص، أشاروا إلى الجهة الأخرى من الوادي، إلى أعالي الجبال التي أظلمت.

عادت إليزابيث، كانت كلماتها بجاء، متعبة، لم تقل سوى: «ننتظر هنا إلى صبيحة الغد، سنعبّر غدا صباحا، سيلتحق بنا هنا.» غير أن إستير فهمت أنها لا تعرف شيئا.

أقام الهاربون لقضاء الليلة. فتح الجنود الإيطاليون باب إحدى البنايات، ساعدوا النساء على حمل حقائبهن، منحوا أغطية الأسرة، وقد أحضرت كذلك قهوة ساخنة. إستير لا تعرف هؤلاء الجنود، كان بعضهم صغارا، أطفالا تقريبا، وكانوا يقولون: «انتهت الحرب»، ويضحكون.

بدأت البناية العسكرية شبه وثيرة بعد الليلة التي تمّ قضاؤها تحت المطر. لم تكن هناك أسرة كافية للجميع فاقسمت إستير وإليزابيث نفس السرير، وعندما وصل هاربون آخرون أقاموا في المرقد حيث استطاعوا. وعندما لم يعد هناك مكان في البيت العسكري استقرّ الناس في المعبد الذي حطّمت أبوابه.

قرر الناس الأكثر استعدادا عبور الممر الجبلي قبل الليل مع السيد سليغمان. أزال الريح السحب، وكانت أعالي الجبال في أسفل الوادي تلمع من الثلج. كانت إستير في الساحة عندما شرع الفريق في صعود الطريق في أعلى المعبد. تأملتهم وهم يغادرون وتمنت لو كانت معهم، لأنهم سيصلون إلى إيطاليا مساء، لكن أمها كانت مرهقة حتى تواصل السير، وربما كانت تأمل في وصول والدها هذا المساء.

هناك في أسفل المنحدر زريبة بقر مهجورة وسط حقول شاسعة
تتخللها ينابيع السيل، فكرت إستير أنّ والدها سيأتي من تلك الجهة،
تخيلته بصدد نزول الجبل وهو يعبر المراعي التي يصل فيها العشب إلى
حصره وهو يقفز من صخرة إلى أخرى لعبور السيل.

نسيّ أبناء الهارين تعبهم وبدأوا يلعبون في ساحة المعبد أو
ينزلون المنحدرات جريا وهم يضحكون ويصرخون. تأملتهم إستير
وانقبض قلبها عندما تذكرت أنّها نسيّت بسببهم ترقب مجيء أبيها من
عمق الوادي.

ثم تصاعد صراخ الأطفال وتابعتهم مجددا بعينها، بقيت الغربان
في أعلى المعبد، كانت هي الأخرى تحوم في السماء ناعقة، كأنها تريد
أن تقول شيئا للناس.

جاءت بعد ذلك والدّة إستير وجلست قربها، أحاطتها بذراعاها
واحتضنتها، لقد راقبت طيلة الظهر عمق الوادي ومنحدر الجبل
القاحل ولم تقل شيئا.

وسألت إستير: «إن لم يأت أبي مساء، هل ننتظره غدا
هاهنا؟» أجابت إليزابيث في الحين: «بلى، قال لا يجب انتظاره، يجب
المشي دون توقف - سيلتحق بنا إذا في إيطاليا؟ - نعم يا حبيبي،
سيلتحق بنا، سيأتي من طريق آخر، إنه يعرف كل الطرق، ربّما يكون
عبر بورتمون مع أصدقائه. الألمان يطاردون اليهود في كل مكان،
هل فهمت؟ لهذا يجب المشي دون توقف.»

كانت إستير تدرك أنّ أمها تكذب عليها كما في السابق، إنّها
تخترع كل هذا لطمأنتها، وكان ذلك يؤلمها في البطن، كل كلمة الأولاد
سابقا قرب الكوخ المهجور. «هل يلاحقها الألمان هي كذلك؟»
انفضت أمها، كأنما نطقت كفرا- «لماذا تتحدثين عن راشيل؟»

فأجابت إستير: «لأنها هي أيضا يهودية.» هزت إليزابيث كتفيها: «لقد تخلت عن كل شيء، عن والديها، عن الجميع وذهبت مع الإيطاليين.» غضبت إستير وكادت تصرخ: «لا، هذا غير صحيح! لم تذهب مع الإيطاليين! بل بقيت في القرية مع والديها.» سألت أمها "كيف عرفت هذا؟" كررت إستير بعناد: «لم تذهب مع الإيطاليين، بل بقيت مع والديها.» "جيد"، علقت إليزابيث ببرودة. «أظنها ستتدبر أمرها.» لزمتا الصمت وهما تنظران معا إلى النقطة ذاتها في عمق الوادي، بمحاذاة تخوم الغابة، لكن شيئا ما انكسر. ربّما لا تنتظران شيئا.

عُتّم السحب قمم الجبال حوالي نهاية الظهر. أصبح هزيم الرعد يرج الأرض بقصف دقيق جعل بعض الهاربين يفكرون في بداية قبلة، وبدأوا يصرخون فزعاً. طفق المطر ينزل بقطرات كبيرة وركضت إستير لتحتمي بمخبأ المعبد. كان الجو معتماً، وإذا لم تكن تبصر شيئا تعثرت في الأجساد. كان الهاربون ممددين على الأرض مدثرين بالأغطية، وكان الآخرون واقفين، متكئين بظهورهم على الحيطان. ثقبت قذيفة الجانب الأيسر من السقف وأخذ المطر يشل داخل المعبد.

أشعلت شموع على يمين المذبح رغم تحذيرات الإيطاليين، وبيّن الضوء المتمايل لإستير أشكال وجوه الهاربين. كان أغلبهم شيوخاً، مسنين ومسنات مهتمدين على الطريقة الروسية أو البولونية، شبيهين بأولئك الذي شاهدتهم في الكوخ يوم السبت وقد حفر التعب والقلق وجوههم.

قرب الشموع، على حافة المذبح، كان الشيوخ المدثرون بقفاطينهم مستديرين نحو الحاخام إيزيك سالنتر الذي كان يقرأ كتاباً

كان الغناء يرنّ داخل المعبد، فوق انقصاص الماء والرعد. يبدو أنّ القناديل القليلة المشتعلة في حامل الشموع، بمحاذاة الهيكل، ترسل نفس ضوء المعبد في عشية السبت.

دخل المعبد الآن ناس آخرون قدموا من المراقد والبيوت العسكرية. أبصرت إستير أمّها واقفة أمام الباب، تقدمت نحوها دون أن تترك يد الفتاة وقادتها إلى غاية الحائط حيث كنّ ماكنات.

كان الليل في الخارج مدلهما، مخططا بالبرق. توقف الغناء تدريجيا، سكت الجميع وهم يستمعون إلى صوت المطر وقصف الرعود المتعد نحو الوديان. ترنّحت أضواء الشموع وانطفأت الواحدة تلو الأخرى. لم يعد أيّ أحد يعرف أين هو. عبرت إستير الساحة لاحقا في ريح باردة وذهبت لتنام في سرير إليزابيث. اقتربتا من بعضهما كي لا تسقطان.

استأنف الجنود الإيطاليون السير فجرا، متبوعين بالهاربين، وكانت السماء زرقاء داكنة في أعلى الجبال المغطاة بالثلج، وكان طريق الحجارة يصعد متعرجا إلى أعلى المعبد. تابع الرتل السير ببطء وقد عطله الأطفال والشيوخ. كانوا مثل أطيايف سوداء في هذا المدّ من الحجارة.

عبرت إستير وإليزابيث ردما شاسعا. لم تتخيل إستير أبدا منظرا كهذا. هناك فوقها سلم من الحجارة، لا شجرة ولا نبتة. الكتل الصخرية متوقفة باتزان على حافة الجرف، وكان الممر من الضيق بحيث تنفصل الحجارة تحت الخطى وتندرج إلى أسفل الوادي. لم يتكلم أحد. ربّما بسبب البرد أو الخطر. حتى الأطفال الصغار كانوا يمشون على طول الدرب الضيق دون أن ينبسوا ببنت شفة.

لم يكن يسمع سوى صوت السيل الذي لا يمكن رؤيته في أسلف الوادي، سقوط الحجارة وصفير التنفس.

أرادت إستير في لحظة ما أن تطرح حقيبتها وتجلس، غير أن أمّها أخذتها من يدها في الحال بنوع من القسوة اليائسة وأرغمتها على الاستمرار في المشي.

تساعدت الآن أفواج الهارين. أصبح الشيوخ والنساء المتدثرات بخمارهن السوداء، أولئك الذين انطلقوا من المعبد متأخرين، بعيدا في الخلف. أخفتهم تنوعات الجبال الصخرية من قبل. الآخرون، النساء مع الأطفال يسرون ببطء دون توقف. الدرب يجانب جرفا أين استطاعت أن تتشبث بعض الأشجار.

نظرت إستير إلى الأعلى، هناك أرزية مصعوقة، مسوّدة، شبيهة بهيكل عظمي. الجبل يشق السماء في الجهة الأخرى من الوادي، محفوا بالأشواك ومهددا. هناك خوف ما، وجمال الحجارة التي تسطع تحت الشمس، والسماء الغامضة. ما يخيف أكثر هو ما نبصره في طرف الوادي، ما نيمّم شطره منذ يومين، السور المعتم الأزرق، الساطع من الجليد، الغارق في سحابة كبيرة بيضاء منطلقة إلى كبد السماء. بدا ذلك بعيدا ومنيعا بحيث أحست إستير بالدوار.

كيف يمكنها الوصول إلى هناك؟ هل يمكن الوصول إلى هناك فعلا أم أنّهم كذبوا عليهم، وسيضيع كل الناس في الكتل الجليدية وفي السحب وتلتهمهم الصدوع؟

وبعيدا، هناك حيث يتلوى الدرب في سفح الجبل، شاهدت إستير مجددا طيور سودا تحوم في السماء، لقد كانت صقورا ساكنة هذه المرّة.

توقف الهاربون على طول الممر، في حافة المنحدرات. تحققت إستير من بعض النساء اللائي كنّ في المعبد. كنّ منهكات من التعب والجوع. بقين جالسات على الحجارة على قارعة الطريق، واهنات،

بنظرة جامدة، وكان الأطفال واقفين قهقريين، ثابتين صامتين، وإذا عبرت أمامهن نظرت الفتيات إلى إستير. كان هناك ملمح غريب في نظرهن، شيء غامض ومتوسل، كأنهن أردن التشبث بها، بالنظرة وحدها.

عندما بلغت إستير وإليزابيث البحيرة، في سفح الجبل الكبير، كانت السحب حجبت الشمس، ومال الضوء. كان ماء البحيرة بلون الجليد، مضاء بتلج حُببِيّ قسّمه مثل مرآة. جلس أغلب الهاربين على حافة البحيرة، ليستريحوا في عماء الصخور.

لكنّ الرجال والنساء الأكثر سلامة انطلقوا من جديد وشرعوا في صعود الممرّ الجبلي، في حين وصلت إلى البحيرة أفواج النساء والشيوخ المتعبين، الواحد تلو الآخر.

كانت إستير جالسة على صخرة، بعيدا عن هبوب الريح وهي تتطلع إلى الذين يصلون. وقفت إليزابيث عدّة مرات: «هيا، يجب أن نذهب، علينا أن نسبق الليل.» لكنّ إستير راقبت الطريق كالبارحة عندما كانت تنتظر أباهما. والحال أنّه ليس هو من ترغب في وصوله، بل الحاخام الشيخ إيزيك سالنتر، ذاك الذي غنّى وقرأ الكتاب في المعبد. إنّها لا ترغب في الذهاب من دونه، وإذا نفذ صبر أمها قالت لها: «رجاء، لنتنظر قليلا.»

انقشع السحاب على الحاجز الحجري أمامها مبينا للحظة خط الطريق المظلم المتماهي مع الجرف، مابين شعفتين حادتين، ثم أعاد تلحيم الحواف.

بدأ الرعد يقصف في عمق كهوفه. كانت إليزابيث شاحبة ومتوترة، تمشي على حافة البحيرة، ثم تعود إلى الورا، وكان الهاربون ذاهبين تباعا. لم يبق سوى بعض النساء المسنات، وأخريات مع الأطفال الصغار. لاحظت إستير لما اقتربت من إحداهن، فتاة بولونية

ذات شعر أشقر ملفوف في حجاب أسود، أنها تبكي في صمت وهي مستندة إلى صخرة. لامست إستير كتفها. كانت تمنى أن تكلمها، أن تشجعها، لكنّها لا تعرف كيف تتكلم بلغتها. أخذت عندئذ قليلا من الخبز والخبز من كيس المئونة وسلّمتها لها. نظرت إليها الفتاة دون أن تبتسم وبدأت تأكل في الحال، مائلة على الصخرة لا تزال.

ظهر أخيرا أمام البحيرة فوج من الهاربين، تعرفت إستير إلى الحاخام إيزيك سالتر وعائلته. كان الشيخ يمشي بصعوبة في طريق الحجارة وهو متكئ على عصاه، وكانت الريح العاصفة تنفخ قفطانه وترفرف عثنونه الرمادي وشعره. أدركت إستير بمجرد أن رأته أنّ السيد نحارت قواه. جلس على حافة البحيرة، وساعده الرجال والنساء الذين يرافقونه في التمدد على الأرض. أصبح وجهه الموجه نحو السماء أبيض، مشوها من الحصر.

لما اقتربت إستير سمعت نفسه الضائع يصفر. لم تحتمل ذلك، ابتعدت واختبأت بين ذراعي أمها. قالت بصوت خفيض: «أريد الذهاب الآن»، والحال أنّ إيزايث هي التي لا تستطيع الآن الكف عن النظر إلى الشيخ الممدّد على الأرض.

يترنح ضوء السماء. أصبح أحمر، غريبا. يقترب قصف الرعو. تحوّم العاصفة. تتمزق السحب الكبرى المظلمة على الجبال وتغلق بعيدا، تنزلق مثل دخان ما بين القمم الثلوج.

وقف الرجل الذي يرافق الحاخام إيزيك سالتر فجأة واستدار نحو إستير وإيزايث. قال فقط، وهو لا يكاد يرفع صوته، كما لو أنّها مجاملات: «الحاخام لا يقدر على المشي، يجب أن يبقى هنا ليرتاح، اذهبوا.» قال ذلك أيضا بلغته للنساء اللاتي كنّ معه. جمعت كلهن بانقياد صررهن وحقائبهن وشرعن في المشي شطر المضيق.

قبل الدخول في الوادي الذي ينغرز في الجبل والضياع في السحب، توقفت إستير لتنظر إلى إيزيك ورفيقه للمرة الأخيرة، كانا جامدين على حافة البحيرة، نقطتين سوداوين وسط الصخور.

يصعد الدرب متعرجا ما بين الشعاف، لا يمكن رؤية النهاية. كانت السحب السوداء المشحونة بالبرق فوق إستير وأمها مباشرة، كان ذلك مخيفا، ولكنه كان من الجمال بحيث رغبت إستير في الصعود إلى الأعلى، قريبا من السحب. احمرت بقع الضبابية، انزلقت على نتوءات الحجارة وجرت على طول الأجراف مثل شلالات أثرية. اختفى كل شيء من تحت إستير وإيزابيث، غدت النساء والهاربون الآخرون متخفيين، إنهم يطفون ما بين الماء والأرض. لأول مرة استطاعت إستير أن تتخيل ما تحس به الطيور، والحال أنه لم تكن هناك طيور، لا أحد، كانوا في عالم لا تعيش فيه سوى السحب، السحب والصواعق.

عادة ما تحدث ماريو عن الصاعقة التي تقتل الرعاة تحت الشجر أو في أكواخهم الحجرية. قال لإستير إن الذين يدخلون منطقة الموت، يسمعون، قبل لحظات من صعقهم، صوتا عجيبا، شبيها بطنين نحل غريب قادم من كل الجهات دفعة واحدة، يدور في رؤوسهم ويجعلهم مجانين. ذاك الصوت هو الذي ترقبه الآن إستير بقلب نابض وهي تصعد طريق الحجارة.

بدأ مطر خفيف يسقط. في الأعلى، على اليمين، هناك حصن صغير معلق في منحدر الجبل، اختبأ رجال ونساء هناك وقد هدّهم التعب وخذّهم البرد. يمكن رؤية أطرافهم في مدخل المخبأ الكئيب، لكن إيزابيث قالت: "لا يجب التوقف هنا، يجب أن نكون في الجهة الأخرى من الحدود قبل الليل." استمرّت في السير مجهدتين، دون التفكير في شيء. لقد غطاهما الضباب بحيث اعتقدتا أنهما الوحيدتان اللتان سارتا بعيدا.

انفتحت السماء فجأة وأبانت قطعة زرقاء من السماء. توقفت إستير وإليزابيث منبهرتين. لقد وصلتا إلى الممر الجبلي. تتذكر الآن إستير ما رواه أطفال القرية، تلك النافذة التي انفتحت في السماء عندما هرب تمثال العذراء عبر الجبل. كان ذلك هاهنا، النافذة التي نبصر من خلالها الطرف الآخر من العالم.

الشمس تسطع على الثلج البارد في عماء الصخور بين القمم، الريح مثلجة، لكن إستير لم تشعر بها. كان الهاربون جالسين وسط الصخور ليستريحوا، نساء وشيوخ وأطفالا. لا يتخاطبون. الظهر في مقابل الريح وهم ينظرون من حولهم إلى القمم التي تبدو منزلقة تحت السحب. كانوا ينظرون بخاصة إلى الجهة الأخرى، إيطاليا، المنحدر المبعّع بالثلج، الأودية الصغيرة الغائمة والوادي الكبير الذي يظلمه الليل. سيصبح كل شيء مظلمًا بعد قليل، أما الآن فلا أهمية لذلك، لقد أفلحوا في اجتياز الجدار، العائق الذي كان يحيفهم، لقد واجهوا الأخطار والسحب والصواعق.

يترنح الوميض الأحمر في كثافة السحب من أعلاهم، في الجهة ذاتها التي قدموا منها. يدوي الرعد مثل قصف مدفعي متواصل. انطفأت الشمس، انقفلت السماء وطفق المطر يهطل. كان غزيرا وباردا، وكان يحزّ الوجه واليدين. تلتصق القطرات بجلد الخروف على صدر إستير. حملت الحقيبة، ووضعت إليزابيث كيس القماش على كتفها.

قام الهاربون الآخرون، وبنفس النظام المتبع للصعود إلى القمة، الرجال والشباب في المقدمة، ثم النساء والشيوخ والأطفال، شرعوا في أفواج صغيرة في النزول ليلا إلى أعلى عمق الوادي الذي كانت تصعد منه أدخنة بيضاء، القرى المنسية لستورا التي اعتقدوا أنها ستكون خلاصهم.

فيستيونا، 1944

كان أطول وقت في الشتاء. وشاح الدخان ينسحب على السطوح في فيستيونا. كان البرد قارسا في الظهيرة، الشمس تغرب باكرا خلف الجبال، وكان وادي ستورا بحيرة ظلّ. تحب إستير كثيرا هذا الظلّ ولا تعرف لماذا، هذا الدخان الذي يخرج من السطوح، الذي يطفو على طول الأزقة، يحيط بفندق باساجيري العائلي، الدخان الذي يغرق الأشجار ويمحو الحدائق.

مشت حينها بمحاذاة الأزقة الخالية وهي تستمع إلى وقع الأحذية الجلدية التي تعكر قليلا السكون الزغب، وكانت هناك دائما كلاب تنبح.

بقيت وحيدة طيلة الشتاء في فيستيونا، وحيدة مع إليزابيث. اشتغلت الاثنتان في فندق باساجيري العائلي مقابل الغذاء وغرفة في الطابق الأول، تحت السطوح، غرفة بباب نافذة مظلة على الشرفة، جهة الكنيسة، وكانت على الراج ساعة متوقفة تشير باستمرار إلى الرابعة إلا عشر دقائق.

إليزابيث واقفة في الشرفة تعلّق أغطية السرير والغسيل، تضع كنزة فوق المنزر. كانت يداها وخداها تشبه في حمرتها يدي وخدي فلاحه، غسل أرضية المطبخ بالصابون والفرشاة، حرق الفضلات في الساحة فجرا، تقشير الخضر، تقدم الأكل للأرانب التي تقدم عادة في المطعم، لكنّها لم ترغب في قتلها أبدا. أنجيلا سيّدة البيت (يشاع أيضا

أنها خليعة السيد باساجيري) هي التي تتكفل بهذه المهمة القذرة، تفعل ذلك دون تكلف: ضربة على القفا وجلد مقلوب والجسد المدمى معلق من قائمته.

عندما أبصرت إستير ذلك لأول وهلة هرعت تجري في الأعشاب إلى النهر الكبير. «أريد العودة إلى سان مارتان، لا أريد البقاء هنا، لن يعثر علينا هنا أبدا!» جرت إليزابيث في الأدغال، أمسكت بها على حافة النهر وقد خدشها العليق الشوكي، صفعت إستير ثم احتضنتها. لأول مرّة تضربها، «لا تذهبي يا قلبي، يا نجمتي، ابق معي، وإلاّ متّ.» كرهتها إستير آنذاك، كأنها هي التي رغبت في كل ذلك، هي التي وضعت هذه الجبال الثلجة بينها وبين أبيها لتخريبها.

لا يوجد زبائن كثيرون في فندق باساجيري العائلي. إنها الحرب. كان هناك بعض الجوايين التجاريين على طريق فيناديو، كأنهم ضائعون، وثلاثة فلاحين أو أربعة من القرية الواقعة في الأعلى، أرامل أو مسنون لا يستطيعون البقاء في المطبخ في بيوتهم. يتحدثون في قاعة المطعم ومرافقهم مسندة إلى البساط، وحتى تقدم يد المساعدة، تحضر إستير الصحون والحساء والعصيدة والخمرة. يتحدثون بلغتهم الغنائية ويقولون: "وغازا، بطريقة غربية في نطق "الراء"، كما في الإنجليزية، لا يضحكون، لكنّ إستير تحبهم كثيرا، كانوا البقيين جدا ومتحفظين.

كانت إستير هي التي ترافق أنجيلا عندما تذهب لشراء المؤونة. أنجيلا لا تتكلم كثيرا. تنتظر في مدخل المزرعة ليحضرها لها الحليب والخضر والبيض، وأحيانا أرنا تحمله من أذنيه. قرحتها ليست على ما يرام، إنّها تعرج، ولم تعد تستطيع ارتداء جوربها.

كانت إستير تنظر بخوف إلى ذلك الجرح الذي يجذب الذباب، فكرت في البداية بأنّ الأمور ستكون أحسن مع قاتلة الأرانب. بيد أنّ

أنجيلا الكريهة في مظهرها، كانت مليئة بالطيبة والسخاء، تنادي إستير "ابنتي". كانت لها نظرة ذات لون أزرق فاقع، مثل جدتها التي لم تعرفها أبدا.

لا يوجد زمان في فيستيونا، لا توجد لحظة، لم تكن هناك سوى منازل رمادية ذات سقوف ينسحب عليها الدخان، وهناك حدائق صامتة وضباب الصباح الذي تذيبه الشمس ليعود في الظهيرة ويغزو الوادي الكبير. تنصت إستير إلى الأصوات مساء في الغرفة الصغيرة بانتظار عودة إليزابيث من العمل. كانت ترتعد. نباح الكلاب ينتشر، وقع قباقيب المتقاعدین في ملجأ الأطفال الذين يذهبون إلى الكنيسة ويرجعون، دمدمة صلوات من حين إلى حين.

فكرت إستير بتسجيل ابنتها هنا في المدرسة، في الملجأ، لكن الفتاة رفضت دون صخب، دون دموع، «لن أذهب إلى هناك أبدا.» كان الملجأ بيتا كبيرا مظلما بطابق واحد، بمصارع مغلقة بداية من الرابعة، وهو يؤوي دزينة من يتامى الحرب وبعض الشواذ الذين جاء بهم آباؤهم إلى هناك.

يرتدي الأطفال مآزر رمادية، شاحبين، معتلين، وكانت نظراتهم ذليلة. لا يخرجون أبدا من الملجأ إلا للذهاب إلى الكنيسة صباح مساء، أو مصطفىين يوم الأحد في جولة إلى النهر، محاطين براهبات ورجل طويل يرتدي الأسود ويقوم مقام حاجب. كانت إستير تحشاهم، وكانت تختبئ. بمجرد سماع وقع خطاهم في الساحة وفي الأزقة.

شغلت إليزابيث ابنتها إستير مساء في الغرفة التي ينيرها سراج. انسدت ألواح زجاج الباب النافذة بورق أزرق بسبب القصف. يسمع من حين إلى آخر أزيز الطائرات عاليا في الليل. دويّ حاد يأتي من كل الجهات في آن واحد، دويّ يهيج القلب.

التحمت إستير بأمها وأسندت رأسها إلى صدرها، كانت يدا إليزابيث باردتين وقد شققتهما مياه الغسيل: «لا تقلقي يا أمي، سيذهبون.»

تسمع أحيانا طلقات رصاص ترنّ في كل الوادي ليلا. كانوا أنصارا، قال براو إنهم يلقبون العدالة والحرية، ينزلون من الجبال لمهاجمة الألمان في جهة ديمونت، أو حيال نزولهم من ستورا، حيث يعبر الجسر المضيق باتجاه بورجو سان دالمازو.

براو ولد في الخامسة عشرة، جيء به كطالب داخلي لأنه من الحالات المستعصية، فرّ من بيته ليختلس المزارع. كان من الهزال والهشاشة بحيث يبدو ولدا في الثانية عشرة، بيد أنّ إستير تجده غريبا، يهرب في وقت الذهاب إلى الكنيسة ويأتي إلى ساحة الملجأ ليلتقي بإستير. يتكلم الفرنسية قليلا، وبالإشارات كثيرا.

لا تريد إليزابيث رؤيته، لا تريد أن تحدّث إستير أيا كان، كانت تمّاب الجميع، وحتى أولئك الطيبين. تقول إنّ براو صبيّ سيء التربية. تحب إستير المشي مع براو في الحقول وفي تخم القرية. يهرب براو صباحا ويذهبان معا عبر الحقول. الوادي يلمع تحت الشمس. يعرف براو كل الدروب والطرق المختصرة، وحتى دروب الحيوانات وأرانب الغابة، مخابئ التدرج، المناطق الموجودة بين القصب أين يمكن ترصد طيور البلشون والبط البري.

تتذكر إستير ماريو حين كان يمشي في حقول العشب الكبيرة بسان مارتان لمطاردة الأفاعي. يبدو لها ذلك بعيدا، كما في بلد آخر، كما في حياة أخرى.

تذهب مع براو للمشي في مجرى النهر، في جهة رّوا. كانت ستورا في الربيع، مع ذوبان الثلج، نهرا يجري من طرف إلى آخر جارفا

الوحد والجذوع وأكوام العشب المنزوعة من الضفاف، الخريف بخاصة هو الذي يدوّخ، يحدث دوراناً، تنزل الطبقة المائية بيضاء بفعل الدردور وتجرف كل شيء.

كانت إستير تحلم بنزول النهر على طوف من الأغصان والعشب إلى غاية البحر، وأبعد، حتى الجهة الأخرى من العالم. قال براو لو أننا تركنا النهر يأخذنا لوصلنا إلى البندقية، أشار إلى الشرق في أعلى الجبال، أما إستير فلم تفهم كيف تسافر المياه بعيداً جداً دون أن تضيع.

كانت هناك جزر في الطبقة المائية لستورا. نمت الأشجار وأصبحت الأعشاب طويلة. ينقسم النهر إلى عدّة فروع مكوّنة خلجانا ورؤوساً وأشباه جزر، وكانت هناك بحيرات لازوردية.

كانت الغربان تمشي متنقلة على الشواطئ، ثم تطير عندما تقترب، مرسلّة نعيماً حشنا يثير القشعريرة. هنا، في طبقة النهر المائية، كل شيء كان جيّداً. بإمكان إستير أن تمكث ساعات في الوقت الذي يبحث براو عن السرطانات. هناك كل أنواع المخايبي.

هنا فكرت إستير في أبيها، كأنه كان قريباً جداً، هناك في جهة ما من جهات الجبل، في كوستا ديل آرب، وفي بيسوزا، يمكنه رؤيتها من أعلى، لأنّ اللحظة لم تأت بعد، لكنّه يشاهدها.

أحسّت إستير بنظرتّه إليها، كانت دافئة وقوية، مداعبة، كانت نفساً، وكانت تتمزج بالريح في الأشجار، بالإصطفاق المستمر للماء على شواطئ الحجارة، وحتى بنعيق الغربان.

الشتاء ثم الخريف. كان كل ذلك طويلاً جداً، طويلاً جداً كما لو أننا هناك بعيداً في قعر كهف ننظر باتجاه الضوء. كان ذلك بسبب ما حدث هناك في بورجو سان دالمازو، إليزابيث تعرف هذا، لكنّها لم

تتحدث عنه أبدا. ماعدا مرّة واحدة لأنّ إستير ذهبت في الطريق مع براو، هناك حيث النهر واسع، بكل فروعه وبكل جزره، أين لا يمكن مشاهدة الجبال بالكاد، لقد ذهبت للبحث عنه.

التقت بها إستير في رواق مع قدوم الليل، كانت ترتدي مئزرها المشجّر وتتعلّ حذاءها الجلدي، وكان شعرها مغطى بوشاح أسود مثل فلاحه. احتضنتها إليزابيث، كانت جامدة. لأول مرّة أدركت إستير أنّ أمها هشة، كأنّها شابّت دفعة واحدة. كانت خجلى وغاضبة: «لماذا لا تتركيني أفعل ما أريد؟ كفاي، أريد أن نذهب من هنا، لن يعثر علينا أبدا هاهنا.»

لم تعد تريد أن تنادي "بابا"، لم تعد ترغب في التفكير بهذه الكلمة، لن تثق في أمها. كانت تحتنق وقد امتلأت عينها بالدموع، وكان ذلك غريبا. الضباب يعبر الحقول، يتشبث بالأزقة، يصعد مع الليل من طبقة النهر المائية. احتضنت إليزابيث إستير وسارتا ببطء، الرأس مطأطأ قليلا، مع كل قطرات الضباب الملتصقة بالوجه.

«لقد أخذوا كل هؤلاء الرجال، هيلين، أتفهمين؟» كانت إليزابيث تتحدث ببطء، لذا أصبحت يداها مثلجتين. كانت الكلمات بطيئة، هادئة، ومثلجة أيضا، «لقد أخذوهم كلهم في الطريق، في بورجو سان دالمازو، قادوهم كلهم، حتى النساء المسنات والأطفال الصغار، وضعوهم في قطارهم، لن يعودوا أبدا، سيموتون كلهم.» أصبحت إستير، بعد ذلك، كلما سمعت اسم بورجو سان دالمازو، فكّرت في الضباب الذي يصعد من النهر، الضباب الذي يحو كل شيء، الوجوه والأجساد، الذي يغرق كل الأسماء.

سمعوا في بنايات المحطة أنّ الجنود الألمان أسروهم بسهولة في مدخل بورجو سان دالمازو، كانوا مرهقين من العياء والجوع والنعاس، مرت أيام وهم يسيرون في الدروب المغطاة بالحصى، بلا مأوى. عندما نزلوا الوادي الضيق أبصروا أوّلا كنيسة أونتراك وسقوف القرية. توقفوا بقلوب نابضة، كان الأولاد ينظرون منبهرين، اعتقدوا أنّهم وصلوا، وأن لا خوف الآن، وأنّ الحرب انتهت.

كان الوادي يلمع في هواء الصباح، هناك ألوان الخريف قبل الوقت، خريف منتصر يكاد يكون مسكرا. وبعيدا كان هناك قرع الأجراس الذي يصل في شكل نفحات، ويمكن رؤية بريق طيران الحمام فوق السطوح. كان ذلك مثل وليمة.

شرعوا في السير مجددا وعبروا القرية. الكلاب تنبح أثناء مرورهم، تتبعهم جريا عبر المنحدر. اقترب الأطفال من أمهاتهم، وكان القرويون ينظرون إليهم من عتبات البيوت وهم يعبرون، أغلبهم مسنون، فلاحات وعجائز يرتدين الأسود، ينظرون دون أن ينسبوا، وكانت عيونهم مجمدة بسبب الشمس، بيد أنّه لم تكن هناك عداوة أو خوف. وإذا كانوا بصدد العبور تقدمت منهن نسوة ومنحنهم خبزا وجبنا طريا وتينا وقلن لهم كلمات بلغتهم.

نزل الفريق مع الوادي إلى فالدييري، عبروا العرض متقفين نمر جيسو. كان الأطفال ينظرون مندهشين إلى الواجهات العالية، قبة الكنيسة، وقمة القبة العالية مثل منارة. هناك أيضا طيران الحمام المترنح

في السماء حول القبر، قرع الأجراس، الدخان المتصاعد حاملا رائحة الأكل، نيران العشب اليابس في النوادر، خريز الماء المنسكب على الحصى وحفيف لّين يتحدث عن المستقبل.

ذهبوا نحو القطار، سيسافرون إلى جنوى، إلى ليفورن، وربما إلى روما، سيأخذون زورق أنجيلو دوناتي. لم تعد هناك حرب، يمكن الذهاب إلى أي مكان، يمكن أن نبدأ حياة جديدة.

عندما بلغت الشمس السميت توقفوا على حافة النهر للاستراحة. اقتسمت النساء المؤونة، خبز سان مارتان والخبز الطازج، الجبن والتين الذي منحهن إياه القرويون أثناء العبور، في أتراك وفالديري.

بدأ لهم حينئذ أنّ ذلك مجرد جولة، نزهة ريفية رغم الحقائق والحزم، رغم جراح الأقدام، الألم والحمّى التي تلهب عيون الأطفال. النهر يسطع تحت الشمس، وهناك في السماء ذباب معلق، وثمة طيور في الأشجار.

جلسوا في شواطئ الحصى ليقفوا، سمعوا موسيقى حرية النهر. شرع الأطفال في اللعب والجري في عرض النهر، وصنعوا سفنا من قطع الخشب. كان الرجال جالسين، يدخنون ويتحدثون، يتحدثون عما سيفعلونه هناك في الجهة الأخرى من الجبال، في جنوى وليفورن، وهناك من تحدث عن البندقية، عن ترياست وعن البحر الذي سيعبرونه إلى أرض إسرائيل.

تحدثوا عن أرضهم، عن مزرعة وواد. تحدثوا عن مدينة الضوء المشعة بقربها وصوامعها، هناك حيث مؤسسة الشعب اليهودي. ربّما حلموا بوصولهم قبلا، وبأنّ قبب فالديري وأبراجها كانت على أبواب أورشليم. واصلوا السير سريعا لأنّ الليل وصل إلى عمق الوادي. قبض عليهم جنود الفيرماخت في مدخل بورجو سان دالمازو، في طريق

المحطة. جرى كل شيء بسرعة، دون أن يفهموا بالضبط ما جرى لهم. كان أمامهم جنود يرتدون معاطف خضراء، هناك في طرف الطريق الضيق البارد، وكانت الشاحنات تسير ببطء، بأضوائها المشتعلة. تدفعهم مثل قطع.

وصلوا حينئذ إلى غاية المحطة، هناك أدخلهم الجنود إلى بناية كبيرة، على يمين المحطة. دخل الجميع متعاقبين، إلى أن امتلأت القاعات الكبيرة وأوصد الألمان الأبواب.

إنه الليل. الأصوات ترنّ حول المحطة، لا يوجد ضوء، ماعدا أضواء الشاحنات الخافتة. جلست النساء على الأرض قرب رزمهن والتصق منهن الأطفال، كان هناك بكاء أطفال، شهقات، همسات. دخل برد الليل إلى القاعات الكبيرة من خلال الزجاج المكسور، ومن خلال السياج. لم يكن هناك لا أثاث ولا أسرة. في طرف القاعة الكبرى مراحيض مسدودة تبعث منها رائحة كريهة، وريح الليل تعبر الأطفال المرعوبين. نام الصغار أخيرا.

حوالي منتصف الليل أيقظتهم أصوات القطارات التي تصل، التي تناور، الصرير، تصادم العربات وصفير القاطرات، وكانت هناك صفارات. حاول الأطفال معرفة ما يجري، عاود الصغار التباكي، لم تكن هناك أصوات رجال، ماعدا ضجيج الآلات، ولم تكن في جهة من الجهات.

فتح الجنود الأبواب فجرا من جهة السكك الحديدية ودفعوا الرجال والنساء إلى القاطرات التي بلا نوافذ، المصبوغة بألوان تمويهية. كان الجو باردا ودخان العربات ينتشر في شكل دخان وامض. تشبث الأطفال بأمهاتهم، ربّما كانوا يتساءلون: "إلى أين نحن ذاهبون؟ إلى أين يأخذوننا؟". كان كل شيء فارغا: الأرصفة، بنايات المحطة وحوالي المدينة.

لم تكن هناك سوى وجوه الجنود الشبحية، أولئك الذين يرتدون معاطفهم الطويلة وهم واقفون على مسافات بعيدة وسط دخان القطارات.

ربّما حلم الرجال بالهرب، يكفيهم نسيان النساء والأولاد والجري عبر السكك والقفز في المنحدرات، ثم الاختفاء في الحقول. كان الفجر مديدا وساكنًا، دون صراخ ودون أصوات، دون طيور ودون نباح الكلاب، ما عدا نفخ العربات وصرير المرابط، وهناك الكشط الحاد للعجلات عندما تبدأ في التزلج على السكك وقت ارتجاج القطار لرحلة بلا هدف، تورينو، جنوى، فانتيمي.

الأطفال المتلاصقون بأمهاتهم، رائحة العرق والبول اللاذعة، ضربات الناقلات، الدخان الذي يتسرب إلى القاطرات العمياء وضوء الفجر من خلال شقوق الأبواب، تولون، مرسيليا، أفينيون، صوت العجلات، بكاء الأطفال، أصوات النساء المختلفة، ليون، ديجون، مولون، ثم السكون الذي يعقب توقف القطار، وهذه الليلة الباردة، هذا الثبات المذهل، درانسي، الانتظار، كل هذه الأسماء وهذه الوجوه التي تنمحي، كأنهم كانوا أخوات وإخوة انتزعوا من ذاكرة إستير.

يذهب اليتامى إلى كنيسة فيستينا كل عصر، مع الغسق. مرّة هرب براو مساء والتقى بإستير في الساحة. "تعالى"، ودلها على الكنيسة. لم ترغب إستير في ذلك. كانت تستفزع وقع خطوات الأطفال والدبيب الآتي للصلوات. كان على مقربة من الباب ذاك الرسم العجيب، العذراء تدوس على تين.

أخذ براو إستير من يدها وقادها إلى وسط الكنيسة. كأنها مغارة سوداء، كانت تفوح برائحة الخشب المشمع، وفي مؤخرة الكنيسة، في كل جهة من جهات المذبح نجمة صغيرة من الضوء ترتعش في البرد. اقتربت إستير من الأضواء، كأنها لا تستطيع الكفّ عن النظر.

بعد لحظة جذبها براو من ذراعها، بدا قلقا. لم يفهم. أخذت
إستير أحد هذه الأضواء وبدأت تشعل الشموع، الواحدة تلو الأخرى.
لم تدرك لماذا فعلت ذلك، كانت ترغب في رؤية الضوء يسطع، كما
في ذلك المساء بسان مارتان عندما دخلت الكوخ في أعلى القرية، مع
كل تلك الشعل التي كانت ترتجف.

إنه الآن الضوء نفسه. كأنّ الوقت لا يمرّ، كما لو أننا مازلنا
في الجهة الأخرى، قبل حاجز الجبال، والشعل تتقب الظلّ وتنظر
إليك.

عيون الناس هي التي تراك هناك، الأطفال، النساء، سيسيل
بشعرها الجميل الأسود، أصوات الرجال التي تهدر، تصدي كعاصفة،
ثم تغدو لينة متممة، وكلمات الكتاب بتلك اللغة العجيبة التي تدخل
الأعماق دون أن تفهمها.

كانت إستير تحمل في يدها شعلة وهي تجوب الكنيسة وتوقد كل
الشموع حيث وجدت في الزوايا أمام التماثيل، وفي كل جهة من
جهات المذبح. بقي براو واقفا قريبا من المدخل، يتأمل دون تعليق،
لكنّ عينيه كانتا تلمعان بدورهما.

كانت الفتاة تراوح بتهيج، تولّد نجوما أخرى من الضوء، أمّا الآن
فإنّ الكنيسة تشعّ كما لو أنها على أهبة احتفال. الشموع تشع، تخلف
حرارة حادة، شبه سحرية.

بقيت إستير واقفة وسط الكنيسة وهي تنظر إلى لمعان الشموع.
تركت الحرارة تدخل إلى أعماقها، كما لو أنّهم كانوا كلهم هناك،
لحظة أخرى، فقط لحظة أخرى. أحست بالقوة في نظرات الرجال،
سمعت رنة أصواتهم الحادة، وتلك الحركة البطيئة لتأرجح أجسامهم
وهم يغنون، والكنيسة التي تهتر عن آخرها وترنح كسفينة.

لكن ذلك لم يستغرق سوى لحظة قصيرة لأن باب الكنيسة انفتح فجأة وانفجر صوت الحاجب. كان الرجل الذي يرتدي الأسود يشد براو من ياقة مئزره. استحت إستير، كان عليها البقاء لمساعدة براو، غير أنها خافت وهربت جريا، وإذ وصلت إلى الملجأ أغلقت على نفسها في الغرفة، مع ذلك فإنها توهمت سماع نداء براو ووقع قباقيب اليتامى الملعونين وهم ذاهبون إلى الكنيسة مصطفين.

يدخلون ككل مساء إلى المغارة المعتمة ويجلسون على المقاعد السارة، البنات يسارا، والأطفال حليقو الشعر يمينا، بمآزرهم القديمة الرمادية التي تأكلت من المرافق، وكان براو معهم يتوجع من ظهره بعد الضربات التي تلقاها.

كان ذلك في نهاية الصيف. كنا نعرف أن الألمان شرعوا في الانسحاب، وأنهم ذاهبون نحو الشمال. تحدث براو عن هذا، وكذلك الناس في مطعم باساجيري العائلي، تحدثوا عن رجال العدالة والحرية الذين التقوا عند عذراء كوليتو، في أعلى فيستونا. ضمت إليزابيث إستير بقوة. تبدل صوتها. لم تستطع أن تشرح كما يليق: "سنعود إلى بيوتنا قريبا. انتهى كل شيء، سنذهب قريبا إلى فرنسا." لكن إستير كانت تنظر إليها بقسوة. "سنذهب غدا؟" أو مات لها إليزابيث بأن تسكت. "لا يا هيلين، يجب أن ننتظر، ليس الآن."

تظاهرت بعدم الفهم، كما لو أن شيئا لم يكن، كما لو أن كل شيء طبيعي. لم ترغب حتى في منادائها باسم "إستير"، كان اسما يخيفها. تحسرت إستير، خرجت من الغرفة الصغيرة، نزلت إلى الساحة وابتعدت إلى جهة الحقول، أحست بغثيان، وبوريد يرتعش في صدرها.

ذهبت إستير في الصباح الباكر من اليوم التالي نحو كوليتو، كان الجبل شامخا أمامها، مغطى بأشجار الأرزية التي أفسدها الخريف، يتعرج الطريق مباشرة بعد منازل فيستونا الأخيرة.

قبل عام نزلت إستير وإليزابيث مع الطريق نفسه قادمتين من فالدييري، كانت المسافة بعيدة، مع أن إستير تحس بأنها تضع أقدامها على آثارها تماما. لم يهطل المطر منذ مطلع الصيف، الطريق يتفتت، الحجارة تندرج. كان هناك عشب يابس وفير على المنحدر.

اجتازت إستير المنعرجات سالكة مختصرات بين الأدغال. صعدت دون أن تلتفت إلى الوراء وهي تتشبث بالشجيرات. كان قلبها يدق بقوة في صدرها، وشعرت بقطرات العرق تبلبل فستانها وظهرها وتخزها تحت إبطها.

لا صوت في الغابة، ما عدا نعيق الغربان الخفية من حين إلى آخر. كان الجبل جميلا ووحيدا وشمس الصباح تلمع قمم أشجار الأرزية وتنشر رائحة الأدغال.

فكرت إستير في الحرية. العدالة والحرية. يقول براو كانوا هنا، في أعلى الجبل، كانوا موجودين قرب المعبد. ربّما استطاعت أن تكلمهم، ربّما يعرفون شيئا ما. سيكون هناك ترستان وراشيل وجوديت، وكل ناس القرية، الشيوخ الذين يرتدون القفاطين والنساء اللاتي يلبسن فساتينهن الطويلة وشعرهن المغطى بأوشحة، وكذلك الأطفال، كل الأطفال الذين يجرون في الساحة حول النافورة، أو يركضون في شارع الينبوع، إلى غاية حقول الأعشاب على حافة النهر.

لكنّها لا تريد التفكير في كل هذا. إنّها ترغب في الذهاب بعيدا، الذهاب إلى حد المحيط، ربّما إلى بروتون. كثيرا ما كانت تتحدث من قبل، مع أبيها، عن بروتون، وعدّها بأن يأخذها إلى هناك. لهذا تتسلق الجبل، حتى تكون حرة، حتى لا تفكر مرة أخرى. عندما تكون مع رجال العدالة والحرية، سوف لن تكون بحاجة إلى التفكير في شيء، سيكون كل شيء مختلفا.

وصلت إستير إلى المحراب قبل منتصف النهار بقليل. كان المعبد مهجورا والباب مغلقا، وكان زجاج بعض النوافذ مكسورا، وتحت السقيفة آثار رصاص. هناك ناس أكلوا هنا، وربّما ناموا كذلك، بقيت هناك قطع من الورق المقوّى وأغصان جافة.

تسلقت إستير إلى ينبوع في أعلى المحراب، شربت ماء باردا جدا ثم جلست تنتظر. كان قلبها ينبض بقوة. لقد خافت. كل شيء كان ساكنا، ما عدا هبوب خفيف في أشجار الأرزية، لكنّها سمعت تدريجيا أصواتا أخرى، طقطقات على الحجارة، حفيفا في الأدغال، أو عبورا خفيفا لحشرة، زقزقة عصفور بعيد في الأدغال. كانت السماء زرقاء، بلا سحب وكانت الشمس لاهبة.

لم تستطع إستير الانتظار أكثر. بدأت تجري كما في السابق في طريق روكيلير عندما أخذها غاسباريني لمشاهدة حصاد القمح وأحست بفراغ ينفذ إلى أعماقها، الخوف من الموت. ركضت في طريق فالدييري إلى حد المنحنى الذي يُشاهد منه الوادي، وهناك توقفت وقد خارت قواها. إنّها ترى أمامها كل شيء، كما لو أنّها كانت طائرا.

أضاءت الشمس وادي فالدييري. عرفت كل البيوت، كل مستل، إلى غاية أنتراك التي جاءت منها إيزابيث. كانت فسحة كبيرة تهب الريح من خلالها.

جلست عندئذ على الأرض، على قارعة الطريق ونظرت بعيدا، لى جهة الجبال. القمم الحادة تخدش السماء، يمتد ظلّها على المنحدرات إلى غاية الوادي، وفي الأسفل تماما يلمع الجليد مثل حلية.

قبل سنة عبرت إستير وإيزابيث هذه الجبال مع كل الناس الفارين من الألمان. تتذكر إستير كل لحظة، مع أنّ ذلك يبدو لها بعيدا جدا، كما في حياة أخرى، تعبير كل شيء، أصبح الآن ما كان في الجهة الأخرى من الجبل مستحيلا، وربما لم يبق أي شيء.

يكون هذا ثوبا في بطنها، نافذة يمرّ منها الفراغ، ذاك ما رأيته، وهي تتذكره كلما اقتربت من الجبل، قبل عبور الممرّ الجبلي، نافذة

وهامية حيث تسطع السماء، وقد يكون ذلك حلما رأته، تماما قبل أن
تنغلق السحب على إيزابيث وعليها وتطمسها في النسيان. لم يستطع
وقتها فدائيو العدالة والحرية أن يفعلوا شيئا. هل يمكن التخلص من
الظلال؟

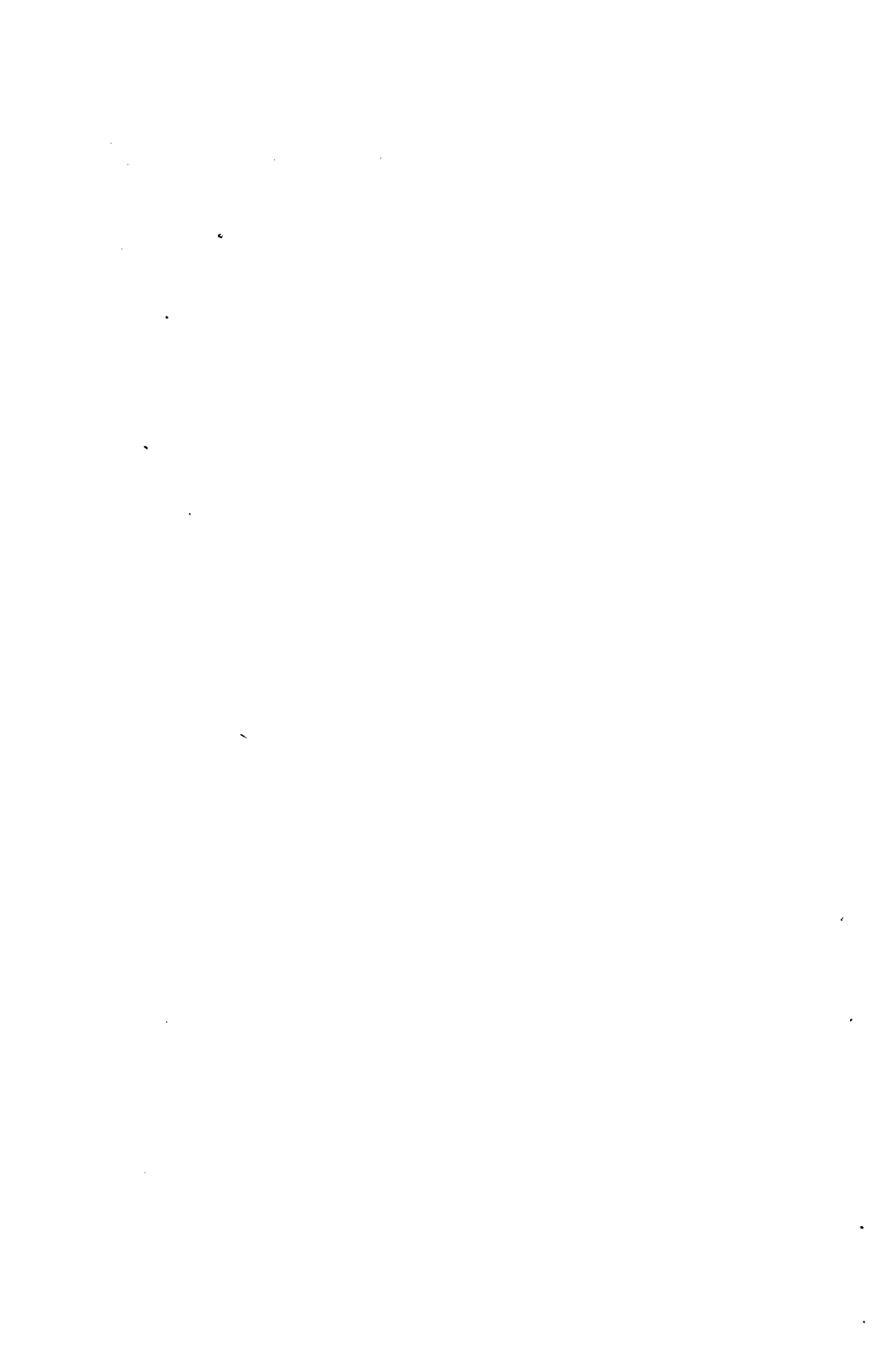
انحدرت الشمس نحو الجبال الشاخنة. أحست على وجهها بالسير
نحو الظلمات، هناك يوجد الجبل الذي يسميه الناس تحديدا قمة
الظلمات.

سعت إستير إلى عدم الكفّ عن النظر إلى عمق الوادي والعبور
وسط الجليد. يمتد الظلّ ببطء، يغطي الوادي ويغرق القرى. تسمع الآن
إستير أصوات الحياة، نباح الكلاب، رنين الأجراس، وحتى صراخ
الأطفال. جلبت الريح رائحة الدخان، كان يوما كبقية الأيام هناك في
الأسفل، لا أحد يفكر في الحرب.

من بعيد تبدو قمة جولا أكثر فأكثر بعدا، إنها تسبح فوق
الضباب، خفيفة مثل سحابة. تتأمل إستير. الشمس تقترب نحو الجبال،
فكرت في إيزابيث هناك في الأسفل، في فيستيونا. لا بدّ أنها ارتدت
صداريتها فوق المئزر بسبب البرد والليل الذي أرخى سدوله.

قد يكون براو بصدد الترقب في الساحة، إنه الوقت الذي يستعد
فيه أطفال الملجأ إلى المشي نحو الكنيسة. نظرت إستير دقائق أخرى إلى
وادي فالدييري، إلى الخط الحاد للمجلدات، كما لو أنّ أحدهم
سيجيء ويسير إلى غاية القرى السوداء من الدخان، رجل طويل جدا
يعبر السيول ونوادر العشب، ظهره مقابل الشمس، وستشعر أخيرا بظله
فوقها.

الاستير



ميناء ألون، كانون الأول 1947

أنا في السابعة عشرة. أعرف أنني سأهاجر هذا البلد هائيا. لا أعرف إن كنت سأصل إلى هناك، لكننا سنذهب قريبا، أمي جالسة لصقي في الرمل في محباً البيت الريفي الحرب، هي نائمة وأنا أنتظر، إننا ملتفتان في الغطاء العسكري الذي منحنا إياه العم سيمون روبان قبل مغادرتنا.

إنه غطاء للجيش الأمريكي، صلب ومنيع، وكان متمسكا به كثيرا. سيمون روبان هو صديق أمي، وصديقي أيضا. هو الذي اهتم بكل شيء يخص سفرنا. استقبلنا سيمون روبان بعد الحرب وقت مجيئنا إلى باريس من دون أبي. كان صديق أبي، يعرفه جيّدا، ولهذا استقبلنا.

أوانا في بداية الأمر في مرآب لأنه لم يكن متيقنا من نهاية الحرب، ومن عدم رجوع الألمان، ولما فهم بأن الحرب انتهت فعلا، وبأنه لا يوجد مبرر للتخفي، ترك لنا نصف شقة في شارع جرافيلبي، وفي الجزء الآخر كانت هناك عجوز عمياء اسمها السيّدة دالو. هناك أقمنا.

لكننا لا نملك اليوم مالا ولا نعرف إلى أين نذهب، لا مكان لنا في أي مكان. قال سيمون روبان لأمي إنّ المسألة لا علاقة لها بالمال، ولكنّ ذلك من أجل حياتنا، حتى ننسى: "ألا يجب نسيان ما غطاه التراب؟"، قال هذا وأنا أتذكر جيّدا، ولم أفهم ما أراد قوله. كان يشدّ على يدي أمي وهو ينحني على الطاولة. كان وجهه قريبا جدا من وجه

أمي، وكان يقول ويكرر: «يجب الذهاب من أجل النسيان، يجب نسيان ذلك!» لم أفهم ما كان يقصده، ماذا يجب أن ننسى، ماذا غطى التراب؟ أعرف الآن أنه كان يقصد أبي، ذاك ما كان يقوله، أبي غطاه التراب ويجب نسيانه.

أتذكر العم سيمون روبان ووجهه الشائخ المتورّم، القريب جدا من أمي، هي الجميلة، الشاحبة، الهشة، الشابة، أتذكر وجهه مع ظلّ عينيه الكبيرتين وهذيهما الأسودين. حتى بالنسبة إليّ، أنا ابنتها، كانت تبدو لي شابة وهشة مثل فتاة صغيرة. أظنها كانت تبكي.

هنا، وصلنا إلى هنا في ضوء الفجر الخافت بعد أن مشينا في الليل تحت المطر. مشينا من محطة سان-سير ونحن نستمع إلى هبوب الرياح في الغابة، صوت عصف كان يطاردنا باتجاه البحر. كم من ساعة مشينا على غير هدى، يرشدنا ضوء المصباح اليدوي الباهت وقد بللنا المطر البارد؟

كان المطر يتوقف لحظات ولا نسمع الرياح. يتلوى الطريق الموحد مع الروابي وينزل إلى عمق الوديان. دخلنا مع مطلع الفجر إلى غابة أشجار الصنوبر العملاقة في عمق أحد الوديان. كانت جذوع الشجر واقفة في ألق البحر الغامض، وذاك ما جعل قلوبنا ترتجف، كأننا كنا نمشي في بلد مجهول.

أنزل الرجل الذي يقودنا جميع الناس بمحاذاة خرائب بيت ريفي، ثم عاد من حيث أتى. جلست أمي على الأرض، في الرمل، وهي تتألم من رجليها وتشخر قليلا.

انتظرنا في ضوء الفجر الباهت، كانت الرياح تهب، ريح باردة تحاول النفاذ إلى قوقعة الغطاء المبلل. كانت أمي ملتصقة بي. كادت أن تنام في الحال. أنا لا أتحرك كي لا أوقظها، إني متعبة جدا.

السفر بالقطار من باريس. كانت القاطرات مكتظة، ولا مكان للجلوس. تمددت أمي أرضا على ورق مقوَّى، في الرواق قرب المراحيض، وبقيت واقفة أكثر مدة ممكنة لأحرس حقائبنا. حقيبتان معززان بالخيط، وبداخلهما كل كنوزنا، لباسنا، وسائل الزينة، كتبنا، صورنا وذكريات. جلبت أمي كيلوغرامين من السكر، وكانت تقول لا بد أنه مفقود هناك. أنا لا أملك ملابس كثيرة. جلبت فستان الصيف الرقيق الأبيض، قفازات، جوارب للاحتياط، وبخاصة الكتب التي أحبها، الكتب التي كان يقرأها علينا أبي من حين إلى آخر، مساء، بعد العشاء، نيكولا نيكليسي، ومغامرات السيد بيكويك، إنَّها الكتب التي أفضلها، عندما أرغب في البكاء أو في الضحك، أو في التفكير في أمر آخر. يكفي أن أحمل أحد هذه الكتب وأفتح مصادفة لأجد في الحين المقطع الذي أحتاج إليه.

لم تجلب أمي سوى كتاب واحد منحه العم سيمون روبان لأمي قبل أن ترحل، سفر التكوين، هكذا يسمي. نامت أمي على أرضية الرواق القدر للقاطرة رغم اهتزازات الناقلات وباب المراحيض الذي يخفق قرب رأسها والرائحة...

كان هناك من يريد استعمال دورة المياه من حين إلى آخر ويصل إلى طرف الرواق، وإذ يرى أمي نائمة على الأرض على ورقها المقوَّى يعود ليبحث في جهة أخرى. مع ذلك فإنَّ أحدهم أراد الدخول. تسمَّر أمام أمي وقال: "معذرة!". كما لو أنَّها ستستيقظ سريعا وتنهض. ظلَّت نائمة، وصرخ حينها عدة مرات برفع صوته أكثر فأكثر: "معذرة!". "معذرة!". ثم انحنى لإزاحتها جانبا. لم أعرف وقتها ماذا حصل لي، لكنِّي لم احتمله: لا، هذا الرجل البدين الذي لا يرحم يريد إيقاف أمي للذهاب إلى دورة المياه مطمئنا. قفزت عليه

وبدأت أترعه بلكمات وأصفعه، دون كلمة، ودون صراخ، بكفّين
مشدودتين ودموع في العينين. أما هو فقد تراجع، كأن قطا مسعورا
قفز عليه. دفعني وشرع يصرخ بصوت حاد غريب، مليء بالغضب
والخوف: "ستعرفين من أنا! سترين!" ثم ذهب.

نمت حينها على الأرض، بمحاذاة أُمّي التي لم تستيقظ، احتضنتها
ونمت قليلا، كان نوما مليئا بالأصوات والاهتزازات جعلني أشعر
بالغثيان.

المطر ينزل في مرسيليا. انتظرنا القطار ساعات على الرصيف
الشاسع. أنا وأُمّي لسنا وحيدتين. هناك ناس كثيرون مكدسون على
الأرصفة وسط الأمتعة. انتظرنا طوال الليل. الريح الباردة تهبّ على
الأرصفة والمطر يشكل ضبابة حول الأضواء الكهربائية. الناس ينامون
على الأرض لصق حقائبهم، هناك من هم ملفوفون في أغطية الصليب
الأحمر. وثمة أطفال يكون ثم ينامون فجأة وقد هدّهم التعب، ورجال
يرتدون الأسود، يتحدثون بلغتهم بلا انقطاع. يتحدثون ويدخنون وهم
جالسون على أمتعتهم، وكانت أصواتهم تصدي بخرابة في فراغ المحطة.

عندما نزلنا في مرسيليا، قبل الليل بقليل، لم يحدثنا أحد، لكنّها
إشاعة انتقلت من هذا إلى ذاك على طول الرصيف: لن يكون هناك
قطار باتجاه تولون قبل الثالثة أو الرابعة صباحا. ربّما وجب قضاء الليل
كله في الانتظار على الأرصفة. ولكن أين تكمن المشكلة؟ لقد توقف
الزمن بالنسبة إلينا، إنّنا نساfer، نحن خارجا منذ زمن بعيد، في عالم لا
يوجد فيه وقت.

رأيتّه آنذاك على الرصيف نفسه، تحت الساعة الكبيرة التي تشبه
قمرا شاحبا. كان على رصيف المحطة في باريس قبل انطلاق القطار،
كان ذلك منذ وقت حيث حسبته أسابيع، يسير وسط الجمع في الوقت

الذي كان في القطار يدخل إلى المحطة، مع قسوة الدخان المتدفق وصرير المكابح. كان طويلا، نحىلا، بشعر ولحية مذهبة يضيفان عليه هيئة راع، أقول هذا لأنني أعرف الآن أن اسمه جاك بيرجي، لهذا منحتة هذا اللقب! الراعي.

تخلل الجمع باحثا بنظرته عن شيء ما، أحدهم، قريب من الأقارب، صديق، وعندما وصل إلى علوي توقفت نظرتة علي مطولا بحيث استدرت، وحتى لا يراني أحمر انخيت على حقيبتني، كأني أفتش عن شيء ما.

نسيتته، لم أنسه تماما. لكن القطار، صوت الناقلات، الهزات، وأممي النائمة كطفل مريض، الممددة أمام باب دورة المياه. منعي كل هذا من التفكير في أي شيء. إ...! أكره الأسفار حقا! كيف يمكن ركوب القطار أو السفينة للمتعة! أرغب في البقاء طوال حياتي في المنطقة نفسها، في النظر إلى مرور الأيام والسحب والعصافير، في الحلم. في الطرف الآخر من الرصيف كما في باريس، يقف الراعي المعني، كما لو أنه ينتظر أحدهم، فردا من العائلة أو صديقا، أرى، رغم المسافة، نظرتة في ظل محجري العينين.

ربما سنبقى في الانتظار طيلة الليل على الرصيف، لذا من الأحسن أن ننتظم. وضعت الحقيبتين أفقيا، كانت أمي جالسة على الأرض وأعلى جسدها مسند إلى الحقيبتين. أنا عازمة على محاكاتها بعد قليل. متى ينتهي كل هذا؟ يبدو لي اليوم أنني لم أتوقف أبدا عن الأسفار منذ ولادتي، في القطارات، في الحافلات، في طرق الجبال، ثم إنني أذهب من سكن إلى آخر، في نيس، في سان مارتان، في فيستيونا، ثم نيس ثانية، وأورليون، في باريس إلى غاية انتهاء الحرب. هناك فهمت أنني لن أستطيع أبدا التوقف عن الأسفار، أنني لن أستريح مطلقا، أريد أن لا

أفكر أبداً بسان مارتان، في بورتمون، قالت أُمِّي مرّة إنّ هذه الأسماء ملعونة لا يجب ذكرها، لا يجب التفكير فيها مطلقاً.

كَلَمَنِي الراعي قبل قليل وأنا عائدة من دورة مياه المحطة. مررت تحت الساعة الدقاقة وكان هناك جالسا على حقيبة وسط ناس نيام. كان قربه فريق اليهود الذين يرتدون الأسود، يتحدثون ويدخنون. قال لي: «صباح الخير آنسة»، وقال لي بصوته الخفيض نوعاً ما: «إنّه لأمر شاق الانتظار في الرصيف»، و«ألا تشعرين بالبرد؟» بنبرة باريسية على ما أظن، لاحظت أنّ له ندبا صغيرا قرب الشفة. فكرت في أباي لأنّي كنت مرهقة، يائسة من فرط التعب. أظنني دمدمت شيئاً قبيحاً لأذهب سريعاً، لأرتاح ونصفي الأعلى مسند إلى الحقيبتين والرجلان مثنيتان جانبا، قريباً جداً من أُمِّي. أظنني لم أفكر أبداً في إمكانية وفاتها.

الليالي طوال عندما ننتظر القطار في جوّ بارد. لم أتم لحظة واحدة رغم التعب، ورغم الفراغ الذي كان يحيط بي، لم أتوقف عن النظر من حولي، كأنّي أريد التأكد من عدم تغير الأشياء، من أنّ كل شيء مازال حقيقياً. كنت أنظر إلى هذا، المحطة الشاسعة ذات الكوة الكبيرة المزينة بالزجاج حيث يجري المطر، الأرصفة التي تضيق حدودها في الظلام، الهالات حول المرايا العاكسة، ثم أفكر: أنا هنا، هو ذاك. أنا في مرسلينا، آخر مرّة في حياتي أرى هذا. يجب أن لا أنساه أبداً، حتى لو عشت أطول من السيّدة دالو، العجوز العمياء التي اقتسمت معنا الشقة في 26 شارع جرافيلبي. ليس لي أن أنسى أي شيء من هذا. استقمت حينها قليلاً مستندة إلى الحقيبتين القديمتين ونظرت إلى الأجساد الممددة على الرصيف لصق الحائط، وإلى الناس الغافين على المقاعد مدثرين بأغطيتهم، كأنهم جثث، ملابس مهملة.

كانت عيناى ملتهبتين وكنت أحس بدوار فى الرأس وأسمع صوت الأنفاس، ثقيلًا وعميقًا. أحسست بالدموع تسيل على الخدين، بمحاذاة الأنف، تقطر على الحقيبة، دون أن أعرف لماذا كانت تخرج من عينيّ. تحرّكت أمي قليلًا فى نومها، كانت تتأوّه، داعبت شعرها حتى لا تستيقظ، كما نفع مع ولد. الساعة الدقاقة تكشف هناك عن وجهها الشاحب، وجه القمر حيث الساعات تمرّ ببطء، ساعة، ساعتان، ساعتان ونصف، حاولت رؤية الراعى فى طرف الرصيف، تحت الساعة الدقاقة، لكنّه اختفى، أصبح بدوره جثة، خرقة مرمية.

فكّرت حينئذ، وخدي مسند إلى الحقيبة، فى كلّ ما جرى، فى كلّ ما سيقع، هكذا، ببطء، بسلك طريق بلا تبصر، كما نكتب رسالة. فكّرت فى أبى عندما ذهب، فى آخر صورة احتفظت بها، طويل، قوي، وجه حنون، شعر مجعد أسود قائم، نظرتّه، كما لو أنّه يريد أن يعتذر، كما لو أنّه ارتكب حماقة. لحظة، كان هنا، يقبلني، يضمّني إليه إلى أن ينقطع نفسى، وكنت أضحك وأدفعه قليلًا، ثم ذهب أثناء نومى دون أن يترك سوى صورة هذا الوجه الوقور، وهاتين العينين اللتين تبحثان عن الاعتذار.

أفكر فيه. أتظاهر أحيانًا بأننا سنلتقي به فى هذه الرحلة. منذ وقت طويل تدربت على التظاهر إلى أن أوّمن بذلك، من الصعب تفسير هذا. كما التيار الذى يمرّ من المغنطيس إلى الريشة الحديدية، فى لحظة تهمزّ الريشة، تتحرك. فى اللحظة التى تعقبها تلتصق الريشة بالمغنطيس بسرعة، دون أن نبصر شيئًا. أتذكر عندما كنت فى العاشرة، كان ذلك فى بداية الحرب وقت هربنا من نيس إلى سام مارتان. أخذني والدي فى ذلك الصيف إلى أسفل الوادي لمشاهدة الحصاد، ربّما إلى الجهة نفسها التى عدت إليها بعد ثلاث سنين مع الشاب غاسباريني. قطعنا كل

الطريق في عجلة نقل، وقد ساعد أبي المزارعين في الحشّ وفي ربط حزم القمح. كنت أبقى قربيه وخلفه أشم رائحة عرقه. نزع قميصه وأبصرت عضلاته الممدودة في كل جهة من جهات ظهره، تحت البشرة البيضاء، كأنها جبال.

فهمت بغتة، رغم صراح الناس ورائحة القمح المحصود، أن هذا سينتهي. فكرت ملياً، سيذهب والدي إلى الأبد، كما نحن اليوم. أتذكر ذلك جيداً، جاءتني الفكرة بهدوء. لم تحدث سوى صوت خافت، ثم غمرتني فجأة، جعلت قلبي يعتصر من جذوره لم أستطع أن أظهار بأي شيء.

تملّكني الرعب وعدوت في الطريق وسط السنابل تحت سماء زرقاء، هربت بأقصى سرعة ممكنة. لم أعد قادرة على الصراخ، ولا على البكاء، لم أكن قادرة سوى على الجري بكل قواي وأنا أشعر بتلك القبضة التي تسحق قلبي وتختفي. شرع أبي في الجري ورائسي، قبض علي في الطريق، رفعني، اقتلعتني من التراب، أتذكر ذلك جيداً، وكنت أتخطّط. ضمّني إلى صدره محاولاً تهدئة نشيجي الذي بلا دموع، شهقاتي، مرتباً على شعري وقفاي.

لم يطرح علي بعدئذ أي سؤال، لم يوجه لي أي عتاب، لم يقل للناس الذين تساءلوا عما جرى سوى: لا شيء، لا شيء إطلاقاً، لقد خافت. لكنني رأيت من خلال عينيه بأنه فهم. أحس هو الآخر بذلك، عبور هذا الظلّ البارد رغم ضوء الظهيرة الجميل، ورغم ذهب القمح.

أتذكر أيضاً أنني ذهبت في أحد الأيام مع أمي لتتجول في جهة بيورتمون، تابعنا السيل الكبير في أعلى الفندق الخرب، كان أبي قد ذهب ليلتحق برجال المقاومة، كان ذلك عجيباً. كان هناك تبادل أوراق قرأها أبي وأحرقها في الحال. ارتدت أمي ملابسها بعجلة.

قادتني من يدي ومشينا بسرعة إلى الفندق المهجور في الطريق المقفر على ضفة النهر.

بدأنا في أول الأمر نتسلق الجبل عن طريق سلّم صغير، ثم عبر طريق ضيق، كانت أُمّي تمشي بسرعة دون أن تلهث، وجدت صعوبة في تعقبها، لكنني لم أجرؤ على الكلام لأنني أرافقها لأول مرة، كانت ملاحظتها تدل عن نفاذ صبر لا أجده اليوم، وكانت عيناها تلمعان من الحمّى.

مشينا الآن في الأعلى، في منحدر مغطى بأعشاب مروج فسيحة، وكانت السماء في كل جهة من حولنا. لم يحدث لي أن صعّدت إلى هذا الحد، إلى هذا البعد، وكان قلبي ينبض بقوة من التعب والقلق. وصلنا إلى أعلى المنحدر، وفي سفح القمم كان هناك سهل شاسع من العشب زرعت فيه أكواخ الرعاة المبنية بحجارة سوداء.

ذهبت أُمّي إلى حدّ الأكواخ الأولى، وإذ وصلنا إلى هناك ظهر أبـي، كان واقفاً وسط الأعشاب الطويلة، يشبه صيادا، ثيابه ممزقة ووسخة، وكان يحمل بندقية. وجدت صعوبة في التحقق منه لأنّ لحيته كبرت ووجهه لفته الشمس.

حملني كعادته وضمّني إليه بقوة، ثم استلقى مع أُمّي على العشب، قرب الكوخ الحجري وراحا يتحدثان. سمعتهما يتكلمان ويضحكان، لكنني بقيت بعيدا، كنت ألعب بالحجارة، أتذكر أنّي كنت أرميها على ظهر اليد كعظيمات.

مازلت أستطيع سماع أصواتهما وضحكاهما في تلك الظهيرة على منحدر المراعي الشاسعة والسماء الزرقاء تحيط بنا. كانت السحب تتحرك، ترسم زخارف لولبية مذهلة على زرقة السماء، وكنت أسمع ضحكات أبـي وأُمّي وصيحاتهما في الأعشاب على مقربة منّي.

وهناك، في تلك اللحظة، أدركت أن أبي على وشك الموت، جاءتني الفكرة وحاولت عبثاً إبعادها، عادت مجدداً، وسمعت صوته، ضحكته. كنت أعرف أنه يكفي أن أستدير لأراهما، لأرى وجهه، شعره ولحيته التي تسطع تحت الشمس، قميصه، وطيف أُمي المضطجعة لصقه.

ارتيمت فجأة على الأرض وعضضت يدي حتى لا أصرخ، حتى لا أبكي، ومع ذلك شعرت بالدموع تنزلق خارجي، بالفراغ الذي يحفر في بطني ويفتح خارجاً، فراغ، برد، ولم أستطع أن أمتنع عن التفكير بأنه على وشك الموت، بأن عليه أن يموت.

ذاك ما يجب نسيانه في هذه الرحلة، كما قال العم سيمون روبان، «يجب نسيان ذلك، يجب الذهاب من أجل النسيان!»

هنا، في عمق الخليج، كل شيء يبدو بعيداً، كأن ذلك حدث لآخر في عالم آخر. ريح الشمال تعصف بقوة في الليل، أنا ملتصقة بأُمي والغطاء الصلب لسيمون روبان صعد إلى العينين. لم أتم منذ مدة طويلة، جسدي كله يؤلمني وعيناي تلتهبان. يطمئنني صوت البحر، ولو أنه عاصفة.

لأول مرة في حياتي أنام على شاطئ البحر. شاهدته غسقا من خلال نافذة القاطرة قبل الوصول إلى مرسيليا، كان واقفاً قرب أُمي، لحظة مضيئة غضنتها الريح.

كان الجميع في نفس الجهة من القاطرة لمشاهدة البحر، ثم حاولت أن أراه في القطار الذاهب إلى باندول. جبهتي ملتصقة بالزجاج البارد وقد بعثرتني القاطرات والمنعرجات. بيد أنه لم يكن هناك شيء آخر، ماعداً الظلام، بريق الأضواء والمصاييح النائية التي ترقص كأضواء السفن.

توقف القطار في محطة كاسيس، نزل ناس كثيرون، رجال ونساء ملفوفون في معاطفهم، بعضهم بمظلات، كأنهم سيسرون في جادات.

نظرت خارجا محاولة أن أعرف إن كان الراعي قد نزل معهم، لكنّه لم يكن على الرصيف. ثم رجّ القطار ببطء، وكان الناس على الرصيف يتعدون مثل أشباح، كان ذلك حزينا وغريبا في آن واحد. كانوا مثل عصافير متعبة بمرّتها الريح. هل هم ذاهبون بدورهم إلى أورشليم؟ أم أنّهم ذاهبون إلى كندا؟ والحال أنّه لا يمكن أن نعرف، لا يمكن أن نسألهم. هناك ناس يستمعون، ناس يريدون الاطلاع لمنعنا من الذهاب، قال ذلك سيمون روبان عندما رافقنا إلى رصيف المحطة: «لا تحدثوا أحدا. لا تطلبوا شيئا من أحد، هناك ناس يسمعونكم.» وضع في كتاب سفر التكوين ورقة بما اسم أخيه وعنوانه في نيس، بنايات إدوارد روبان، انحدار كروتي. سنقول نحن ذاهبون إلى هناك إن أوقفنا الشرطة.

وصلنا إلى سان سير ونزل الجميع، كان رجل ينتظرنا في رصيف المحطة. حشد كل الذين يجب أن يذهبوا وشرعنا في المشي في الطريق، يدلّنا ضوء مصباحه اليدوي، إلى غاية ميناء ألون.

إنّا الآن في الشاطئ، في مخبأ الكوخ الخرب بانتظار الفجر، ربّما يريد آخرون أن يستفسروا مثلي. انتصبوا، ينظرون أمامهم، يحاولون أن يبصروا في الظلام ضوء السفينة، يسرون قرعة البحر لسماع أصوات البحارين وهم ينادون.

أشجار الصنوبر العملاقة تصرّ وتطلق في الريح، تحدث قممها صوت أمواج على صدر سفينة. السفينة التي ستأتي إيطالية، مثل انجيلو دوناتي، اسمها سات فراتيلي، ما يعني الإخوة السبعة. عندما سمعت لأول مرّة هذا الاسم في باريس فكرت في الأطفال السبعة الذي تاهوا في حكاية الصغير بوسي، يبدو لي أنّه لن يحصل لنا شيء مع هذا الاسم.

أذكر لّما كان أبي يتحدث عن أورشليم، عندما كان يتحدث عما كانته تلك المدينة مساء، كحكاية قبل النوم. لا هو ولا أمي كانا

مؤمنين، أي أنهما يؤمنان بـ: ... لكنهما لا يؤمنان بديانة اليهود، ولا بديانة أخرى. لكنّ أبي كان يقصّ حكايات غريبة عن أورشليم في عهد داوود. كنت أظنّ أنّها أجمل مدينة في العالم وأكثرها. ليست مثل باريس بطبيعة الحال، لم تكن فيها شوارع سوداء، أكيد، ولا بنايات قديمة ولا مزارب مشقوقة، ولا سلام بها روائح كريهة، ولا جداول تركض فيها جيوش من الجرذان. عندما تذكر باريس هناك ناس يظنون أنّك محظوظ، مدينة جميلة كذلك! لا بدّ أنّ الأمر مختلف في أورشليم. كيف كانت؟ لا أستطيع أن أتخيلها جيّدا. مدينة مثل سحابة، بقب وأبراج كنائس ومآذن (قال أبي هناك مآذن كثيرة) وروابي من حولها غرست فيها أشجار البرتقال والريتون، مدينة تسبح في أعلى الصحراء مثل سراب، مدينة لا يوجد فيها شيء مألوف، شيء قدر، أو شيء خطير، مدينة نقضي فيها الوقت في الصلاة والحلم.

أظنني لم أكن أعرف وقتها معنى الصلاة، ربّما كنت أتصوّرها مثل الأحلام، عندما نترك الأشياء الحميمة تنزلق من حولنا، ما نتمناه وما نحبّه أكثر في العالم، قبل الذهاب إلى النوم.

عادة ما تحدثت أمي عن ذلك في الآونة الأخيرة بباريس، لم تعد تعيش إلا من أجل اسم أورشليم. لم تتحدث عن المدينة، ولا عن البلد، أرض إسرائيل، بل عن كل ما وجد هناك قديما، عن كل ما سيتجدد. كانت بالنسبة إليها بابا، ذاك من كانت تقوله.

تتخللني الريح الباردة تدريجيا، تعرّني. الريح لا تأتي من البحر، بل تهب من الشمال، من أعلى الروابي، ترنّ ما بين الجذوع العالية جدا، لكننا لم نشاهد البحر بعد. استيقظت أمي بسبب برد الفجر. أحسست بجسدها يرتعد بقربي. ضممتها إليّ بقوة، قلت لها كلمات لتهدئتها، لتستعيد رباطة جأشها. هل سمعتني؟ أحببت أن أحدثها عن كل هذا،

عن الباب، أن أقول لها إنه لمن العسير والشاق عبور هذا الباب، بدا لي أنّها هي البنت وأنا أمها.

بدأ السفر منذ وقت طويل، أتذكر كل مرحلة، من البداية. منذ ذهابنا للعيش في باريس، في شقة سيمون روبان بشارع جرافيلبي، مع العجوز العمياء. لم أعد أتكلم، ولم أعد أقنات، ماعدا لما تطعمني أمي بالملقعة كصبية. أصبحت رضية، أبلل فراشي يوميا. كانت أمي تلفني في حافظات تصنعها من الخرق القديمة ذات الألوان الكثيرة. كان هناك فراغ بعد سان مارتان، بعد السير عبر الجبل إلى إيطاليا، السير الطويل إلى فيستيونا.

تغمري الذكريات مثل مزق، كركام ضباب على سقوف القرية وصعود الظلّ في الوادي شتاء. أسمع نباح الكلاب وأنا محتبئة في فندق باساجيري العائلي، أسمع أيضا صوت براو وهو ينادي، إيلينا! ومعلم المدرسة يدفعه من كتفه، والوادي المفتوح إلى غاية النافذة الجليدية، الانحدارات الطويلة العفنة التي سرتها والدروب المقفرة، ما عدا الريح التي تمّهب إلى غاية أعماقي، التي توسّع الفراغ بداخلي. جرّب العم سيمون روبان كلّ شيء، جرّب الصلاة، جاء بجحام وطبيب لأبرأ من هذا الفراغ. الشيء الوحيد الذي لم يجربه هو المستشفى، لأنّ أمي كانت سترفض ذلك، وكانت ترفض طلب المساعدة الاجتماعية. كانت تلك هي السنوات المرعبة التي خلّفتها ورائي في الظلّ البارد، في الأروقة وفي سلام شارع جرافيلبي. ستذهب، سترحل مقلوبة، كما المناظر الطبيعية خلف القطار.

لم أشهد أيّ يوم بذلك الطول. أتذكر في ما مضى، قبل سان مارتان، أنّي كنت أنتظر القطار قلقة لأنّي اعتقدت أن تلك اللحظة هي التي نموت فيها، وأنّ الموت يأتي ليلا ليختطف الناس، ننام أحياء،

وعندما ينقشع الليل نكون رحلنا. هكذا ماتت السيّدة دالو ذات ليلة تاركة على السرير جسدها الأبيض البارد.

جاء العمّ سيمون روبان لمساعدة أمي في غسيل الموتى، من أجل الدفن. طمأنتني أمي وقالت إنّ الأمر ليس كذلك، وأنّ الموت لا يخطف أحداً، الجسد والروح فقط هما اللذان يتعبان ويتوقفان عن الحياة، كما في النوم. سألتها وأنا أكاد أصرخ: «وعندما نقتل أحدهم؟ أشاحت أمي بوجهها، كأنّها ندمت على كذبتها، كأنّ الخطأ خطأها لأنّها فكرت للتوّ في أبي وقالت: «الذين يقتلون الآخرين يسرقون حياتهم، إنهم كحيوانات مفترسة، لا شفقة لهم.»

تتذكر أمي يوم ذهب أبي إلى الجبل حاملاً بندقيّة، تتذكر عندما اختفى في الأعشاب الطويلة كي لا يعود. عندما لا يقول الكبار الحقيقة لا يلتفتون لأنّهم يخافون أن تفضحهم، لكنّي كنت شفيت من الفراغ في تلك المرحلة، لم أعد أهاب الحقيقة.

أفكر الآن في تلك الليالي في هذا الفجر المضبّ وأنا أسمع صوت البحر على صخور خليج ألون. ستأتي السفينة قريباً لتأخذنا إلى أورشليم. هذه الليالي ملتحمة ببعضها. لقد غطّت النهارات. دخلت هذه الليالي إلى أعماقي في سان مارتان وتركت جسدي بارداً. هنا، على الشاطئ، وجسد أمي ملتحم بي مرتجف، أسمع صوت النفس المتأوّه كنفس طفل، وأتذكر الليالي الأولى في 26 شارع جرافيلبي، البرد، صوت الماء في المزارب، صرير الورشات في الساحة، الأصوات الرنانة، وأمّي النائمة لصقي في غرفة ضيقة باردة. كانت تضميني لتسخيني لأنّ الحياة كانت تخرج مني، الحياة تحرب خارجاً، في أغطية السرير، في السماء وفي الجدران.

أستمع. يتخيّل إليّ أنّي أستطيع سماع من حولي كل الذين ينتظرون السفينة. إنهم هاهنا، نائمون على الرمل لصق حائط الكوخ الخرب،

تحت أشجار الصنوبر العالية التي تقينا هبوب الريح. لا أعرف من هم، لا أعرف أسماءهم، ما عدا الراعي، لكنّه اللقب الذي أطلقته عليه. ليسوا سوى وجوه لا تظهر في الضوء الخافت إلاّ بالكاد، أشكال، نساء متدثرات بمعاطفهن، شيوخ مكдسون تحت مظلاتهم الكبيرة. كلهم بالحقائب نفسها، المعززة بالخيط، نفس أعطية الهلال الأحمر أو الجيش الأمريكي. وفي جهة ما، في وسطهم، هناك الراعي وحيدا، مازال يشبه مراهقا.

أما نحن فلا يجب أن نتخاطب، ليس لنا أن نعرف شيئا. سيمون روبان هو من قال هذا على رصيف المحطة. قبلنا مطولا، أنا وأمي. منحنا قليلا من المال وبركته. والحال أننا لن نعبّر الباب وحدنا. ثمة آخرون، هنا على هذا الشاطئ وهناك، الآلاف بانتظار البواخر للرحيل دون عودة. يذهبون إلى العوالم الأخرى، إلى كندا، إلى أمريكا الجنوبية، إلى إفريقيا، إلى حيث يمكن انتظارهم، هناك حيث يبدأون حياة أخرى. أمّا بالنسبة إلى الذين هم هنا، معنا، على شاطئ ألون، من ينتظرنا؟ قال العمّ سيمون روبان ضاحكا، لا توجد في أورشليم سوى الملائكة بانتظاركم. كم من بوابة يجب عبورها؟ كلما قطعنا أفقا سيكون بمثابة باب جديد.

ولستفادي اليأس ومقاومة الريح الباردة والتعب، يجب التفكير في المدينة المشاهدة للسراب، مدينة المآذن والقبب التي تسطع تحت الشمس، مدينة الحلم والصلوات المعلقة فوق الصحراء، لا بدّ أن ننسى في هذه المدينة.

لا يوجد في هذه المدينة سواد الجدران، سواد الماء الرقراق، الفراغ والبرد، ولا حشد الشوارع الذي يراحمك. بإمكاننا العيش مرّة أخرى، العثور على ما كان في السابق، رائحة القمح في الوادي، قريبا من سان

مارتان، ماء الجداول وقت ذوبان الثلج، صمت الأماسي، سماء الصيف، الممرات التي تغوص في الأعشاب الطويلة، خريز الشلال وخذّ ترستان على صدري. أكره الأسفار، أكره الوقت! إنها الحياة في أورشليم قبل الخراب. هل صحيح أنه يمكن العثور على هذا، حتى مع عبور البحار في الإخوة السبعة؟

طلع الفجر. لأول مرّة أستطيع التفكير في الآتي، ستكون السفينة الإيطالية قريبا هاهنا، في ميناء ألون الذي بدأت أراه، يبدو لي أنني بدأت أحس بحركة البحر. سيأخذنا البحر إلى تلك المدينة المقدسة، ستدفعنا الريح إلى باب الصحراء. لم يحدث أبدا أن تحدثت عن الـ: إ... مع أبي، لم يكن يوّد الحديث عنه، كانت له طريقة في النظر إليك، بسيطة ودون تردّد بحيث تمنعك من طرح الأسئلة. وبعدها، عندما لم يعد هنا، فقد ذلك معناه.

قال العم سيمون روبان لأمي ذات يوم، ألا يجب البدء في التفكير في التعليم. كان يقصد الدين لتدارك الزمن الضائع. كانت أمي ترفض باستمرار، دون أن تقول لا، ولكنها تقول ببساطة، سنرى ذلك لاحقا، لأنّ ذلك لم يكن طموح أبي. كانت تقول سيأتي في حينه عندما أكون في سن الاختيار، كانت تتصور هي الأخرى أنّ الدين مسألة خيار. لم تكن تحب أن يناديني باسمي اليهودي، كانت تسميني: هيلين لأنّه اسمي، الاسم الذي اختارته لي. أما اسمي الحقيقي فهو إستير. لم أكن أرغب في اسم آخر.

قصّ عليّ أبي في أحد الأيام حكاية إستير التي تسمى حداسة التي لا أب لها ولا أم، وكيف تزوجت الملك أسوراس وتجرأت على الدخول إلى القاعة الكبيرة حيث الملك لتطلب منه عتق الشعب. حدثني عنها سيمون روبان، لكنّه قال لي بأنّه لا يجب النطق باسم الـ: إ...

ولا يجب كتابته، لهذا ظننت أنه اسم يشبه البحر، اسم شاسع لا يمكن معرفته كاملاً. أعرف الآن أن ذلك صحيح. يجب أن أعبّر البحر، أن أذهب إلى الجهة الأخرى، إلى غاية أرض إسرائيل وأورشليم، يجب أن أعتز على هذه القوة. لم أفكر أبداً بأنه كان بذلك الكبير، لم أفكر أبداً بأنه كان بابا وجب عبوره. يمنعني التعب والبرد من التفكير في أمور أخرى. لا أستطيع التفكير سوى في هذه الليلة المديدة التي تنتهي الآن في الفجر الرمادي، في الريح، في الأشجار العملاقة، في البحر الذي يحدث صوتاً ما بين قمم الصخور.

أنام في هذه اللحظة ملتصقة بأمي وأنا أصغي إلى خفقان الغطاء مثل ستار، أستمع إلى صوت الأمواج المستمر على الشاطئ الرملي، ربّما حلمت بفتح عينيّ على السفينة هاهنا، في البحر المشعّ.

أنا جالسة في تجويف صخري قرب شجرة كبيرة ميتة. أحرس.
البحر أمامي أزرق فاتن، يؤلني. تهب الريح من فوقي. أسمعهم يسرون
على أوراق الأدغال وأغصان الصنوبر، يحدث ذلك صوتا سائلا يختلط
بانكسار الأمواج على الصخور البيضاء، ومجرد أن استيقظت صباحا
جريت نحو قمة مرفأ ألون لأشاهد أفضل.

الشمس الآن تلهب وجهي، تلهب عيني، البحر جميل بهالته
البيضاء التي تأتي من الطرف الآخر من العالم، الأمواج تطرق الشاطئ
محدثه صوت ماء جوفي. لم أعد أفكر في شيء، أنظر، عيني تجوبان
خط الأفق دون كلل، تسيران البحر الذي كنسته الريح والسماء
العارية، أريد رؤية وصول السفينة الإيطالية، أريد أن أكون الأولى
عندما يشق جوجؤها البحر باتجاهنا. يبدو لي أنني إن لم أمكث هنا، في
القمة، وفي مدخل الخليل، سوف لن تأتي السفينة، سوف لن يرانا إن
أنا استدرت لحظة، أحس بهذا، لا يمكن للبحر أن يكون بهذا الجمال، لا
يمكن للسماء أن تتحرر من غيومها بلا سبب.

أريد أن أكون أول من تصرخ عندما تصل السفينة. لم أقل أي
شيء لأمي لما تركتها على الشاطئ وهي لا تزال متدثرة بالغطاء
الأمريكي. لم يأت معي أي أحد. أنا المراقبة، نظرتي أكثر دقة وإرهافا
من نظرة الهنود في روايات جوستاف أيمار. كم أتمنى أن يكون أبي
معني في هذه اللحظة! أن أفكر فيه، أن أتصوره جالسا على الصخور
على مقربة مني، يسير البحر المشع، سيجعل ذلك قلبي يخفق أكثر

فأكثر، يملأني بنوع من الدوار الذي يربك بصيرتي. قد يكون للجوع والتعب دور في هذا، لم أتم منذ مدة، ولم أتغذّ حقاً! يبدو لي أنني سأقع إلى الأمام، في البحر المسكر.

أتذكر أنني نظرت بهذه الطريقة إلى الجبل الغائم الذي كان أبي سيحيء من جهته. كنت أعادر غرفة الملحأ يومياً في فيستيونا وأذهب إلى أعلى القرية، أين أرى الوادي كله وكلّ الجبل، ونهاية الطريق، وأنظر، أنظر طويلاً، بقوة، إلى درجة أنني كنت أشعر أنني سأحفر ثقباً في الحاجز الصخري.

لكّتي لا أستطيع أن أكون متهاونة. أنا المراقبة. الآخرون جالسون على الشاطئ في جوف خليج ألون ويتنظرون. صافحتني أمي عندما ذهبت صباحاً دون أن تقول شيئاً، منححتها الشمس التي أشرقت صباحاً قوة وابتسمت.

أريد رؤية السفينة الإيطالية، أريد أن تأتي. البحر واسع، يغلي من الضوء، الريح العاصفة تنزع الزبد من قمة الأمواج وتلقي به إلى الخلف. الأمواج العاتية تأتي من الطرف الآخر للعالم، تدقّ الصخور البيضاء وتتزاخم حين دخول مضيق ميناء ألون. الماء الأزرق يدوم في الخليج، يحفر الدوامات ثم ينتشر على الضفاف الرملية.

هناك بقربي جذع الشجرة الميتة، أبيض وأملس مثل عظم. أحبّ هذه الشجرة. يبدو لي أنني أعرفها منذ القدم، إنها سحرية، لا شيء يموت بفضلها. الحشرات تجري على الجذع الذي أضعفه البحر ما بين الجذور، تأتي رائحة الصنوبر مع الريح وقد أنعشتها حرارة الشمس، الريح تتقدم والبحر يضطرب. إتنا في طرف العالم، في الحدّ الذي لا يمكن فيه العودة إلى الوراء. يبدو لي أننا سنموت جميعاً إن لم تأت السفينة.

بقيّ كلّ شيء ورائنا، المدن السوداء، القطارات، الخوف، الحرب. عندما مشينا هذه الليلة عبر الروابي، تحت المطر، يدلنا ضوء المصباح اليدوي، كنا بصدد عبور الباب الأول، لهذا كان كل شيء صعبا، مرهقا، غابة الصنوبر العملاق في عمق وادي ألون، هبوب الريح الذي يزعزع الأغصان، الهواء البارد، المطر، ثم هذا الحائط الحرب الذي احتمينا به كحيوانات تائهة في العاصفة.

أفتح عينيّ، البحر والضوء يلهبان الأعماق، لكنني أحب هذا، أتنفس، إثني حرّة، أخذتني الريح والأمواج قبلا. لقد ابتدأت الرحلة.

همت على وجهي طوال اليوم عبر صحور القمة، البحر بجانبني دائما، وخط الأفق في رأسي، لازالت الريح تعصف، الريح تميل جذوع الشجر وتمز الأدغال. هناك في التجاويف آس برّي وفشّاغ وأزهار صغيرة وردية بما عين سوداء، الروائح والضوء والريح تصيبك بالدوار. أمواج البحر تتلاطم.

النازحون جالسون بالقرب من ميناء ألون، يقتاتون قرب بعضهم البعض. جلست بعد لحظة قرب أمي، دون أن أتوقف عن مراقبة الخيط الذي يفصل السماء عن البحر، ما بين قمّي الصخرة. عينايتا تلتهبان ووجهي نار. طعم الملح في شفتاي، أكل بسرعة المؤونة التي أخرجتها أمي من الحقيبة، قطعة خبز أمريكي ناصع البياض، قطعة جبن وتفاحة. أشرب كثيرا، من قينة المشروبات الغازية رأسا، ثم أرجع إلى الصخور، إلى مكان المراقبة بالقرب من الشجرة الميتة.

البحر مضطرب، يغدو رماديا مكتنفا بالزبد، يغيّر اللون باستمرار عندما تتمدد السحب مجددا في السماء، معتما، بنفسجيا، رخاما سماقيا ينصهر.

بردت الآن، أنزوي في محباً الصخرة. الآخرون، ماذا يفعلون؟
أما زالوا ينتظرون؟ إن نحن فقدنا الثقة فقد تعود السفينة على أعقابها، قد
تتوقف عن مواجهة الرياح وتعود إلى إيطاليا. قلبي يخفق بقوة
وبسرعة، حلقي جاف لأنني أعرف أنّ حياتنا مرهونة بهذه اللحظة، أنّ
الإخوة السبعة ليست كأية سفينة. هي التي ستقرر مصيرنا.

جاء الراعي للملاقاة في محبتي. لقد حلّ المساء. الشمس تقذف
ومضاً قويا من خلال ثقب في السحب، ومضاً أرجوانيا كأنه ممزوج
بالرماد. وصل الراعي، جلس على جذع الشجرة وكلمني. لم أستمع
في البداية إلى ما قاله، أنا متعبة جدا بحيث لا أقدر على الكلام، عيناى
تلتهبان، الماء يسيل من عينيّ ومن أنفي، يظن الراعي أنّي أبكي من فتور
الهمة. جلس قربي ووضع ذراعيه على كتفي. لأوّل مرّة يفعل هذا،
أشعر بحرارة جسده، أرى الضوء الذي يلمّع شعر لحيته بغرابة، أفكر في
ترستان، في رائحة جسده بعد ماء النهر، إنّها ذكرى قديمة من حياة
أخرى، خفيفة مثل القشعريرة التي تسري على جسدي. الراعي يتكلم،
يتحدث عن قصة حياته. اقتاد الألمان أباه وأمه إلى درانسي ولم يعودا
أبدا، ذكر اسمه، يتحدث عما سيفعله في أورشليم: الدراسات التي يريد
متابعتها، ربّما في أمريكا، يريد أن يصبح طبيبا. شدني من يدي ومشينا
إلى غاية الميناء، إلى غاية الكوخ الحجري حيث ينتظر الناس. عندما
جلست قرب أمي مجددا، كان الليل وشيكا.

عادت العاصفة تدريجيا، أخفت السحب النجوم، البرد، المطر
يهطل مدرارا. إنّنا ملتفتان في غطاء العم سيمون روبان والظهر
مستند إلى الحائط الخرب. بدأت أشجار الصنوبر العملاقة تصرّ،
أحس بالفراغ بداخلي، أسقط، كيف تعثر علينا السفينة الآن ولم
تعد هناك مراقبة؟

الراعي هو الذي أيقظني، إنه ينحني عليّ، يلامس كتفي، يقول شيئاً ما، ربّما كان مظهري يوحي بالنوم بحيث أرغمني على النهوض، أمي واقفة بدورها. دلي الراعي على شكل بعيد يتقدم في البحر، أمام مصب ميناء ألون، بالكاد يشاهد في ضوء الفجر الرمادي. إنها الإخوة السبعة.

لم يصرخ أحد، ولم يتكلم أحد، وقفوا جميعاً متتابعين على الشاطئ، الرجال، النساء، والأطفال، كانوا لا يزالون ملفوفين في أغطيّتهم وفي معافطهم وهم ينظرون إلى البحر. دخلت السفينة ببطء إلى الخليج، أشرعتها تصطفق في الريح. إنها تعطف، تسير وسط الأمواج التي تضرها في العرض.

ثمّة تمزق في السماء في هذه الآونة. السماء تلمع بين السحب وضوء الفجر يضيء بغتة خليج ألون والصخور البيضاء، يضيء أوراق أشجار الصنوبر الطويلة، وهناك لمعان في البحر. تبدو أشرعة السفينة عظيمة، بيضاء، كأنّها خيالية. إنها من الجمال بحيث تصيبك بقشعريرة. جثت أمي في الرملة وحذت حذوها نساء أخريات، ثم الرجال. أنا أيضاً جاثية على الرمل المبلل، وكلنا ننظر إلى السفينة التي استقرت في الخليج. لم نكن نفعل شيئاً آخر سوى النظر. لم نعد قادرين لا على الكلام ولا على التفكير ولا على أيّ شيء آخر.

كل النساء جاثيات على الشاطئ، يصلّين أو يبكين، إنني أسمع أصواتهن الرتيبة في هبوب الريح. بقي الشيوخ اليهود واقفين خلفهن بمعافطهم الثقيلة. كان بعضهم متوكئين على مظلاتهم كما يتوكلون على العصي. إنهم ينظرون إلى البحر، شفاهم أيضاً تتحرك، كأنهم يصلّون. أنا أصليّ بدوري لأول مرّة في حياتي. هذا بداخلي، أحسّ به، إنّه في أعماقي رغماً عني. إنه في عينيّ، في قلبي، كما لو أنّي كنت خارجة عنّي وأرى ما خلف الأفق، ما خلف البحر.

كل ما أراه الآن يعني شيئاً ما، يستولي عليّ، يقذفني في الريح، فوق البحر، لم أحس بهذا أبداً: كل ما عشته، كل تلك المتاعب، السير في الجبال، ثم السنوات المرعبة في شارع جرافيلبي، السنوات التي لم أكن أجرؤ فيها على الخروج إلى الساحة لرؤية السماء، الأعوام الخائفة الشنيعة، الطويلة مثل داء، كل شيء بصدد الانحفاء هنا، في الضوء الخافت الذي ينير خليج ألون، مع الإخوة السبعة التي تدور ببطء حول مرساتها وأشروعها الكبيرة البيضاء الممددة التي تصطفق في هبة الريح. كلنا جائون بلا حركة، أو واقفون في الشاطئ، لازلنا ملفوفين في أغظيتنا وقد خدّرنا البرد والنعاس. لم يعد لنا ماضٍ، إننا جدد، كما لو أنّنا ولدنا للتوّ، كما لو أنّنا نمنا ألف سنة هنا، في هذا الشاطئ. أقول هذا، آمنت به حينئذ في لمح البصر، وبقوة جعلت قلبي يخفق إلى درجة التوقف.

أمي تبكي في صمت، ربّما من التعب أو من الارتياح. أحس جسدها لصقي ينثني إلى الأمام، كما لو أنّها تلقت ضربات. ربّما كانت تبكي بسبب أبي الذي لم يصل إلى الطريق حيث انتظرناه. لم تبك حينذاك، حتى لما علمت أنّه لن يرجع أبداً. أما اليوم فهناك ذلك الفراغ، الفراغ الذي في شكل سفينة راسية وسط الخليج، وذاك ما لم تعد تحتمله.

هل هي سفينة حقيقية يركبها ناس؟ إننا ننظر إليها بخوف، أكثر من نظرنا إليها برغبة، خوفاً من أن ترفع حبالها في أية لحظة وتهرب بعيداً في ريح البحر تاركة إيانا في هذا الشاطئ المهجور.

ابتدأ الأطفال حينها يركضون على الرملة، لقد نسوا تعبهم، الجوع والبرد. يركضون إلى القمة الصخرية، وإذا يلوّحون بأيديهم يصرخون: يا هذا، يا هذا!... وتخرجني من حلمي أصواتهم الحادة.

إنها الإخوة السبعة، السفينة التي ننتظرها، تلك التي ستأخذنا إلى
الجهة الأخرى من البحر، إلى أورشليم. أتذكر الآن لماذا أحببت اسم
هذه السفينة بمجرد أن ذكرها سيمون روبان لأول مرة، الإخوة
السبعة. تحدثنا مرة مع أبي عن إخوة يعقوب، أولئك الذين انتشروا
في العالم. لا أتذكر كل أسمائهم، بيد أن هناك اثنين أحب اسميهما
لأنهما كانا مليئين غرابة. الأول هو بنيامين، الذئب المفترس، الثاني هو
البحار زيالون. كنت أعتقد أنه اختفى في أحد الأيام على متن سفينته
أثناء إعصار، وأن البحر أخذه إلى عالم آخر. وكان هناك نيفتالي،
الظبية، ولد بهي مثل فتاة، تصورت أن أمي تشبهه بسبب عينيه
السوداوين الدافقتين (وأنا كذلك، بعيني الممدودتين ونظرتي اليقظة
باستمرار). ربّما يكون زيالون هو العائد اليوم في سفينته ليأخذنا إلى
ضفاف أسلافنا بعد أن تاه في البحر عدة قرون.

الراعي بقربي، شدّ يدي في لحظة ما دون أن ينبس، عيناه
لامعتان وحجرته من الانقباض الناتج عن التأثير بحيث لم يستطيع أن
يتكلم. أمّا أنا فقد تحرّرت فجأة، ودون انتظار شرعت أجري مع
الأطفال على الشاطئ وأصرخ وألّوح بيدي. أسالت الريح الباردة
دمعي وقلّبت شعري، أعرف أنّ أمي لا تحبّ هذا، لا يهّم! يجب أن
أجري، لا أقدر على البقاء في مكاني. يجب أن أصرخ بدوري. أهتف
إذن أيّ شيء، ألّوح بيدي وأنادي باتجاه السفينة: «أيا زيالون!»
بأصوات حادة شبيهة بزقزقة عصافير غاضبة.

حدثت المعجزة: من الإخوة السبعة انفصل زورق صغير على
متنه بحاران، انزلق على ماء الميناء الهادئ وصدّم الشاطئ عرضاً
والأطفال يحيّونه. ففز أحد البحارين على الأرض فسكت الأطفال.
كانوا خائفين قليلاً، نظر إلينا البحار برهة، لازالت النساء جاثيات

والشيوخ بمعاطفهم السوداء ومظلاتهم، وجهه أحمر وشعره أحمر ملتصق بالملح. الإخوة السبعة ليسوا أبناء يعقوب.

عادت العاصفة عندما كنا كلنا في السفينة. نظرت من خلال الكوى، السماء متقلبة والغيوم تنقل، الأشعة الرمادية (لا تبدو بيضاء عندما ننظر إليها عن قرب) تصطفق في الريح. تتمدد مهتزة ثم تسقط مجددا محدثة انفجارات، كأنها موشكة على التمزق. تجد الإخوة السبعة صعوبة رغم هدير المحرك في العنبر، إنها مائلة إلى الجنب، مائلة إلى الأسفل بحيث يجب على الجميع التثبيت بالأطراف لتفادي الانقلاب. أتمد على الحشبة قرب أمي والرجلان مستندتان إلى الحقيبتين، أغلب المسافرين أصبحوا مرضى ممددين على الأرض بوجوه شاحبة، قد يكون الراعي مريضا هو الآخر لأنه اختفى.

أنحني على قعر العنبر من كانوا قادرين على ذلك وراحوا يتقيأون من أعلى المزارب. هناك أطفال يكون بصوت غريب حاد يختلط مع صرير الهيكل وصرير الريح، هناك أيضا أصوات صاحبة، همسات، تضرعات وأنات. يبدو لي أن الجميع ندموا الآن على الوقوع في فخ هذه السفينة، في قشرة الجوز التي يتقاذفها البحر. أما أمي فلم تشتك، ندما أنظر إليها ألاحظ ابتسامة غامضة، لكن وجهها بلون التراب، تحاول أن تتكلم، تقول: «نجمة، النجمة الصغيرة»، مثل أبي قديما. كان علي أن أساعدها فيما بعد في الزحف إلى المزارب. تمددت بعد ذلك، باردة بالكامل. أضمت بقوة يدها إلى يدي كما كانت تفعل في ما مضى عندما كنت مريضة... الملاحون يجرون في العاصفة حفاة على الجسر. يصرخون ويسبون بالإيطالية، يتخبطون ويتحركون، كأن الأمر يتعلق بحصان مجنون.

توقف المحرك عن الدوران، بيد أنني لم أدرك ذلك فورا، تتمايل السفينة وتبحر بشكل مرعب. فكرت فجأة بأننا سنغرق، لا أحتمل

البقاء سحينة هذه الوضعية، ورغم الممنوعات، رغم هبوب الرياح والمطر، دفعت كوة المركب وأخرجت رأسي.

أبصر في الضوء الخافت للعاصفة البحر الذي يجري باتجاه السفينة، ينفجر في شكل زوابع من الزبد. أصبحت الرياح وحشا مرثيا، تطرق الأشرعة وتلويها، تستند إلى الساريتين وترجح السفينة. تدوم، تخنقي، تجعل عينيائي تدمعان، أحاول أن أقاوم لأرى البحر، البحر الجميل، المرعب. أشار بحار بأن عليّ الصعود إلى العنبر، شاب بشعر أسود، هو الذي أجلسنا في العنبر عندما سعدنا. يتكلم بالفرنسية. يقترب متشبثا بالدرايزين، إته مبلبل من الرأس إلى القدمين. يصرخ: «انزلي! انزلي! خطرا!» أو مات له بأيّ لن أفعل، سأمرض في الأسفل وأريد البقاء فوق الجسر. قلت له إننا لابدّ ميتون وأيّ أريد رؤية الموت قبالي. تأملني بإنعام النظر: «أنت مجنونة؟ انزلي أو سأخبر القائد.» صرخت في مواجهة الرياح وصوت البحر. «اتركني وشأني! سنموت كلنا! لا أريد النزول!»

دلني الشاب على بقعة سوداء في البحر، في مقدمة السفينة. جزيرة. «إننا ذاهبون إلى هناك! نتظر نهاية العاصفة! لن نموت! انزلي إذن إلى العنبر!» الجزيرة أمامنا، أقلّ من مائتي متر. لقد بدأت تحمي السفينة. توقفت الرياح عن الاستناد إلى الساريتين، الماء يجري على الجسر، يجري بسيل جارفة على طول الصفائح، يسيل ببط على الأشرعة المعلقة على العارضات، هناك صمت مفاجئ مع اصطحاب البحر الذي مازال يرنّ في آذاننا. «أصحيح إذن أننا لن نموت؟» قلت هذا بصوت غريب جعل البحار ينفجر ضحكا. دفعني بلطف إلى ناحية المزاب في الوقت الذي بدا البحارون الآخرون منهكين. كانت السماء من فوقنا بلون الحريق. «ما اسم هذه الجزيرة؟ أما زلنا في إيطاليا؟» لم

يقبل البحار سوى: «هذه جزيرة بور-كرو بفرنسا يا آنسة. إنه خليج بور-مان.»

نزلت حينها إلى وسط السفينة. أشمّ رائحة مسيخة، الخوف، نفاذ الصبر، أبحاث خبط عشواء عن جسد أُمِّي في العتمة. «انتهى. وصلنا إلى بور-مان، إنها محطتنا الأولى.» قلت ذلك وكأننا في رحلة استحمام، إني متعبة. نمت بدوري على اللوح. أُمِّي بقربي، إنها تسند راحة يدها إلى جبهتي. أغمض عينيّ.

إننا أمام بور-مان منذ يوم وليلة، دون أن نفعل شيئا، السفينة تدور ببطء حول الجبال، في اتجاه ثم في اتجاه آخر. العنبر يرجع أصوات أدوات بصدد إصلاح المحرك، ورغم منع الرّبّان (رجل يدين أصلع يشبه أي شيء، ماعدا أن يكون بحريا) أصدع في كل لحظة إلى الجسر مع باقي الأطفال. أنا نحيلة، أتصوّر أُنِّي أبدو ولدا بشعري القصير. سنذهب إلى مؤخرة السفينة، إلى وسط الجبال، أجلس وأنظر إلى شاطئ الجزيرة المعتمّ، تحت سماء عاصفة، الضفة قريبة بحيث لن أجد صعوبة في الوصول إليها سباحة، الماء في خليج بور-مان أملس وشفاف رغم السماء المطرة وهبوب الريح.

قدم البحار الإيطالي وجلس بقربي يحدثني تارة بالفرنسية وتارة بالإنجليزية، وبعض الكلمات الإيطالية كذلك. قال لي بأن اسمه سيلفيو، منحنى سيجارة أمريكية، حاولت التدخين، لكنّها حامزة وحلوة، وهذا يحدث لي دوارا، ثم أخرج من جيب سترته قالب شكولاته ومنحنى قطعة، الشكولاته عذبة ومرة في آن واحد، أظنني لم أكل أبدا ما يشبه ذلك. فعل الشاب كل هذا بجديّة، دون ابتسامة، وكان يحرس سلّم الممرّ من حيث يمكن للقائد أن يطل، «لماذا لا تتركون الناس يصعدون إلى الجسر؟» سألت ببطء وأنا أنظر إليه. «نحن

في وضع سيء في الأسفل، إننا نختنق، لا وجود للضوء، هذا غير إنساني.» بدأ سيلفيو يفكر وقال: «الربّان لا يريد. لا يريد أن يروا ناسا في السفينة. ممنوع.» قلت «لكننا لا نقوم بشيء سيء. نحن ذاهبون إلى بلدنا.»

مَجَّ سيجارته بعصية، نظر إلى جهة الجزيرة، إلى الغابة المعتمة والشاطئ الأبيض الصغير وقال: «لو جاء موظفو الديوان لأوقفوا السفينة، لن نستطيع الذهاب بعد ذلك أبدا»، رمى سيجارته في البحر ونهض: «عليك الآن أن تنزلي إلى العنبر.» دعوت الأطفال ودخلنا إلى السفينة. هناك حرارة وظلام في العنبر. سمعنا هرجا ومرجا. ضغطت أمي على ساعدي، عيناها محمومتان. «ماذا كنت تفعلين؟ مع من كنت تتكلمين؟» الرجال يتكلمون بأصوات جهورية في طرف العنبر. هناك غضب أو خوف في أصواتهم. تمتت أمي: «يقولون إننا لن نكمل الطريق، خدعوننا، سينزلوننا هنا.»

نظرنا طيلة النهار إلى الضوء القادم من المزارب، ضوء رمادي مؤلم. رأينا عبور السحب، أشرعة تخفي السماء، كما لو أن الوقت ليل. شيئا فشيئا سكنت أصوات الرجال. توقف البحارة عن العمل في الجسر، هناك في الأعلى. نسمع صوت يقطع على الهيكل. أحلم بأننا بعيدون في عرض البحر، في عمق الأطلسي، وبأننا، نحن الاثنين، نبخر باتجاه كندا.

كانت تريد الذهاب إلى هناك فيما مضى، في سان مارتان. أتذكر عندما كانت تتحدث عن شتاء كندا، في الغرفة الصغيرة حيث كنت أنتظر وعينا مفتوحتان في الظلام، الثلج، الغابات، المنازل الخشبية على ضفاف الأنهار التي لا نهاية لها، طيران البطّ البرّي، هذا ما أريد الآن سماعه. «حدثيني عن كندا.» انحنيت أمي عليّ وقبلتني. لكنّها لم تقل

شيئا. قد تكون من التعب بحيث تفكر في بلد لا وجود له. ربّما نسيت.

عادت العاصفة ليلا. تمرّ الأمواج حتما بأعلى القمة الصخرية التي تحمي بور-مان، تضرب السفينة فتجعلها تترنح وتتن، يستيقظ الجميع، نتمسك بالأطراف حتى لا نقذف على الهيكل، تنزلق الرزم، الحقائق والأشياء الخفية الأخرى وترتطم بجدران السفينة. لا صوت يسمع، لا صوت بشري على الجسر، ثم تنتشر الشائعة قريبا: تخلى عنا الطاقم، إننا وحدنا على ظهر السفينة.

أشعل الرجال مخطافا قبل أن ينتشر الخوف. الناس كلهم حول المصباح، الرجال في جهة والنساء والأطفال في الجهة الأخرى. أرى الوجوه المضاءة بشكل خارق، العيون التي تلمع. قدم أحدهم من بولونيا، اسمه الحاخام جويل. رجل طويل ونحيف بشعر جميل ولحية سوداء. إنه جالس أمام المصباح، وضع قربه علبية صغيرة سوداء مشدودة بسير. يردد كلمات غريبة بتلك اللغة التي لا أفهمها. ينطق ببطء الكلمات الرنانة، الكلمات الجشَاء، الطويلة، العذبة. تذكرت الأصوات التي كانت تعني في ما مضى في المعبد، في البيت بسان مارتان، لم تؤثر في أية كلمة بهذا الشكل، مثل قشعريرة في حلقي، مثل ذكرى. سألت أمي بصوت خفيض «ماذا يقول؟».

الرجال والنساء يترنحون ببطء، يصطحبون حركة السفينة في العاصفة، تترنح أمي بدورها وهي تنظر إلى شعلة المصباح الموضوع على السقفية. "« اسمعي، هذه الآن لغتنا.» نظرت إلى وجهها عندما قالت هذا. كلمات الحاخام قوية، تصرف الخوف من الموت. العلبية الجليدية الصغيرة السوداء تلمع على السقفية بشكل عجيب، كأن هناك قوة مبهم، أصوات الرجال والنساء ترافق كلمات جويل، وأنا أريد

قراءة الشفاه عليّ أفهم، ماذا يقولون؟ أحب أن أسأل جاك بيرجي، لكنني لا أجرؤ على الذهاب للجلوس قربه، أخاف إزالة السحر فيعود الخوف ليستقر بيننا، إنها كلمات تذهب مع حركة البحر، كلمات تدوي وتسير، كلمات عذبة وقوية، كلمات من الأمل والموت، كلمات أكبر من العالم، أقوى من الموت. فهمت معنى الصلاة عندما وصلت السفينة فجرا إلى خليج ألون.

أسمع الآن كلمات الصلاة، تأخذني اللغة معها. كلمات الحاخام جويل، بالنسبة إليّ، ترنّ كذلك في السفينة. لست خارجا، لست غريبة. تحملني الكلمات، تأخذني إلى عالم آخر، إلى حياة أخرى. أعرف الآن ذلك، أفهمه. كلمات جويل هي التي تأخذنا إلى هناك، إلى أورشليم. رغم العاصفة، ورغم التخلي عنا، سنصل إلى أورشليم بكلمات الصلاة.

نام الأطفال مجددا ملتصقين بأمهاتهم، الأصوات الخافتة أو الواضحة تردّ على كلمات جويل، تتبع تردد الموج. ربّما تقمع الريح والمطر والظلام. ضوء المصباح يترنح، يضئ العيون. اللعبة الصغيرة السوداء التي يقرب جويل تلمع بغرابة، كأن الكلمات تجيء منها. نمت مجددا على السقفية. لست خائفة. يد أمي تتخلل شعري كما في ما مضى، أسمع الصوت الذي يردّد قرب أذني كلمات الصلاة الحلوة العذبة، وهذا يهدئي وينومني. أنا في ذكراي، أقدم ذكرى في الدنيا.

فتّش زورق لرجال الديوان الإخوة السبعة بعد مغادرتها بور-ميلان هذا الصباح. فجر. كان البحر هادئا، مصقولا بعد العاصفة. أعادت السفينة تشغيل محركها وانطلقت إلى عرض البحر والأشعة كلها خارجا، كنت على الجسر مع بعض الأطفال أنظر إلى البحر

العميق الذي يفتح أمامنا. وفجأة كان الزورق هناك، دون أن يكون لأي أحد متسع من الوقت لاستيعاب ذلك، جؤجؤها القوي يشق البحر وهو يقترب من جانبنا. تظاهر القائد برهة أنه لم يفهم، واستمرت الإخوة السبعة المائلة إلى الجنب في تسلق الأمواج نحو العرض. قال حينها رجال الديوان شيئاً ما بمكبرات الصوت، لا مجال للشك.

نظرت إلى السفينة وهي تقترب منا، وبدأ قلبي يفقد صوابه، لم أستطع الكف عن النظر إلى الأطياف المتسقة، أعطى القائد الأوامر فأنزل البحارة الإيطاليون الأشرعة وأوقفوا المحرك. بدأت سفيتنا تطفو على غير هدى، وبعد أمد أولينا ظهورنا للعرض ورجعنا إلى الضفة، كان خط الأراضي أمامنا معتما ما يزال. لن نذهب أبداً إلى أورشليم. لن تأخذنا كلمات الصلوات، سنذهب إلى ميناء تولون الكبير، أو أنهم سيسجنوننا.

لا أحد يتحدث في السفينة، لا أحد ينبس ببنت شفة. الرجال جالسون في نفس المكان، كما بالأمس. كما الأشباح. أغلب الأطفال ينامون ورؤوسهم مسندة إلى ركاب أمهاتهم. نزل الآخرون من الجسر وقد شبكت الريح شعرهم. انطفأ المخطاف في إحدى زوايا العنبر قرب الأمتعة.

احتجزونا كلنا في هذه الغرفة الكبيرة في طرف ورشات أرسونال، لأنهم، بلا شك، لا يمكنهم وضعنا في حجرات ضيقة مع المساجين العاديين. منحونا أفرشة الميادين وأعطية. أخذوا كل وثائقنا، الأموال، وكل ما من شأنه أن يكون سلاحا، حتى إبر النسيج التي لدى النساء والأمقاص الصغيرة الخاصة بلحى الرجال. نرى من التوافذ العليا ذات القضبان الحديدية ساحة عارية مغطاة بإسمنت مشقق حيث تعبت الريح بحزم العشب.

هناك في طرف الساحة حائط كبير من الحجارة. لو لم يكن هذا الحائط لأمكننا رؤية البحر الأبيض المتوسط والحلم بنهابنا. بعد يومين من احتجازنا في أرسونال استولت عليّ رغبة ملححة في رؤية البحر وأعددت خطة للهروب. لم أقل ذلك لأحد، لأن أُمي ستقلق ولن تكون لي شجاعة الذهاب.

دخل ثلاثة رماة بجارة إلى حجرتنا من الباب الخلفي في وقت الغداء. كان اثنان يوزعان حصص الحساء والثالث يراقب متكنا على بندقيته. تمكنت من الاقتراب من الباب دون أن ألفت انتباه أحد، وإذا قدم لي أحد البحارة صحن الحساء أطلقته على رجليه وهربت، وعبرت الرواق دون أن أهتم بالصراخ القادم من الخلف. جريت هكذا، بكل قواي، وكنت من السرعة والخفة بحيث لن يستطيع أي كان القبض علي. في طرف الرواق هناك الباب الذي يؤدي إلى الساحة. جريت في الهواء الطلق بلا توقف. مند وقت لم أر ضوء الشمس بهذه الزرقة، ولا

سحابة، كل شيء يلمع في الهواء البارد، يلهب حنجرتي وأنفي، يجعل عيناى تدمعان.

توقفت لحظة للنظر من خلفي. يبدو أن لا أحد يتعقبني. كانت الساحة فارغة والجدران العالية لامعة. كان ذلك وقت الغداء. لا بد أن البحارة كلهم في قاعة الطعام. جانبت السور دون التوقف عن الجري. لاحظت فجأة أمامي بابا كبيرا بمصراعين والممر الواسع الذي يقود إلى البحر. عبرت الباب كسهم، دون أعرف إن كانت هناك حراسة في المرقب. أجمري إلى حد الممر من غير استعادة الأنفاس، هناك حيث يوجد حصن وصخور تشرف على البحر. أنا الآن في الأدغال، رجلاى ويدياى مخدوشة، أفقر من صخرة إلى أخرى. لم أنس مند سان مارتان عندما كنت أصعد السيل. في ثانية واحدة أرى إلى أين أذهب، المنطقة التي يمكن عبورها، الحفر التي وجب تفاديها. الصخور منحدره لاحقا وعليّ أن أخفف السرعة. أتشبث بالأدغال وأنزل إلى أسفل الصدوع.

حين وصلت إلى البحر كانت الريح تعصف بقوة، ووجدت صعوبة في التنفس. الريح تدفعني قرب الصخور، تصفرّ في الأدغال. توقفت في وقب صخرة، البحر الآن في الأسفل تماما. إنه جميل كما هو عليه في ميناء ألون. اتساع من النار، قاس، أملس، وهناك بعيدا الكتل السوداء للبرؤوس وأشباه الجزر. الريح تدومّ في مدخل محبتي، تزجر وتن كالحيوان. يتدفق الزبد في الأسفل على الصخور ويتناثر في الريح. لا شيء هنا، ما عدا الريح والبحر.

لم يحدث أن أحسست بمثل هذه الحرية من قبل. هذا يثير دوران الرأس، يثير قشعريرة، أنظر إلى خط الأفق، كما لو أن بسفينتنا ستصل من جهة الطريق المشتعل الذي تصنعه الشمس في البحر.

أنا في الجهة الأخرى من العالم كما أتصور، عبرت الريح والبحر وتركت ورائي الأكداس السوداء للرؤوس والجزر حيث يعيش الناس، حيث حبسونا. انزلت كعصفورة إلى مستوى البحر، عبر الريح، في الضوء وغبار الملح، ألغيت الزمان والمسافة، وصلت إلى الجهة الأخرى، هناك حيث الأرض والبشر أحرار، حيث كل شيء جديد فعلا.

لم يحدث أبدا أن فكرت في هذا من قبل. إنه هوس، لأني لا أفكر في هذه الآونة لا في سيمون روبان ولا في جاك بيرجي، ولا في أمي. لا أفكر في أبي الذي اختفى في الأعشاب الطويلة، في أعلى بورتمون، لم أعد أفكر لا في السفينة ولا في البحارة الرماة الذين يبحثون عني. ولكن، أصبح أنهم يبحثون عني؟

ألم أضع إلى الأبد في أعلى البحر معلقة في مخبئي الصخري، في جحر العصفور وبصري يحدق في البحر؟ قلبي ينبض ببطء، لم أعد أشعر بالخوف، لم أعد أشعر بالجوع، ولا بالظمأ، ولا بمشقة المستقبل، إنني حرة، بداخلي حرية الريح، الضوء. يحدث هذا لأول مرة.

بقيت في المخبأ طوال النهار وأنا أنظر إلى الشمس التي تنزل مجددا نحو البحر. لا يوجد أي أحد. منذ وقت وأنا أرغب في أن أكون وحيدة، دون أن يكون هناك أحد يتحدث بجانبي. أفكر في الجبل، في الوادي الفسيح، في النافذة الجليدية لما كنت أترقب عودة أبي. إنها الصورة التي أخذها معي حيث حللت، حين كنت بحاجة إلى العزلة، إنها الصورة التي أرها عندما أبقى سجينة في الغرفة المظلمة بشارع جرافيلبي هي التي تظهر في الورق المرسوم للحائط.

ما زلت أتذكر، أبي الذي يمشي أمامي في الأعشاب، الأكواخ الحجرية التي آوتنا أنا وأمي. الصمت، صرير الريح الوحيد في الأعشاب، ضحكاهما وهما يتبادلان القبل. كما هنا، الصمت، الريح

التي تصفر في الأدغال، السماء الخالية من السحب، وقعر الوادي الواسع، الضبابي، والقمم المخروطية التي تطفو كالجزر. احتفظت بهذا معي، في رأسي، في كلّ الأوقات، في مرآب سيمون روبان، في شقة شارع جرافيلبي التي لم تكن نخرج منها، حتى عندما كان سيمون روبان يقول بأن الألمان لن يعودوا، بأنهم لن يعودوا أبدا. كان في رأسي وقتئذ ذلك الجبل، الانحدار العشبي الذي يبدو ذاهبا إلى حدّ السماء، والوادي الغارق في الضباب الخفيف، أدخنة القرية الدقيقة التي تصعد في الهواء الشفاف عسقا.

ذاك ما أحبّ أن أتذكره، وليس الصنخب المرعب، ولا طلقات الرصاص. أمشي كما في حلم وأمّي تشد على زندي وتنادي: «تعالى يا حبيبي، تعالى، أهربى، أهربى!»

هنا، في مخبئي، يبدو لي أنّها المرّة الأولى التي لم أعد أستطيع فيها سماع تلك الأصوات، تلك الكلمات، لن أرى ثانية تلك الصور التي حلمت بها، لأنّ الريح والشمس والبحر دخلوا إلى أعماقي وغسلوا كل شيء.

بقيت في مخبئي وسط الصخور إلى أن أصبحت الشمس قريبة من الأفق ولا مست خط الشجر على شبه الجزيرة، في الجهة الأخرى من المرسى.

أحسست حينها بالبرد فجأة، سقط مع الليل، ربّما بسبب الجوع والعطش، وبسبب التعب أيضا. أشعر بأني لم أتوقف عن السير والجري مطلقا، منذ اليوم الذي نزلنا فيه من الجبل مجددا عبر الأعشاب الطويلة التي كانت تذبح شفّيّ ورجليّ. لم يتوقف قلبي منذ ذلك اليوم على الخفقان بسرعة وبقوة، على الدقّ في صدري كحيوان مرعوب.

حتى في الشقة المعتمة بشارع جرافيلبي لم أتوقف عن السير
والجري، كان صدري ضيقا حرجا. روز هو اسم الطبيب الذي جاء
لفحصي. لم أنس اسمه، مع أنني لم أره سوى مرّة واحدة، لأنني كنت
أسمع أمي والعم سيمون رويان يقولان إن اسمه رائع: «قال السيّد
روز... ذهب السيّد روز... يرى السيّد روز أن...»

عندما جاء السيّد روز ودخل شقتنا التعيسة ظننت أن كل شيء
سيغدو مشرقا ومينرا، لم يخب أمني كثيرا عندما لاحظت أن السيّد روز
صبيّ بدين وأصلع بنظارات سميكة لشخص يعاني قصر النظر، فحصني من
وراء لباسي الداخلي، جسّ عنقيّ وذراعيّ وقال بأني مريضة بالربو وبأني
هزيلة. وصف أقرصا من الأوكالبتوس لعلاج الربو، وقال لأمي بأن علي
أن أكل اللحم. اللحم! هل كان يظن بأننا لا نأكل سوى الخضر الفاسدة
التي كانت أمي تلتقطها من الأسواق المسقوفة، وبعض قشور التمر في بعض
الأحيان. منذ ذلك اليوم أصبح لي حساء من الأعناق والقوائم التي كانت
أمي تحضرها مرتين أسبوعيا، لم أر بعد ذلك السيّد روز مرّة أخرى.

أفكر في ذلك عندما يسقط الليل على المرسى، والحال أنه يبدو لي
بأنني توقفت عن المشي والجري لأول مرّة في هذا المخبأ. بدأ قلبي
أخيرا يخفق في صدري بهدوء، أستطيع أن أتنفس دون صعوبة، دون أن
أجعل المجاري الهوائية تصفّر.

الكلاب هي التي أيقظتني قبل طلوع الفجر، عثر عليّ البحارة في
مغاري وأعادوني إلى أرسونال. حين دخلت القاعة الكبيرة نهضت أمي
من سريرها، تقدمت نحوي وقبلتني. لم تقل شيئا، وما كان بمقدوري أن
أقول لها شيئا، ولا لماذا، ولا معذرة. كنت أعلم أنني لن أعرف أبدا يوما
وليلة مثلهما. بقي ذلك في أعماقي، مع البحر والريح والسماء. يمكنهم
الآن أن يضعوني في السجن إلى الأبد.

لم يعلق أحد، لكنّ الناس الذين تجاهلوني إلى اليوم أصبحوا يتحدثونني بلباقة، جاء الراعي وجلس قربي، حدثني بلطف بدت لي غريبة. بدا لي أن عدة سنين مرّت وأنا هناك في مخبئي، بقينا نتكلم طوال النهار جالسين على الأرض قرب النوافذ العالية. جاء الخاخام جويل معنا، تحدث عن أورشليم، عن تاريخ شعبنا. أحبّ كثيرا عندما يتحدث عن الدين.

لم يحدث أبدا أن كلمني أبي وأمي عن الدين. كان العم سيمون روبان يتحدث عن الدين والمراسم والحفلات والزواج، لكنّها كانت عادية بالنسبة إليه، غير مخيفة، أشياء بديهية، عادات. وإذا كنت أطرح عليه سؤالاً في الدين يتملكه الغضب، يقطب حاجبيه ويرمقني شزرا. كانت أمي تمكث واقفة، كأها مذنب، ذلك لأنّ أبي لم يكن مؤمنا، ذلك لأنه كان شيوعيا كما يقال. لم يكن العم سيمون روبان يجرؤ وقتها على استقدام الخاخام، وكان يتحدث عن الدين مغتاظا.

لكنّ الراعي يصبح حقا إنسانا آخر لما يتحدث في الدين مع الخاخام جويل، كنت أحبّ الاستماع والنظر إليهما خفية. الراعي بلحيته وشعره الذهبي، وجويل بوجهه الناصع البياض وشعره الأسود وظيفه النحيل. كانت له عينان ذات حضرة شاحبة، مثل ماريو، إنه هو الراعي الحقيقي.

الحديث في الدين بهذه الطريقة أمر غريب في هذه القاعة الكبيرة التي سجنا فيها. كان الراعي وجويل يتحدثان بصوت منخفض حتى لا يزعجان الآخرين، كما لو كنا مازلنا مسجونين في مصر، كما لو أننا مقبلون على الذهاب، وكأنّ الصوت المخيف سيرن في السماء والجبال وأنّ الضوء سيشع في الصحراء.

أظنني كنت أطرح أسئلة بلهاء لأني لا أعرف شيئا، لم يحدث أن كلمني أبي عن هذا. كنت أسأل لماذا الـ: إ... غير مسمّى، لماذا هو

غير مرئي وخفي مادام قد خلق كل شيء على الأرض، كان الحاخام جويل يهزّ رأسه قائلاً: «إنه ليس محجوباً، ليس خفياً، نحن المحجوبون والخفيون، نحن الذين في الظلّ.» يردد عادة هذا: الظلّ، يقول إن الدين هو النور، النور الوحيد، وأن حياة الإنسان، أعماله، كل ما بينه من إنجازات كبيرة ورائعة ليست سوى ظلال. وكان يقول: «أبونا هو الذي أنجز كل شيء، ونحن سليلوه، أرض إسرائيل هي المكان الذي ولدنا فيه، المكان الذي أشعل فيه الضوء أوّل مرّة، هناك حيث ابتدأت الظلال.»

كنا جالسين قرب النافذة ذات القضبان الحديدية، وكنت أنظر إلى السماء الشديدة الزرقة، «لن نصل إلى أورشليم مطلقاً.» قلت هذا لأنني كنت متعبة جداً من التفكير فيها، أريد اللحاق بمخبي في الصخور، في أعلى البحر، «قد تكون أورشليم غير موجودة.» نظر إليّ الراعي بعنف. انقبض وجهه الوديع بفعل الغضب. «لماذا تقولين هذا؟» كان يتكلم ببطء، لكنّ عينيه كانتا تشعان من الهياج، قلت: «قد تكون موجودة، لكننا لن نصل إليها. لن تسمح لنا الشرطة بالذهاب. يجب أن نعود إلى باريس.»

قال الراعي: «إن منعونا اليوم سنذهب غد، أو بعد غد. وإن منعونا الذهاب في السفينة سنذهب راجلين، حتى لو مشينا سنة.» لم يقل هذا من أجل الذهاب، لكنّه يريد رؤية البلد الذي ولدت فيه العقيدة، أين كتب الكتاب الأول. خفق قلبي بسرعة لرؤية الضوء في عينيه، ولأنه يريد فعلاً الوصول إلى أورشليم، فقد نصل حقا في يوم ما. مرت الأيام كذلك، طويلة، ونسناها. يقول الناس سيقاضوننا ويعيدوننا كلنا إلى باريس. حين أرى أمي منهكة القوى وحزينة، جالسة على سريرها وبصرها مثبت في الأرض، مدثرة بالغطاء

الأمريكي بسبب البرد، أحس بانقباض القلب وأقول لها: «لا تحزني يا أمي، يا حفيدتي، سترين، سنهرب، لي خطة، إن كانوا يريدون إعادتنا في قطار إلى باريس فإن لي خطة، سنهرب.» لم يكن ذلك صحيحا، لم تكن لي خطة، ومنذ اختفائي أصبح البحارة الرماة يحرسونني. «وإلى أين سنذهب؟ سيأخذوننا مرة أخرى إلى أية جهة.» ضغطت على يديها بقوة. «سترين، سنمشي على طول الشاطئ سنذهب إلى نيس، عند أخ العم سيمون. ثم نذهب إلى إيطاليا، إلى اليونان، سنصل إلى غاية أورشليم.» لم تكن لي أية فكرة عن البلدان التي يجب عبورها للوصول إلى أرض إسرائيل، لكنّ الراعي تحدث عن إيطاليا وعن اليونان.

ابتسمت أمي قليلا. «يا بنت! ومن أين تأتي بالمال للسفر؟» قلت لها: «المال؟ هذه ليست مشكلة، سنشتغل في الطريق، سترين، لن نحتاج نحن الاثنتين إلى أي كان.» انتهى بي الأمر إلى الاعتقاد بذلك من كثرة الحديث عنه. إن لم نجد عملا فسأعنتي في الشوارع بوجه مطلي بالأسود وقفازات بيضاء، مثل المانستريل في شوارع لندن، أو أتعلم المشي على حبل، وسأرتدي ثوبا لصوقا مغطى بالبرق، وسيرمي المارة قطعاً نقدية في قبعة قديمة، وستكون أمي متواجدة باستمرار لتحرس، لأن العالم مليء بالأشرار. أتصوّر أن الراعي نفسه سيأتي معنا إلى إيطاليا، وكذلك الحاخام جويل بلباسه الأسود وعلبة الصلوات، سيتحدث مع الناس في الدين، سيتحدث عن أورشليم. سيجلس الناس قربه للاستماع إليه، وسيقدمون لنا قوتا قليلا من المال، وبخاصة النساء والفتيات، لأجل الراعي وشعره الأسود.

كان عليّ تحضير خطة للهروب. قضيت عدة ليالي وأنا أقلب الفكرة في رأسي، تخيلت كل الشوارع للإفلات من البحارة، من

الشرطة، ربّما استطعنا القفز في البحر والسباحة في الأمواج بنوع من الطافيات، أو على طوف، إلى أن نجتاز الحدود الإيطالية. لكنّ أمي لا تعرف السباحة، ولم أكن متأكدة من الراعي، ولا من قبول المخام جويل الإلقاء بنفسه في الماء ببدلته السوداء الجميلة وكتابه.

والحال أنه لن يقبل التحلّي عن عائلته هنا وترك شعبه بين أيدي الأعداء الذين يحتجزوننا، يجب أن نذهب جميعاً، الشيوخ، الأطفال، النساء، وكل الذين كانوا سجناء، لأنهم يستحقون الوصول إلى أورشليم. في الحقيقة، ما كان موسى نفسه ليتخلى عن الآخرين ويهرب وحده إلى أرض إسرائيل، ذلك ما كان صعباً.

أحببته أكثر في القاعة الكبيرة حيث كنا محتجزين في فترات الظهيرة الطويلة بعد الغداء، لما تضيء الشمس النوافذ العالية وتبدد قليلاً البرد الرطب. تجلس النساء في مستطيلات الضوء المقسمة على بلاطات الحجر الرمادية، ينشرن الأغشية أفرشة ويثرثرن والأطفال يلعبون من حولهن، كان صوت أحاديثهن يحدث طنيناً عجيباً لخلايا النحل.

أما الرجال فكانوا يمكثون في مؤخرة القاعة يتحدثون بصوت منخفض وهم يدخنون ويشربون القهوة جالسين على أفرشة الميدان، وكان صخب أصواتهم يحدث ضوضاء أكثر حدّة، مرقمة بصيحات وضحكات.

كنت حينها أحب الحكايات التي يرويها المخام جويل، يأتي ويجلس مع الأطفال على الأرض تحت ضوء إحدى النوافذ، وكان شعره ولباسه يلمعان كالحرير، كان جويل، في البداية، لا يتكلم إلا مع الراعي، دون أن يرفع صوته كي لا يزعج الآخرين. يفتح كتابه ويقراً ببطء. يبدأ بتلك اللغة الجميلة، الحلوة، العذبة تلك التي سمعتها من قبل في المعبد بسان مارتان، ثم يتحدث بالفرنسية ببطء وهو يبحث عن

الكلمات، وكان الراعي يساعده أحيانا لأنه لا يتكلم تلك اللغة جيّدا، ثم جاءت أمي، وجاء أطفال آخرون وفتيات، أطفال غرباء لا يعرفون لغتنا، ومع ذلك يجلسون للاستماع، كانت هناك أيضا فتاة اسمها جوديت ترتدي لباسا متواضعا، بخمار مشّجر على رأسها دائما، مثل فلاحه.

نتظر شروع الحاخام في الكلام، كأن صوتا داخليا يردّد ما نسمعه، يتحدث عن القانون والعقيدة، كأنهما أسهل أمرين في الدنيا. يتحدث عن معنى الروح بالحديث فقط عن ظلّنا، وعن العدالة بالكلام عن ضوء الشمس وجمال الأطفال، ثم يأخذ سفر التكوين الذي منحه لأمي العمّ سيمون روبان قبل رحيلنا ويشرح ما ورد فيه، لا يوجد شيء أفضل من حكاية بداية العالم. كان يردد الكلمات، في بداية الأمر، باللغة الإلهية، وبيّط، جاعلا كل لفظة ترنّ، وكل مقطع، وكنا نعتقد أحيانا أننا فهمنا بمجرد سماع كلمات هذه اللغة ترن هنا، في صمت سحننا. والحال أن الجميع يتوقف عن الثرثرة والحديث في هذه الآونة، حتى الشيوخ يستمعون وهم جالسون على أفرشة الميدان، إنها كلمات الـ: ... تلك التي علقها في الفضاء قبل أن يخلق العالم.

كان جويل يذكر الاسم بيّطه وبذهول، هكذا «الله وحده بين الآخرين، أكبر المخلوقات، هو الوحيد الأوحد، الذي يستطيع أن يفعل...».

كان يقول في الأيام الأولى، هنا في هذه القاعة الكبيرة، مع مستطيل النوافذ الذي يدور بيّطه على الأرض.

« في البدء خلق الله السماوات والأرض.»

«كنت أقول: «بشر؟ كانت السماء والأرض بشرا؟»

«نعم، بشر، المخلوقات الأولى شبيهة بالرب الإله.»

ثم يقرأ كذلك: «وكانت الأرض خربة وخالية، وعلى وجه الأرض غمر.»

كان يقول: «كان الله يستعمل الفراغ، الفراغ هو إسمنت الأرض والوجود.»

ويردف: «وروح الله يرفّ على وجه المياه.»

يقول: «النفس، التنفس في برد الماء.»

كان يتحدث عن الشمس، عن القمر، كان يقصّ حكايات شعبية، ولم تفكر في ظلّ القاعة، في الوقت الذي يدورّ النوافذ على الأرض. كان ذلك رائعاً، وكنا نفهم كلنا، جوديت أيضاً، وكل الأطفال، كنا نفهم معنى تلك العبارات.

ثم يقرأ: «وقال الله ليكن نور فكان نور، ورأى الله النور أنه حسن، وفصل الله بين النور والظلمة.»

يقول: كان الضوء هو ما يمكن معرفته، وكان الظلام إسمنت الأرض، جاء هذا وذاك منعزلين، يتعذر الحفاظ عليهما معاً، هناك الذكاء من جهة، وهناك العالم من الجهة الأخرى...»

«ودعا الله النور نهاراً، والظلمة دعاها ليلاً.» سمعنا هذين الاسمين، أجمل اسمين سمعناهما. «كان اليوم مثل البحر، بلا حدود، يملأ كل شيء، يعطي كل شيء. أما الليل فهو الفراغ، إسمنت الدنيا.» كنت أستمع إلى كلمات هذه اللغة الإلهية التي ترنّ في السجن. «وكان مساءً وكان صباح يوماً واحداً.» عندما كان جويل يقول في البدء، أحس بقشعريرة. اليوم الأوّل، لحظة التكوين.

«وقال الله: ليكن جلد في وسط المياه. وليكن فاصلاً بين مياه، فعمل الله الجلد، وفصل بين المياه تحت الجلد والمياه فوق الجلد. وكان كذلك.»

«ما هي المياه التي تحت الجلد؟» سألته. نظر إلى جويل دون أن يردّ. وأخيراً: «استمعي، الكتاب لا ينطق عن الهوى، اسمعي البقية: «ودعا الله الجلد سماء، وكان مساء وكان صباح يوماً ثانياً.»

توقف برهة وأردف: «وقال الله: لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد، ولتظهر اليابسة. وكان كذلك.»

«لماذا كان الماء أولاً؟»

«كانت الحركة، قبل الثبات، الحركة الأولى للحياة.»

فكرت في البحر الذي يجب عبوره، الأرض التي بلا ماء تبدأ في الجهة الأخرى. يقرأ جويل من جديد ثم يترجم: «ودعا الله اليابسة أرضاً، ومجتمع المياه دعاه بحاراً. ورأى الله ذلك أنه حسن.»

«كيف كانت الأرض؟» حاولت أن أتخيل الأراضي الأولى التي خرجت من البحر، مثل الجزر المظلمة التي رأيتها في العاصفة، على جسر الإخوة السبعة.

«كيف ترينها أنت؟» التفت جويل نحوي، ثم نحو الراعي، ثم إلى كل منا، وإذ لم يتحدث أحد:

«في الحقيقة، هذا لا يمكن أن يقال...»

واستمر: «وقال الله: لتنبث الأرض عشبا وبقلا يبزر بزرًا، وشجرا ذا ثمر يعمل ثمرًا كجنسه، بزره فيه على الأرض. وكان كذلك.»

توقف: هل فكرتم في هذه البذرة؟»

قال: «الحركة التي توحد الحرارة والبرد، التي توحد الذكاء والعالم. النهار، الليل، البذور، الماء... كل شيء وجد من قبل...»

وقرأ كلمات الكتاب: «فأخرجت الأرض عشباً وبقلاً يبزر بزراً كجنسه، وشجراً يعمل ثمراً بزره فيه كجنسه. ورأى الله ذلك أنه حسن، وكان مساءً وكان صباح يوماً ثالثاً.»

الصوت يتحرك بداخلي، يلامس القلب، البطن، إنه في حلقي وفي عينيّ. هذا يربكني، من الأحسن أن أبتعد قليلاً وأحیی وجهي في حمار أمي، كل كلمة تدخل أعماقي لتكسر شيئاً، هذه هي العقيدة، تكسر فيك أشياء، أشياء تمنع تحرك هذا الصوت.

منذ أسابيع وأنا أسمع يومياً صوت المعلم في هذا السجن. إننا جالسون على الأرض مع الأطفال الآخرين، مع النساء والرجال ونستمع إلى هذا الإرشاد. لم تعد لي الآن رغبة في الفرار، في الجري. تحت الشمس لرؤية الحرّ، ما يقوله الكتاب أكثر أهمية مما هو موجود خارجاً. يقرأ جويل: «وقال الله: لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين

النهار والليل، وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين.»
«أكان الوقت كذلك؟»

لكنّ جويل ينظر إليّ دون أن يجيب. ويقرأ:
«وتكون أنواراً في جلد السماء لتنير على الأرض. وكان كذلك.»

ثم يستدير نحوي ليجيب:

«ليس الزمان هو ما كان يمدّه الرب الإله، بل الذكاء، القدرة على الفهم. ما نسميه اليوم العلم، كان كل شيء جاهزاً لتسير آلة العالم. العلم، كان ضياء النجوم...»

لم يحدثني أحد أبداً عن النجوم منذ دلّني عليها أبي ذات مساءً، في صائفة وفاته. النجوم الثابتة والنيازك التي تنزلق كقطرات على سطح الماء..

« فعمل الله النورين العظيمين: النور الأكبر لحكم النهار،
والنور الأصغر لحكم الليل، والنجوم. »
أعاد جويل إغلاق سفر التكوين مع إقبال الليل، دخل الصمت
إلى القاعة مثل البرد، فهضنا الواحد تلو الآخر للالتحاق بزوايانا، ذهب
مع أمي للجلوس على السرير بمحاذاة الجدار. «أعرف الآن أننا سنصل
إلى أورشليم.» قلت ذلك لتشجيع أمي، لكنني كنت أوّمن بذلك.
«سنصل لما نعرف كل ما في الكتاب.» ابتسمت أمي: «هذا سبب
كاف لقراءته.» كنت أريد أن أقول لأمي لماذا لم يتل علي أبي
الكتاب مطلقاً، لماذا كان يفضل أن يتلو علي روايات ديكنز. ربّما
كان يريد أن أعثر عليه بنفسه في اليوم الذي سأحتاج إليه. والحال أن
كل ما شرحه لي، وكل ما تعلمته في المدرسة إلى اليوم، كل ذلك
أصبح واضحاً وصحيحاً، أصبح كل شيء سهل الفهم، واقعياً.

جاء المحامي لزيارتنا في السجن، وصل في الصباح الباكر بمحفظه مليئة أوراقا، وبقي فترة طويلة من اليوم يحدث الناس في القاعة الكبيرة، بل إنه أكل معنا عندما أحضر البحارة الرماة الوجبة، عصيدة ولحم. اليهود المسنون لم يرغبوا في أكل اللحم، قالوا إنه ليس جيّدا، لكنّ النساء والأطفال أكلوا دون أن يستمعوا إليهم. قال الراعي إن المهم هو العيش لامتلاك القدرة على التحرر والذهاب إلى أورشليم.

جاء المحامي أيضا ليكلّم أمي وجاك فيرجي وأمّ جوديت التي كانت معنا، كان المحامي رجلا شابا يرتدي كنزة رمادية، مرتب الشعر جيّدا، وكانت له شوارب صغيرة. كان صوته لطيفا وعيناه وديعتين، وكانت أمي مسرورة جدا بالحديث معه. طرح على أمي بعض الأسئلة ليعرف من أين جئنا ومن نحن ولماذا قررنا الذهاب إلى أورشليم. سجل الأسماء والأجوبة في كراس مدرسي، وإذ عرف أن أبي مات في أعقاب الحرب بسبب الألمان، وبأنه كان في المقاومة، دوّن ذلك بعناية في كراسه.

قال بأنه لا يمكن البقاء هنا في هذا السجن. أما بالنسبة إلى جاك بيرجي وأمّ جوديت فقد سجل اسميهما ودقق النظر في أوراقهما بعناية لأنهم منحوها إياه في مركز القيادة قبل قدومه، ثم أعاد لكل واحد وثائقه أو بطاقته الهوية أو جواز سفره، أحاط به الناس وصافح الجميع. تجمع النساء والرجال من حوله وطرحوا عليه أسئلة، سأله عن وقت تحريرهم وعمّا إذا كانوا سيعيدونهم إلى باريس. كان الذين قدموا من

بولونيا هم من ألحوا، وكانت النساء تتحدثن دفعة واحدة. طلب عندئذ الهدوء وتكلّم بصوت مرتفع حتى يسمع الجميع، وحتى تتم ترجمة كلماته للذين لا يفهمون الفرنسية في آن واحد: «أصدقائي، لا تخافوا شيئاً يا أصدقائي الأعزاء. سيكون كل شيء على ما يرام، ستكونون أحراراً عما قريب، أعدكم، لا تخشوا شيئاً».

وكانت الأصوات من حوله تردد: «والسفينة؟ هل يمكننا ركوب السفينة من جديد؟» تعالي ضجيج مع كلمة السفينة، وكان على المحامي أن يتكلم بصوت أقوى: «نعم يا أصدقائي، بإمكانكم مواصلة رحلتكم، السفينة مستعدة للانطلاق، جهّز الرّبان فريلو الطوافات التي كانت ناقصة، وأعدكم... وأعدكم بأنه بمقدوركم مواصلة رحلتكم بعد يوم أو يومين. كان الليل قد جنّ عندما ذهب المحامي، صافح الجميع مرّة أخرى، وحتى الأطفال الصغار. وكان يردد: ثقوا أيها الأصدقاء الأعزاء، سيكون كل شيء على ما يرام.»

عشنا الساعات اللاحقة في نوع من النشوة. النساء تتحدثن وتضحكن، ولم يرغب الأطفال في النوم ليلاً، ربّما بسبب ريح الجفوف التي تهب هذه الأيام. كانت السماء من الصفاء بحيث كنا نرى حتى أثناء الليل. بقيت أنا جالسة قرب نافذة، متدثرة بغطائي وأنظر إلى القمر المنزلق بين القضبان الحديدية نازلاً إلى البحر في طرف الساحة، كان الرجال يتحدثون في القاعة الكبرى والشيوخ الورعون يصلون.

يبدو لي الآن أن المسافة التي تفصلنا عن المدينة الكبيرة المقدسة لم تعد قائمة، كما لو أن هذا القمر نفسه الذي ينسحب في السماء هو الذي يضيء أورشليم، البيوت، حقول الزيتون، القبب والمآذن. الوقت بدوره لم يعد موجوداً، إنها السماء القديمة نفسها، عندما كان موسى

ينتظر في دار فرعون، أو لما كان إبراهيم يحلم بالطريقة التي خلقت بها الشمس والقمر والنجوم والماء والأرض وحيوانات العالم جميعها. أدركت هنا، في سجن أرسونال أننا كنا جزء من ذلك الزمان، وذاك ما يجعلني أقشعر من الخوف ويجعل قلبي يخفق، كما كنت أستمع إلى كلمات الكتاب.

جاء الراعي ليلا وجلس قربي بمحاذاة النافذة. لم يستطع أن ينام هو الآخر. تحدثنا بصوت منخفض. نام الناس في الجوار بهدوء، ونام الأطفال، كنا نسمع الصوت المنتظم للأنفاس وشخير العجائز. حدثني الراعي عن أورشليم، عن هذه المدينة التي سنصبح فيها أخيرا مثل أنفسنا، قال إنه سيذهب للعمل في مزرعة، وعندما يقتصد مالا سيذهب لمتابعة الدراسة، ربّما في فرنسا أو في كندا. لا يعرف أحدا هناك، لا أهل له ولا صديق. قال أيضا بأننا نستطيع أنا وأمي العمل في كيبوتز. لأول مرّة أسمع كلاما عن هذا، عن المستقبل وعن العمل.

فكرت في حقول القمح في روكيلير، وفي الرجال الذين يتقدمون وهم يديرون المناجل الكبيرة، في الأطفال الذين يلتقطون السنابل، كان قلبي يدق، أحسست بحرارة الشمس على وجهي، كنت مرهقة جدا، وبدا لي أنني لم أتوقف عن الانتظار، في فيستونيا، في الحقل، في أعلى القرية وعيناي على الكتلة الصخرية التي ينتهي إليها طريق المضيق، من حيث لم يعد أبي أبدا.

أسندت عندئذ رأسي على كتف جاك بيرجي ومرر ذراعه حولي، مثلما كنت أتربق وصول السفينة في صخور ميناء ألون. شممت رائحة جسده، رائحة شعره. كنت أودّ أن أنام أو أن أغمض عيني، وعندما أفتحهما أكون وسط أشجار الزيتون، في روابي أورشليم، وسأرى الضوء يشع على السقوف والمآذن.

جاءت أمي. أخذتني من يدي وساعدتني على النهوض بلطف، دون تعليق، ثم قادتني إلى سريري قرب الجدار. فهم الراعي وتنحّي. قال ليلة سعيدة بصوت أجش، وعاد إلى سريره في جهة الرجال. أرقدتني أمي، لفتني جيّداً في الغطاء كي لا أبرد. كنت متعبة جداً. لم يحدث أن أحببت أمي بعنف، لأنها لم تقل شيئاً. أحاطتني بالغطاء جيّداً كما كنت صغيرة، في السقيفة بمدينة نيس، وكنت أسمع دوازة الهواء تهتز على السقوف الفولاذية. قبلتني من جهة الأذن، كما أحب، ثم نامت بدورها، سمعت نفسها المنتظم دون أن أسمع أنفاس النائمين وشخيرهم. نمت في الوقت الذي بقيت عيناها مفتوحتين، وهي تنظر إليّ.

ذهبت الإخوة السبعة هذا الصباح غسقا. البحر أملس معتم، مزدحم بالنوارس، لنا الحق الآن في صعود الجسر، على أن لا نزعج القيادة. رافقنا الحامي إلى حافة الفتحة، صافحنا جميعاً وهو يقول: «إلى اللقاء أصدقائي، حظ سعيد.» صعد الحاخام جويل في الأخير بلباسه الأسود. سأله بتواضع عن كيفية التسديد. لكنّ الحامي صافحه قائلاً: "راسلوني لما تصلون."

بقي واقفاً على الرصيف. أمر القائد فريديو برمي القلوس. بدأ محرك السفينة يهتز بقوة، وبدأنا نبتعد، بقي الحامي على الرصيف، محفظته في يده وقد رجته هبة الريح، لوّحت النساء والأطفال بالناديل، غدا الرصيف أصغر فأصغر، مع الطيف الذي يبصر بالكاد في ضوء الفجر.

أمي ملتفة في الغطاء وفي خمارها الأسود، أصبحت شاحبة بسبب تمايل السفينة، رأت الشاطئ ينأى وأشباه الجزر تنفتح. نزلت لتنام في العنبر. عثر كل واحد منّا على المكان الذي شغله في بداية الرحلة.

رافقت الدلافين السفينة في العرض بالقفز أمام مقدمتها، ثم
أشرقت الشمس وذهبت الدلافين لتحتبىء، سنكون هذا المساء في
إيطاليا، في لاسبيزيا.

كانت إستير واقفة في الممر وهي تنظر إلى جسر السفينة حيث
اجتمع المسافرون. كان الجو رائعاً. لأول مرة منذ أيام انقشعت الغيوم
وشعت الشمس. كانت السماء ذات زرقة حادة رائعة، لم تشع إستير
من النظر إليها.

عبرت الإخوة السبعة عرض قبرص هذه الليلة، الأضواء كلها
مطفأة، الآلات متوقفة، بسرعة الرياح وحدها التي تجعل الأشرعة
تصطفق. لا أحد ينام في العنبر، ماعدا الأطفال الصغار الذين لا يعون
الخطر. كان الجميع على علم بأن الجزيرة هنا، قريبة جداً، يسارا، وأن
الزوارق تقوم بدوريات. سجن الإنجليز آلاف الناس في قبرص، الرجال
والنساء والأطفال الذين تم القبض عليهم في البحر في طريقهم إلى أرض
إسرائيل. قال الراعي بأن الإنجليز سيعيدونهم بلا ريب إن أمسكوا بهم.
سيضعونهم في مخيم، ثم في سفينة لأخذ بعضهم إلى وفرنسا والبعض
الآخر إلى إيطاليا أو ألمانيا أو بولونيا.

لم تنم إستير هذه الليلة. كانت السفينة تنزلق بصمت على
البحر المائج، تبحر مائلة بسبب ضغط الرياح على الشراع الكبير. لا
يريد الربان فريلو رؤية أحد على الجسر، لا يمكن إشعال المصباح ولا
قداحة من أجل سيجارة كان عنبر الإخوة السبعة معتما كفرن. إستير
تضغط جيّداً على يد أمها وهي تستمع إلى احتكاك الماء بالهيكل
واصطفاق الشراع. كان الليل طويلاً ولكل لحظة اعتباراتها، كما في
فيستونيا لما كان الألمان يفتشون عن الفارين في الجبل. أو كما في تلك
الليلة أثناء قصف الأمريكان جنوى. بيد أن هذه الليلة أطول لأن الرحلة

على وشك النهاية بعد عشرين يوم في البحر. انتظر الجميع طويلا وصلّوا وتحذثوا وعتّوا. عتّت الأصوات لحظة في الظلام، خفية، بلغة مجهولة، ثم توقفت فجأة، كأن الدوريات الانجليزية ستسمعهم في جهة ما من جهات البحر، رغم المسافة وضجيج الأمواج.

في لحظة ما أشعل أحدهم القداحة لمعرفة الساعة، برغم المنع، وانتقلت الشائعة من هذا إلى ذاك، بالألمانية، باليدية، ثم بالفرنسية: «منتصف الليل، الساعة منتصف الليل، تجاوزنا قبرص.» كيف عرفوا هذا؟ حاولت إستير أن تتخيل الجزيرة وجبالها العالية خلف السفينة كجنازة وحش. استمرّ المسافرون في الحديث وسمعنا ضحكات. كان هناك وقع خطى على الجسر، وانفتح المزارب.

نزل سيلفيو، صديق إستير، بعض السلام: «سكوت، لا تحدثوا ضجيجا، السفن الانجليزية من هذه الجهة.» سمعنا أوامر على الجسر، ثم صوت الشراع اللين الذي تمّ وصله. استقامت السفينة من فقدان الريح وترجحت على التموج مستقبلة الأمواج، تارة من جهة، وتارة من الجهة الأخرى. أين كان الانجليز؟ كانت إستير تشعر أنهم في كل الجهات دفعة واحدة، يرسمون دوائرهم في البحر بحثا عن غنيمتهم التي يكشفون عنها في الظلّ.

بقيت السفينة ثابتة مدة طويلة تدور حول نفسها في الريح والأمواج تمزّها. لا صوت على الجسر. ربّما ذهب البحارون الايطاليون؟ ربّما تخلّوا عن السفينة؟ استمرت إستير في الشدّ على يد أمها. كان الصمت مطبقا. استيقظ الأطفال وبدأوا يبكون، وكانت الأمهات تحاولن كتم أنفاسهم على الصدور.

طالت الدقائق والثواني، كل نبض مفصول عن الآخر بانتظار مؤلم. بعد فترة طويلة سمعت مجددا خطوات على الجسر، وعلا صوت

الربان: «ألزا لا فيلا؟». نفخت الريح الشراع مرّة أخرى، وسمعنا طقطقة الساريات والصفير في العتاد. شرعت السفينة تتقدم في مواجهة الأمواج، مائلة إلى الجنب.

بدا لإستير أن لا شيء أجمل. بدأ الناس يتحدثون في الظلام، بصوت خفيض في البداية، ثم أعلى فأعلى، وكانوا يصخبون دفعة واحدة ويضحكون ويغنون، وانفتح المزاب من جديد. نزل سيلفيو بمخطف وقال: "مررنا." صرخ الجميع وصفقوا. انطلقت المحركات من جديد بعد فترة قصيرة. كان حديد الآلات يترأى مثل موسيقى عذبة. ثمنا عندئذ على الأرضية والرؤوس مستندة إلى الرزم التي تم تحضيرها للوصول. نامت إستير دون أن تتخلى عن يد إليزابيث وهي تستمع إلى الاهتزازات المنتظمة للمحركات في السقفية وعيناها مثبتان على وميض نور المخطف.

صعدت إلى الجسر قبل شروق الشمس. كان البحارة لا يزالون نائمين، وإذا فتحت المزاب قطع الهواء نفسها، منذ مدة وهي سجينه في العنبر، بقيت برهة متزنة، دون أن تقوى على الحركة، ثم مشت بحذر إلى مقدم السفينة، واستقرت هناك مع الزاوي المنفتح أمامها. هناك رأت طلوع الفجر على البحر.

لم يكن هناك في البداية سوى الظلّ الأزرق، النجوم التي تتأرجح والضوء الباهت لدرب التبانة، صعد الضياء تدريجياً إلى الأفق، في الأمام مباشرة، بقعة تمحو النجوم. غدت السماء رمادية خلال لحظات، وظهر البحر بقممه المشعة والأفق الممدد على العالم مثل انقصاص، السفينة تتقدم بانتظام متجاوزة الأمواج بتمهل، دون اصطدام مع الريح التي تضغط على الأشرعة، والاهتزازات الرتبية للمحركات.

لما وصل الضوء ركزت إستير نظرها على خط الأفق الضيق، دون أن تطرف، ودون أن تحيد. بدا لها وهي متكئة على الدرايزين أنها

توحدت بالجوّ، إنها هي التي تشق البحر، تنزلق برغبتها كما عصفور في طيران شراعي، كانت تسير مباشرة، راغبة في رؤية خطّ الشواطئ قبل الآخرين، رشيقة وخفيفة كسحابة، وحقيقية رغم ذلك. سبرت البحر إلى أن أصيبت بدوران.

بقيت على نفس الحال عدة ساعات، ثم لامس سيلفيو كتفها "آنستي، عفوا" نظرت إليه دون أن تفهم. السماء الآن عالية في السماء، والبحر حارق. ساعدها سيلفيو على المشي إلى الكوثل: «القائد لا يجب... خطر.» نطقها "ختر"، لكنّ إستير لا تستطيع أن تضحك. جمّدت الريح وجهها، وجمّده ألم النظر.

«تعالي، سنتناول القهوة». لكنّ إستير رفضت الدخول لما وصلت إلى الثقب الأسود للميزاب، لم تعد ترغب في النزول إلى العنبر لتشم رائحة الخوف والانتظار. لن تظهر أبدا شواطئ أرض إسرائيل على البحر إن نزلت. هزت رأسها فسالت الدموع على خديها. الريح وضوء الشمس هما اللذان أسالا الدمع، لكنّها أحست فجأة بشهقات في الحلق.

تأملها سيلفيو منزعجا، ثم وضع ذراعه حول كتفها وأجلسها على الجسر، في محباً سلّم الكوثل. عاد بعد فترة بقدر من الخوف "القهوة". غمست شفيتها في السائل الملتهب. كان شعرها ملتصقا بخديها من الدموع، ولم يقدر فمها على التبسم. «شكرا». رغبت في الكلام، في السؤال، غير أن الكلمات لم تعد تعبر حلقها. فهم الشاب نظراتها ودلها على الأفق من جهة الجوّ: "ميزودي"، ثم رجع مع البحارة الآخرين. سمعت إستير أصواتهم التي تسخر منه.

خرج المسافرون من العنبر تباعا. بلغت الشمس السميت. كانت تسطع على البحر، وإذا يصل النساء والأطفال إلى الجسر يغطون أعينهم

بأيديهم، كانوا كلهم شاحبين، متعبين ومذهولين، كأهم قضا سنين في أسفل العنبر. كانت للرجال وجوه غزها اللحى، وكانت ملابسهم مدعوكة. وضعوا على رؤوسهم قبعات أو قلنسوات لاتقاء الشمس والريح. كانت النسوة مدثرات بخمارهن وقد ارتدت بعضهن معاطف بياقات من الفرو. ارتدى الشيوخ قفاطينهم الثقيلة وتكدسوا على الجسر تباعا، خلف السفينة ينظرون نحو الأفق الشرقي صامتين، وكان الحاخام جويل بدوره هناك، ببدلته السوداء. أشغل البحارة المذيع في مركز نوتي الإشارة، الموسيقى تجيء وتبتعد، إنه الصوت نفسه، الغريب الأجش الذي سمعته إستير ذات يوم في مضيق مسينا، صوت يبلي هوليداي الذي كان يغني أغنية البلوز.

وصلت إليزابيث بدورها. كان جاك بيرجي يشدها من يدها. بدا وجهها شاحبا في مقابل ثيابها السوداء. رغبت إستير في الالتحاق بها، لكن حشد المسافرين منعها العبور. صعدت سلم الكوئل لتبصر أفضل. بدأت الشمس تنزل إلى الجهة الأخرى من السفينة وتوقفت الريح. وفجأة كان الشاطئ هنا، أمام السفينة، دون أن نفهم كيف حدث ذلك. لم ينبس أحد. كأننا خفنا أن نخطئ. كان كل واحد منا ينظر إلى الخط الرمادي الذي ظهر في البحر، شبيه ببخار، وفوقه استقرت غيوم كثيفة.

بدأت أصوات الرجال والنساء تردد الكلمة نفسها: «أرض إسرائيل! أرض إسرائيل!» توقف البحارة الإيطاليون بدورهم عن الحركة وراحوا ينظرون إلى خط الشاطئ.

جعلت الشمس الأمواج متألثة، وبدأت أشعة السفينة أكثر بياضا. شاهدنا وقتها الطيور الأولى التي تحلق حول السفينة، كانت صيحاتها تصدي في صمت البحر، فوق أصوات الرجال وهدير

المحركات، فوق صوت يبلي هوليداي. سكت الجميع من أجل سماعها. تتذكر الآن إستير ذلك الطائر الأسود الذي كان يعبر الجبال في ما مضى، الطائر الذي دلّها عليه أبوها. سيصلون بدورهم قبل الليل، وسيحطون على السواحل البحرية.

جاء الحاخام جويل إلى سلّم الكوثل، مشط لحيته وشعره جيّداً، وكانت بدلته السوداء تسطع تحت الشمس مثل شبكة. وجهه يعبر عن التعب والقلق، وعن الطاقة كذلك، وكانت عيناه تلمعان مثلما كان عليه الحال وهو يقرأ سفر التكوين في السجن بفرنسا. اخترق الجمع وهو يجيى الجميع، كأنه يلتقي بهم بعد غياب طويل. ورغم تعب وجهه، فإن طيفه الرشيق بدا طيف شاب.

توقف أمام السلم وفتح كتابه. استدار الآن كلهم نحوه، دون التمادي في النظر إلى خط الأرض الذي يمتد أمام جوجو السفينة. جاء الرّبّان فريلو كذلك، وأطفأ البحارة المذيع. ارتفع صوت جويل في سكون البحر. كان يقرأ ببطء بتلك اللغة الغريبة، العذبة تلك التي تكلم بها آدم وحواء في الجنة، اللغة التي تكلم بها موسى في سيناء. لم تفهم إستير، لكنّ الكلمات تلج أعماقها، كما فعلت من قبل، وتختلط بنفسها. الكلمات تتلأأ في البحر الأزرق القاني، تضيء كل جزء من السفينة، حتى الأماكن القذرة، أو تلك التي آذتها الرحلة، وحتى البقع التي على الجسر وشقوق الشراع.

تنير كل الوجوه. كان الجميع ينصت، النساء اللاتي يرتدين الأسود، الفتيات بخمارهن المشجرة، الرجال، الأطفال، وكان جويل يتوقف بين كل كلمة وكلمة من كلمات الكتاب، وكنا نسمع صوت الجوجو وهدير المحرك. كلمات الكتاب جميلة مثل البحر، تدفع السفينة إلى الأمام، نحو الخط الغائم لأرض إسرائيل.

كانت إستير جالسة على السلام تستمع إلى الصوت وتنتظر إلى الشاطئ الذي يكبر. إنها نفس الكلمات التي علمها جويل في السجن، الكلمات التي تحدث عن الخير والشر. عن الضوء والعدالة، عن ميلاد الإنسان في العالم. الأمر كذلك اليوم، إنها البداية، كان البحر جديدا. برزت الأرض فوق الأمواج في الحين. ضوء الشمس يسطع لأول مرة. وفي السماء العصفير تحلق فوق السفينة لتدل على طريق الشاطئ الذي ولدت فيه.

ثم جرى كل شيء بسرعة، كما في حلم. رست الإخوة السبعة في عرض شاطئ كبير، قرب خط الجبال الزرقاء المعتمّة. جاءت زوارق إلى السفينة وتمّ إنزال الناس في فرق صغيرة، عندما وصل دور إليزابيث وإستير، رأّت الفتاة الناس ينتظرون على الشاطئ، الحقائق، والنساء اللاتي يحتضنّ صغارهن. خافت بعتة وعادت إلى مكانها بجانب سلّم الكوثل، كأنها ترغب في العودة مع السفينة ومتابعة الرحلة. إليزابيث تنتظرها وهاك بيرجي يومئ لها بأن تأتي، لكنّها بقيت هناك ويدها متشبثتان بدرج السلّم، جاءت إليها إليزابيث في نهاية الأمر، قادتها نحو الدرايزين ونزلتا في السلم النسيجي إلى غاية الزورق.

بعد لحظة كانت إستير وإليزابيث في الشاطئ. الراعي واقف أمام الحقائق، وجهه الأشقر مشدود من القلق، مخطوف البصر من الضوء. ضحكت إستير رغما عنها، أحست بعدها مباشرة بالدموع في عينيها، كان وجهها يشتعل من الحمى، تركت نفسها تنزلق على الرمل وأسندت أعلى جسدها إلى حقيبة أمها. لم تعد تنظر إلى شيء، انتهى كل شيء إستير ليتا، سيكون كل شيء على ما يرام.» كان صوت إليزابيث هادئا حاليا، أحست إستير بأصابع رشيقة تداعب شعرها الممزوج بالملح، لم يحدث أن نادتها أمها. «النجمة الصغيرة»، كانت تلك أول مرة.

السفينة ترتجّ في العرض وحبال الإبحار تصعد في اهتزازات، وكان البحارة الإيطاليون ينظرون إلى الشاطئ من الجسر. طفا الشراع مصطفقا في الريح، ثم انتفخ دفعة واحدة. ابتعدت الإخوة السبعة. لم يسبق بعدها سوى البحر المذهل تحت الشمس الغاربة، والزوارق التي تُسحب على الشاطئ.

مشت إستير وإليزابيث ببطء على الشاطئ، مع جاك بيرجي الذي كان يحمل الحقائب. انتظر الناس قرب الكنبان ممددين على الرمل، وهناك من بسطوا أغطيتهم. سقط الدجى، وكانت الريح الدافئة مليئة بعبار الطلع. كانت تحدر قليلا.

الضوء هو الذي كان جميلا، الضوء والحجارة، كأنها لم تعرف ذلك من قبل، كأنه لم يكن هناك سوى الظل، الضوء هو اسم المدينة التي سمعت عنها مذ كانت صغيرة جدا، الاسم الذي يذكره أبوها مساء لتنام معه. أصبح الاسم أمامها وأمام إليزابيث عندما تسيران في طريق الحجارة، عبر الغابة للذهاب إلى إيطاليا. انه الاسم الذي أحببت سماعه عندما كانت تنتظر كل مساء في فيستيونا، محتببة في الأعشاب، هناك من حيث سيأتي أبوها، إنه الاسم الذي كان في شقة 26 من شارع جرافيلي، في الممر المظلم، في السلام حيث يجري الماء، والسقف المثقوب مثل رباط، كان هو نفسه في السفينة الهاربة في المياه، هو الذي يلمع عندما تصعد إلى الجسر، هو الذي يبهر.

تركض إستير في شوارع المدينة الجديدة أين استقر المهاجرون. تذهب إلى أعلى الربوة وتضيع في غابات الصنوبر. ذهبت بعيدا كي لا تسمع أي شيء بشري، ما عدا صرير الريح في رؤوس أشجار الصنوبر والحفيف الخفيف لعصفور ما.

زرقة السماء مغرية، للصحور شعلة بيضاء. كان الضوء من القوة بحيث سالت الدموع من عينيها. جلست على الأرض ورأسها مسند إلى ركبتيها، وياقة معطفها مرفوعة إلى حد أذنيها.

هناك عثر عليها جاك بيرجي ذات صباح، ثم أصبح يرافقها يوميا، ربّما تعقب آثارها، أو أنه راقبها من بعيد عندما كانت تجري عبر

الشوارع إلى الجبل، ناداها باسمها، بصوت عال، واختبأت خلف دغل،
وإذ مر نزلت من جديد إلى حائط قدم. هناك أمسك بها. سارا
وسط الصنوبر وهو يشدها من يدها، لم تمنع لما قبلها، لوت رأسها
لتحتب نظرتة.

تحدث جاك عن الأخطار المحدقة في كل مكان بسبب الحرب. قال
إنه سيحارب أعداء إسرائيل، سيحارب العرب والانجليز، تحدث في
أحد الأيام عن خبر وفاة غاندي، كان شاحبا ومضطربا. كأن ذلك وقع
له. سمعت إستير هذا. كانت ترى الموت يلمع في السماء، في الحجارة،
في الصنوبر وفي السرو. الموت يلمع مثل الضوء، مثل الملح، تحت
الخطى، في كل شبر من الأرض.

تقول إستير. «إننا نمشي على الأموات»، كانت تفكر في كل
الذين ماتوا هناك منسيين، كل أولئك الذين طاردهم عساكر
الفيرماخت في الجبال، في وادي ستورا، أولئك الذين احتجزوا في معقل
بورجو سان دالمازو، أولئك الذين لم يعودوا أبدا. تفكر في المنحدر، في
أعلى كوليوتو، أين كانت ترقب طيف أبيها إلى أن يتشوش بصرها
وتفقد الوعي. الحجارة البيضاء تلمع ها هنا، كانت مثل عظام أولئك
الذين فقدوا.

كان جاك يقرأ كتاب التكوين الأسود، وإستير تسمع أسماء
أولئك الذين ماتوا على هذه الأرض، أولئك الذين تحولت عظامهم إلى
حجارة، طلبت منه: «اقرأ لي ما قرأه الحاخام جويل على جسر السفينة
عندما وصلنا.» كان يقرأ ببطء، أصبح صوته العذب قويا، حادا، ما
جعل إستير ترتعد.

«كَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى وَقَالَ: أَنَا إِلَهَ آبَائِكَ، وَإِلَهَ إِبْرَاهِيمَ وَإِلَهَ
إِسْحَاقَ وَإِلَهَ يَعْقُوبَ. أَنَا اللَّهُ الْمَلِكُ، لَمْ أَجْعَلْ لَهُمْ رُوحًا وَوَعَدْتُهُمْ بِأَرْضٍ

كنعان، الأرض التي تاهوا فيها وعاشوا غرباء. سمعت صراخ بني إسرائيل، ورأيت أنهم يعانون اضطهاد المصريين، ووفيت بالقسم الذي أقسمت. قل لبني إسرائيل أنا هو الله، أريد إنقاذهم من المصريين وتخليصهم من العبودية. أمدّ يدي وأضرب مصر. أتخذكم شعبي وأكون ملككم لتعرفوا أنني أنا الله لأني أنقذتكم من أذى مصر، وسأقدم لكم هذا البلد الذي وعدت به إبراهيم وإسحق ويعقوب، وسيكون ملكا لكم.»

كانت الكلمات ترن في سكون الجبل، انحنى جاك على إستير وطوّقها بذراعه، "ما بك؟ بردت؟" هزت رأسها، لكنها كانت منقبضة الحلق، "لماذا يجب أن تكون هناك حرب؟ ألا نستطيع العيش في وئام؟" رد عليها جاك: "يجب أن تكون آخر حرب، أن لا تكون حروب أخرى، ستتحقق آنذاك كلمات الكتاب ونبقى في الأرض التي منحها الله لنا.»

لكنّ الجبل في أعلى حيفا كان أبيض من العظام، لم يكن الضوء ناعما، كان يلهب العيون، عنيفا ومتوحشا، وكان الخوف في الريح، في السماء الزرقاء وفي البحر.

قالت إستير: "أنا متعبة، متعبة جدا، أرغب كثيرا في الراحة." تأملها جاك دون أن يفهم. كان الضوء أكثر نعومة عليه، على شعره، على لحيته الشقراء، وفي عينيه الشاحبتين. استطاعت أن تبتسم. نظرت إلى يده البيضاء الكبيرة بين يديها القدرتين الصغيرتين كيدي بوهيمية. بقيا ممددين على المنحدر المحصب يستنشقان رائحة الآس والصنوبر ويستمعان إلى موسيقى الريح الخفية.

عندما نزلت الشمس نحو البحر، أخذ جاك بيد إستير وسلرا عبر أشجار الزيتون، من رصيف إلى رصيف، إلى بيوت المدينة الجديدة.

كان السهل أمامهما ببعض الأدخنة الخفيفة. كان الحمام يخلق فوق
السقوف. وفي الميناء بواخر أخرى، تلك التي كسرت حصار الانجليز.
دخلت إستير وجاك إلى شوارع المدينة يدا في يد. هكذا ارتبطا بوعد
الزواج.

في الرابع عشر مايو صباحا بدأ الناس يصلون إلى ساحة يافا، أمام المسجد الكبير، وعلى طول الشاطئ. جاء بعضهم من المزارع المجاورة لساعات وجاء آخرون من أمثال إستير، إليزابيث وجاك بيرجي بحقائبهم ليبدأوا الرحلة. شكل الفتيان والفتيات حلقات صاحبة، واحتمت بعض النساء الفقيرات المرفقات بأبنائهن بأشجار الصنوبر. كانت الشمس قد بدأت تسطع بقوة. استقرت إليزابيث وإستير مثل الفقراء على الشاطئ، قرب المدينة الجديدة. كان الناس ينتظرون في صمت، دون أن يعرفوا الطالع. هذا اليوم هو اليوم الذي سيبدأ فيه كل شيء، هكذا يقولون، ستأخذ الشاحنات الناس إلى أورشليم.

وصلت الآن عائلات أخرى إلى الشاطئ، أغلبها عائلات قدمت من أوروبا الوسطى بثياب سوداء. استقروا على الكثبان قرب الشارع وهم ينظرون إلى البحر دون قلق. وحدهم الأطفال والشباب لم يستقروا في مكان، كانوا يجرون على الشاطئ ويتساءلون. جلب آخرون آلات موسيقية، أكرديون، قيثارة، وهرمونيكا، وكنا نسمع من حين إلى آخر ضحيجا من الأغاني.

لم يفكر أحد في ما سيحدث هذا اليوم، كأن هناك انفصالا عن الزمان وطفوا فوق الأرض. كان ذلك اليوم كذلك، بلا بداية وبلا نهاية. كان الليل قد جنَّ لما وصلت الشاحنات إلى مخيم اللاجئين في حيفا. نامت إستير وإليزابيث بلباسهما، وحقيباتهما جاهزتان قرهما. صعدتا سريعا إلى الشاحنة، في حين صعد جاك في شاحنة لا يوجد فيها

سوى الرجال، كانوا كلهم مسلحين استعدادا لصد أي هجوم في الطريق، كانت الشمس تسطع عندما دخلت الشاحنات إلى تل أبيب. لذا لم تكن لهذا اليوم أية بداية.

لما دخلت الشاحنات تقاطعت مع رتل يسير في الاتجاه المعاكس باتجاه حيفا. نزل كل الرجال إلى الطريق لمشاهدة الموكب. كانوا يصرخون ويصفقون. جاء جاك لملاقة إستير وعيناه تلمعان وقال: «الانجليز هم الذين سيغادرون، إننا أحرار». المدرعات الانجليزية تسير ببطء في الطريق المغير. في وسط الموكب سيارة المحافظ السامي كونيتغام. مروا قرب الرجال والنساء واختفوا في سحابة غبار، نحو طرّادة أوراليوس التي كانت بانتظارهم.

بدأ الناس الآن يأكلون على الشاطئ خبزا وزيتونا وفواكه، شوى الشباب حروفين على نار الأخشاب اليابسة ووزعوا قطع اللحم المشوي على الذين من حولهم. ناولت إستير نفسها، وكذلك إليزابيث. أما جاك فقد أخذ بدوره قطعة. كان الولد في الثانية أو الثالثة عشرة، وجه جميل ملفوح، شعر مجعد وعينان واسعتان ولامعتان كاليشب. سألته إستير بالفرنسية: "ما اسمك؟" لكنّه لم يفهم. وترجم جاك، "يوحنا، يقول إنه جاء من الحجر، إنه ذاهب إلى أورشليم." ذهب ثانية لتوزيع قطع اللحم على العائلات التي تنتظر في الشاطئ.

عندما انتهوا من الأكل غسلوا أيديهم بالرمل وماء البحر. أخذ جاك بيرجي سفر التكوين وشرع يقرأ ببطء ويترجم أولا بأول، المقطع الذي يتحدث عن الضوء الذي كان معلقا في السماء إلى الصباح كنيزك، والسحابة التي تغطي بيت القربان وترشد أمة موسى في الصحراء.

كانت إستير تستمع إلى الكلمات العجيبة النائية التي ترن بغرابة على هذا الشاطئ، قدام البحر الشديد الزرقة، تحت السماء، مع

اللاجئين الذين ينتظرون أبعد فأبعد والأطفال الذين يلعبون في الرمل، وصوت الهرمونيك الذي يجيء من مكان مجهول، ورائحة الدخان. فكرت إستير في الأضواء التي شاهدتها في سان مارتان عندما دخلت الكوخ أول مرة، في الشموع المشتعلة، في الضوء الخافت وفي الشيخ إيزيك سالنتر الذي يرتدي خمارا صوفيا أبيض ويردد الكلمات بتلك اللغة العذبة الحلوة التي لا تفهمها.

ذهبت إستير وجاك إلى المتحف قبيل الرابعة، هناك في المدينة القديمة. سارا مع الحشد الشباب والأطفال. حول المتحف جنود مسلحون وميليشيات بسواعد الدروع. كان النهج الكبير مكتظا بالناس، وكل شيء ساكنا. كان الذين يفدون يتوقفون وينتظرون دون صخب، ودون كلام. نزل من إحدى السيارات رجال ونساء ودخلوا إلى المتحف. رأَت إستير من فوق الرؤوس، بعد أن وقفت على أصابع الرجلين، رجلا صغيرا يرتدي الأسود، بوجه راع مسن وشعر كثيف أبيض، شرع بعد ذلك مكبر صوت مثبت في حديقة البيت القديم في بث صوت أجشّ أبجّ. توقف كل واحد عن التنفس لسماح ما يقوله، وحتى الذين لا يفهمون العبرية.

كان جاك يترجم الكلمات منحنيا على إستير: «إسرائيل هي المكان الذي ولد فيها الشعب اليهودي، هنا ولدت عقيدته واستقلالته وحضارته... هنا كتب الكتاب، له وللكون ليولد...» توقف عن الترجمة لأنه لم يعد قادرا على الكلام، كان هناك سكون عندما توقف الصوت بغتة، ثم شرع صوت يصدي، من بعيد في البداية، ثم أقرب فأقرب، متقدما في الشارع، ثم في الشوارع المجاورة وفي البعاد بحيث يسمعه العالم بأسره.

لم تغنّ إستير لأنها لم تحفظ الكلمات في يوم ما، لكنّ حلقها كان مشدودا وعيناها مليئتين بالدموع. ثم كان سكون، وجاء مكبر الصوت

بالصوت الخفيف البطيء للحاخام الشيخ ميمون الذي منح بركته. نحن جاك على إستير وقال: «إسرائيل موجودة، لقد أعلنت إسرائيل»، صعدت الراية فوق المتحف على السارية، مع النجمة الزرقاء التي ترفرف في السماء.

كان الفتيان يجرون في الشوارع ويغنون، تلتف الأيدي وتشكل المواكب الراقصة وتلوى. أخذت إستير تجري بدورها عبر الشوارع المجهولة إلى حدّ فقدان التنفس ويدها بيد فتاة ترتدي تباناً بحرياً محزّزاً. بعد الأتعاب جاء الدوران والجنون، حتى جاك كان يجري عبر الشوارع الباهرة ليلتحق بإستير ويتعد من جديد.

جلسوا في مقهى الشاطئ ليرتاحوا ويشربوا القهوة والجمعة، اسم الفتاة التي تبان محزّز مريم، واسم الأخرى أليكسيا، ذكر الأطفال أسماءهم كذلك، صمويل، إيفان، داوود، كانوا لا يتكلمون سوى اليدية، الألمانية، وقليلاً من الإنجليزية. شربوا ودخنوا وضحكوا محاولين الحديث خبط عشواء. لم يعد لأي شيء قيمة، ضم جاك إستير إليه ملاطفاً شعرها، كان ثملاً قليلاً.

استمروا في تيههم عبر الشوارع، ورغم تحضيرات السبت، استمر الفتيان في الرقص والموسيقى، ومجيء الليل عادوا نحو الشاطئ، هناك حيث نمت أشجار الصنوبر في التراب الصلصالي، وسط التقدم الصخري في البحر. جمع الفتيان الحطب ورؤوس أشجار الصنوبر وأوقدوا النار بين الحجارة لرؤية الضوء يشعّ، مكثوا متحلقين حول النار دون أن يتكلموا كثيراً، كانوا يستمعون إلى طقطقة الشعلة التي كانت تقذف زغفاً من حين إلى آخر. لم يحدث لهم أبداً أن رأوا نورا في الليل بذلك الجمال، مع الريح التي تهب من جهة البحر، وإذا انطفأت النار تمددوا بين الأشجار، على أغصان الصنوبر. كانت إستير تحس

بالأرض تدور ببطء من تحتها، مثل طوف جرفه التيار. أحست لصقها بجسد جاك وسمعت نفسه، كانت تسمع أيضا أصوات الأزواج وأجسادهم التي تدعك أغصان الصنوبر وتكسر الأبنان الصغيرة، كانت شفتا الراعي تبحثان عن شفتيها. أحست بجسده يرتعد. نهضت وقالت: «تعال، يجب أن نعود بالقرب من أمي»، سارا لحظة دون أن ينبسا، ثم شددت إستر على يد جاك وذهبا جريا حتى طرف الشاطئ وهما يتعثران في الرمل. وحدا إليزابيث تتدثر في غطاءها القديم وظهرها مستند إلى الحقيقتين، عندما وصلا لم تقل سوى: "يجب أن ننام"، وتمددت على الرمل.

بعد يومين كانت إستير وإيزابيث على سطح مؤخرة الشاحنة التي تبحر نحو أورشليم. كان الموكب المكوّن من ست شاحنات وسيارة جيب أمريكية يتقدم ببطء في الطريق المحفور، عبر الروابي الجرداء في شرق رملة. كان في شاحنات المقدمة رجال مسلحون، وكان جاك بيرجي معهم. كانت الشاحنات الأربع التي في المؤخرة تنقل النساء والأطفال.

لم تبصر إستير، عندما أراحت الغطاء، سوى الغبار وأضواء الشاحنة اللاحقة. كان الغبار يقل في فترات فتبصر الروابي، المنحدرات وبعض المنازل. الريح باردة والسماء ذات زرقة ثابتة، مع أن الحرب كانت هنا، في كل جهة من حولهم. تقول الأخبار بأن مزارعين يهودا اغتيلوا في مستعمرة عطاروت، في تل أبيب، وقبل الانطلاق، قرأ جاك على إستير تصريح اللواء شيلتيال المثبت على الحيطان: «العدوّ يلفت نظره نحو أورشليم، المقر الدائم لشعبنا الخالد، ستكون معركة وحشية، ضارية، بلا تراجع، سنقاوم إلى آخر رجل من أجل بقائنا، ومن أجل عاصمتنا». قنبل الجيش العربي الذي يقوده جون باجو جلوب وعبد الله، الطريق بين تل أبيب وحيفا. عبر المصريون الحدود وتقدموا للحاق بالجند على الضفة الجنوبية للبحر الميت.

مع ذلك، لم يخف أي أحد في الشاحنات. مازالت هناك نشوة الإعلان عن إسرائيل، الطواف عبر الشوارع المشمسة، الأغاني والأمسية اللطيفة على الشاطئ وسط الصنوبر.

يقول الناس، الآن وقد ذهب الانجليز سيكون كل شيء على ما يرام، ويقول الآخرون إن الحرب في بدايتها، ستكون هناك حرب عالمية ثالثة، لكنّ إليزابيث لا تريد سماع هذا. أحست بدورها بالنشوة، وبالفرح، مادام هدف الرحلة وشيكا. كانت عيناها تلمعان، وكانت تتحدث وتضحك، كما لم تفعل ذلك منذ زمان نظرت إستير إلى وجهها المستقيم المؤطر بالوشاح الأسود، وجدتها شابة وجميلة جدا.

خلال كل هذه الساعات التي انتظر فيها الناس الانطلاق، كانت هي التي تتكلم عن أورشليم، عن المعابد والمساجد والقبب اللامعة والحدائق والينابيع. تحدثت عنها كما لو أنها رأتها من قبل، وربما رأتها في الحلم. كانت المدينة أجمل بقعة في العالم، هناك يتم الحصول على كل ما نرغب فيه، حيث لا يمكن أن تقوم الحرب، لأن كل الذين طردوا وسلبوا في العالم، وهاموا بلا بلد، سيستطيعون أن يعيشوا في سلام.

دخلت قافلة الشاحنات إلى غابة من الصنوبر والأرز تتخللها سيول صافية. توقف الموكب في قرية اللطرون ونزل الجنود واللاجئون للاستراحة. هناك ينبوع وحوض غسل، وكان الماء يسيل بصوت هادئ. غسلت النسوة وجوههن وزنودهن بسبب الغبار، وكان الأطفال يرشون نفوسهم ويضحكون. شربت إستير مطولا ماء باردا، وبتلذذ. كان هناك نخل في السماء، وكانت شوارع القرية خالية وساكنة، وكنا نسمع أحيانا زججرة العاصفة، بعيدا في الجبال.

كان الرجال واقفين في مداخل الشوارع حاملين بنادقهم لما كانت النساء والأطفال يشربون. وكان السكون متوعدا. تتذكر إستير يوم وصلت إليزابيث إلى الساحة في سان مارتان عندما اجتمع الناس للسفر، الشيوخ في معاطفهم السوداء والنساء بوجوههن الملفوفة بوشاح

والأطفال الذين يركضون ولا يعرفون لماذا. إنه السكون نفسه، ما عدا الهزيز الذي كالعاصفة.

انطلق الموكب من جديد، وبعيدا كان الطريق يتخلل المعابر المزدحمة بالصخور، هناك حيث استقر الآن الظلام. خفت الشاحنات السرعة، أزاحت إستير الغطاء ورأت صفًا من اللاجئيين. انخنت امرأة بجانبها، "عرب" لم تقل سوى هذا. كان اللاجئون يمشون على حافة الطريق بمحاذاة الشاحنات، كانوا قرابة مئة، وربما أكثر، فقط نساء وأطفال يرتدون أسمالا، حفاة، ورؤوسهم ملفوفة في حرق. أشاحت النسوة عن وجوههن وهن يعبرن سحابة الغبار، كانت بعضهن منهن من يحملن أثقالا على رؤوسهن، وأخريات بحقائب وعلب كرتون محزومة: وكان لعجوز مدافع مخلّع مشحون بأغراض خليطة.

توقفت الشاحنات ومرّ اللاجئون ببطء، بوجوههم الحائدة ونظرتهم التائهة. كان ثمة صمت ثقيل، صمت جنازتي على تلك الوجوه الشبيهة بأقنعة من الغبار والصلوات، وحدهم الأطفال كانوا ينظرون والخوف يسكن عيونهم.

نزلت إستير واقتربت، كانت تريد أن تفهم، استدارت النساء، وزجرتها بعضهن بكلمات قاسية بلغتهن، انفصلت فجأة فتاة صغيرة عن الفرقة وتقدمت باتجاه إستير، وجهها شاحب ومتعب وفتاتها مليء بالغبار، وعلى رأسها وشاح كبير.

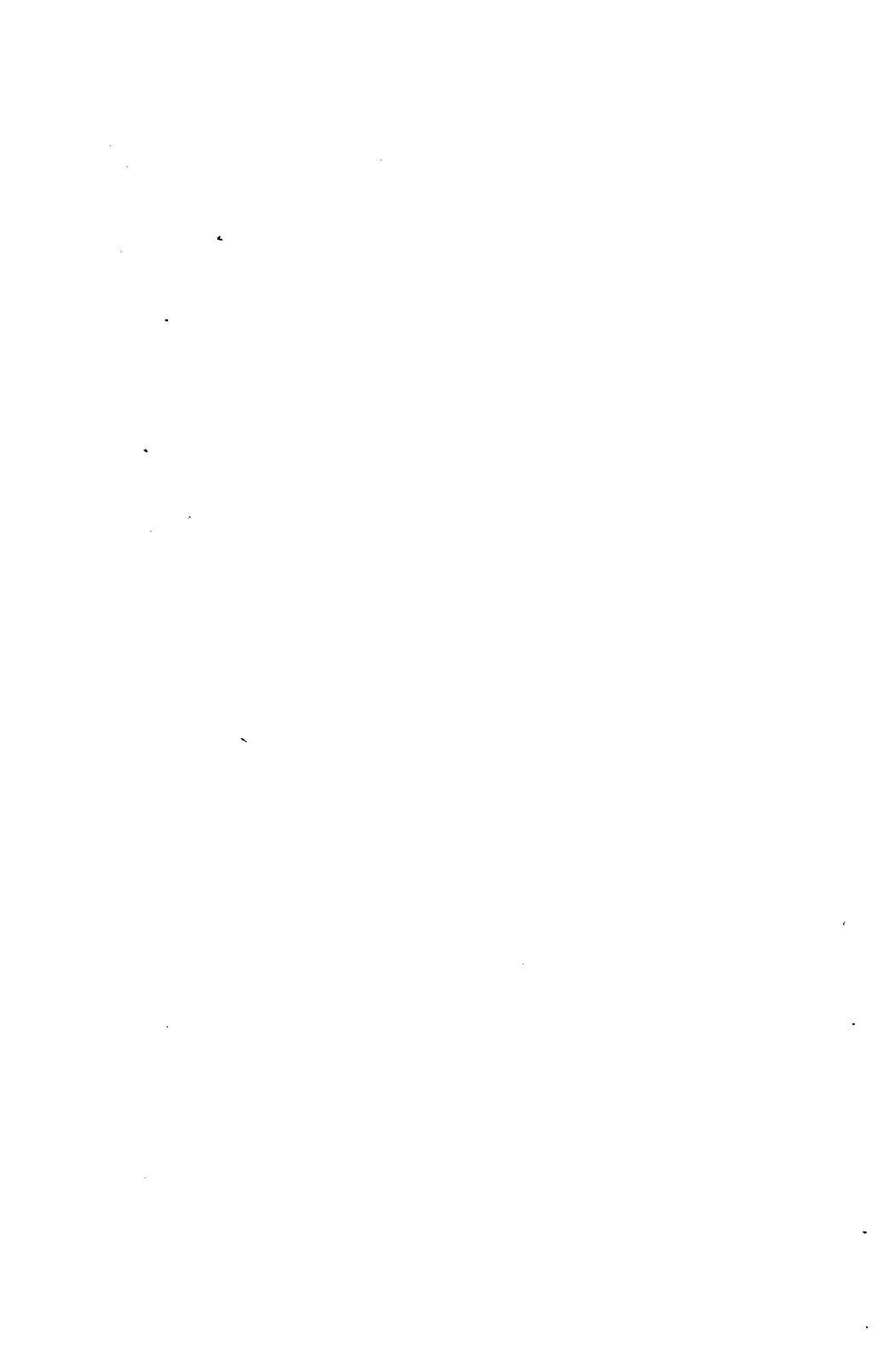
لاحظت إستير أن سير نعلها مقطوع. اقتربت منها الفتاة إلى أن لامستها، كانت عيناها تشعان بريق غريب، لكنّها لم تتكلم ولم تطلب شيئا. بقيت جامدة فترة طويلة ويدها على ذراع إستير، كأنها تريد أن تقول شيئا ما، ثم أخرجت من جيب سترتها كراسا جديدا وغلافا أسود من الورق المقوّى، وكتبت اسمها في الصفحة الأولى، في الأعلى، من

الجهة اليمنى، وبحروف البداية: ن ج م ة. مدّت كراسها وقلم الرصاص لإستير لتدوّن اسمها، بقيت برهة أخرى مسندة الكراس إلى صدرها، كأنه أهم شيء في الدنيا. رجعت أخيراً نحو فريق اللاجئين الذين كانوا يبتعدون، خطت إستير خطوة باتجاهها لمناداتها، لكنّ الوقت فات، صعّدت إلى الشاحنة وبدأ الموكب في السير وسط سحابة من الغبار.

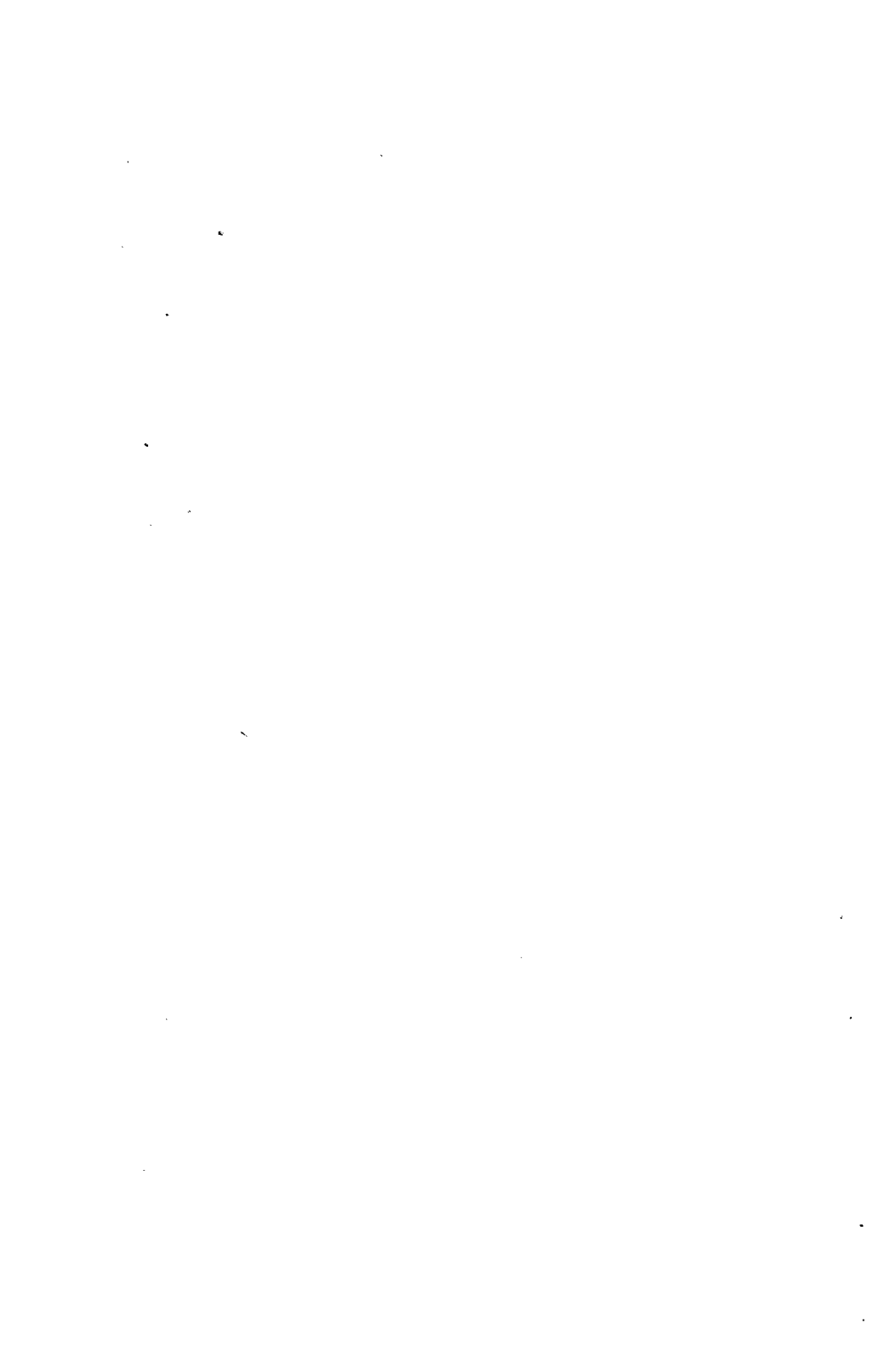
بيد أن إستير لم تستطع أن تمحو من ذاكرتها وجه نجمة، نظرتها، يدها الموضوعة على زندها، بطء حركاتها الرزينة وهي تمدّ الكراس الذي دوّنت فيه اسمها. لن تستطيع نسيان وجوه النساء، نظراتهنّ الحائدة، الخوف في عيون الأطفال، ولا ذلك السكون الذي خيم على الأرض في ظلّ الوديان، بالقرب من الجدول، طرحت السؤال على إليزابيث، «إلى أين يذهبون؟» نظرت إليها المرأة التي أزاحت الغطاء دون تعليق. كررت إستير «إلى أين يذهبون؟». هزت كتفيها، ربّما لم تفهمها. ردّت امرأة أخرى ترتدي الأسود، وكان وجهها شاحبا جدا: «إلى العراق» قالت ذلك بقسوة، ولم تجرؤ إستير على طلب شيء آخر. الحرب حرّبت الطريق. الغبار يصنع هالة صفراء تحت غطاء الشاحنة وإليزابيث تشدّ على يد إستير كعهدها في الطريق إلى فيستونا. قالت المرأة كذلك وهي تنظر إلى إستير كأنها تحاول سبر أفكارها: «لا يوجد أبرياء، إنهنّ أمهات وزوجات أولئك الذين يقتلوننا.» قالت إستير في سرها: «والأطفال؟» كانت العيون التي وسّعها الخوف في بالها، وكانت تعرف أن لاشيء يمحو نظراتهم.

وصل الموكب مساء إلى أورشليم، توقفت الشاحنات في ساحة كبيرة، لم يكن هناك جنود أو مسلحون، ماعدا النساء والأطفال الذين ينتظرون شاحنات أخرى. غابت الشمس، لكنّ المدينة بقيت تلمع. نزلت إستير وإليزابيث بحقيبتيهما. لم تعرفا إلى أين ستذهبان، كان

جاءك بيرجي قد ذهب إلى وسط المدينة. كان هزيم الرعد قريبا، وكل انفجار يزعزع الأرض، وكسنا نرى ومضات الحرائق. أمام إستير وإليزابيث جدار المدينة، الروابي المغطاة بالمنازل ذات النوافذ الضيقة، وربما الأطياف الخرافية للمساجد والمعابد. صعد من قلب السماء التي بلون الرصاص دخان أسود، اتسع مشكّلا سحابة متوعدة حيث يتدنى الليل.



نجمة



مخيّم نور شمس، صيف 1984

هذه ذاكرة الأيام التي عشناها في مخيّم عين شمس، كما عزمت على كتابتها، أنا نجمة، ذكرى لسعدي أبو طالب، البدوي، وعمّتنا حورية، ذكرى أيضا لأمي فاطمة التي لم أعرفها، ولأبسي أحمد. ألا تشرق الشمس على الجميع؟ أسمع هذا السؤال كل لحظة. مات الآن من صاغه منذ أكثر من سنة. دفن في قمة الرابية التي تشرف على المخيّم. ابناه هما اللذان حفرا الأرض بضربات المعزقة وألقيا بالحجارة في شكل كومين متساويين من كل جهة، ثم أنزلاه مكفنا في غطاء سرير قديم خاطاه بنفسيهما، لكنّه كان قصيرا. وكان جسد الشيخ المتصلب غريبا في هذا الغطاء الذي خرجت منه قدماه الخافيتان وهو ينزل إلى القبر. أهال ابناه التراب بالمعزقة، وقد ساعدهما الصغار بأقدامهم، ثم وضعوا فوقه الحجارة الكبيرة حتى لا تنبش القبر الكلاب الضالة.

أمّا أنا فأفكر في الحكايات التي كانت تقصها علينا عمتي في الأيام المطرة، الأغوال والذئاب الجائعة التي تأكل الأموات. كانت عمّة حورية تحبّ رواية الحكايات المرعبة عندما تتلبد السماء، حكايات الشياطين والأشباح. كنت أفكر في هذا لما توفي العجوز ناس، في صوت عمّة حورية وهي تقص مع نزول المطر، قبل أن أشعر بالحزن لموته. لما جاء العساكر إلى بيته لأخذه إلى المخيّم، قال لهم الشيخ ذلك، ولم يتوقف من وقتها عن معاودة السؤال. لا بدّ أن العساكر لم يفهموه،

وربّما أضحكهم ذلك لو أنهم فهموه: «ألا تشرق الشمس على الجميع؟».

أخذ مخيّمنا أكثر من نصيبه من الشمس في هذه الصائفة عندما تشققت الأرض وجفت الآبار الواحدة تلو الأخرى. مات الشيخ ناس في نهاية الصيف، عندما بدأت الحمص تشحّ. كان الناس ينتظرون وقتها ساعات على رابية الحجارة، في أعلى المخيّم، وصول شاحنة الأمم المتحدة، لأنّها الجهة التي نرى منها طولكرم بشكل أفضل.

نعرف مسبقا وقت وصول الشاحنة لأننا نرى في أعلى الرابية سحابة من الغبار في جهة الغرب، بناحية زيتا. يبدأ الأطفال وقتذاك في الهتاف والغناء. يهتفون ويغنون الكلمات نفسها دون توقف، «الدقيق!... الدقيق!... الحليب!... الدقيق!...» وبعد ذلك ينزلون الربوة راكضين إلى مدخل المخيّم ويدقون بعصيّ على دلاء البنزين الفارغة، أو على علب المصبرات القديمة، يحدثون صحبا كبيرا بحيث يلعنهم الشيوخ وتبدأ الكلاب الضالة في النباح.

بمقدور الشيخ ناس سماعهم الآن من أعلى ربوته، إنّه أول من يعلم بقدوم الشاحنات التي تأتي بالدقيق والزيت والحليب واللحم المحفف. ربّما بقي على قيد الحياة لو أنّه صعد مع الأطفال إلى أعلى ربوة الحجارة. أما في الأسفل فالصخب يأتي من كل الجهات، صخب الناس الذين يئسوا، ذاك ما سمعه، وذاك ما أكل قلبه، ولذلك لم يعد يرغب في الحياة. مات تدريجيا، مثل نبتة تحفّ.

جاء ضحيج الكلمات، في بداية الأمر، من جنين، ثم انتشر في كل المخيّمات، في الفارعة، في بلاطة وفي عسكرة: الأمم المتحدة تتخلى عنّا، لن يمنحونا مؤونة، ولا أدوية، وسنموت كلنا. سيموت الشيوخ أوّلا لأنهم الأكثر هشاشة، النساء المسنات والرّضع الذين فطموا لتوهم،

الواضعات والمصابون بالحمى، ثم يموت الشباب، الأقوياء منهم والأكثر شجاعة. سيغدون مثل شجيرات جففتها ريح الصحراء، وسيموتون. هكذا قرر الأجانب أن نحتفي من سطح الأرض إلى الأبد.

حسان وسعيد، ابنا ناس، قويان ورجوليان، لهما قامة سامقة وأرجل عاضلة ووجهان لفحتهما أشغال الحقول، ولهما نظرات مشتعلة. لكنّ الإشاعة ولجت أعماقهما مع صخب الأصوات عندما دفن والدهما في الغطاء بأعلى ربوة الحجارة، ما عادا ينتظران الآن قدوم شاحنات الأجانب، ربّما يكرهاها. ربّما خجلا من وصولهما إلى ما هما عليه، شحاذين يستجديان القوت على أبواب المدن.

بدأ مخيمّ نور الشمس يغرق تدريجيا في الهمّ. لم نكن نعرف، عندما وصلنا في الشاحنة المغطاة للأمم المتحدة، أنّ هذه الرقعة ستكون حياتنا الجديدة. كنا نعتقد أننا سنمكث يوما أو يومين قبل الانطلاق مجددا. بمجرد توقف القصف والمعارك سيمنح الأجانب لكل منّا قطعة أرض، حديقة نزرعها وبيتا يمكننا العيش فيه كما كنا. كان لابني العجوز ناس مزرعة في طولكرم. تركا كل شيء، الدواب، الأدوات، وحتى احتياطات الحبوب والزيت، وتركت زوجاتهما الأدوات المنزلية وبيضاهنّ.

كانا يعتقدان بدورهما أنّهما سيذهبان ليوم أو يومين ريثما تستوي الأوضاع. أوصى ولدا ناس جارهما الراعي، الذي لا ينتمي إلى الموكب الذي تمّ تهجيرهم، بحراسة البيت أثناء غيابهما، بصد الآخريين عن سرقة الدجاج وبسقي الماعز والبقر، ولتعويضه منحاه أكبر عنزة في القطيع، تلك العاقر التي جفّ ضرعها.

عندما صعدا إلى الشاحنة نظر إليهما الراعي البدوي وهما يرحلان، كانت عيناه ضيقتين كصدعين في وجهه، وعنزته المسنة

المغيرة مربوطة بجبل تحاول رعي جريدة في الطريق. كانت تلك آخر صورة حملها عن بيتهما المولدي، ثم أخفت الشاحنة السائرة كل شيء في سحابة من الغبار.

أنظر إلى المخيم من أعلى ربوة الحجاراة وأنا جالسة على صخرة، غير بعيد عن المكان الذي دفن فيه الشيخ ناس. هل كان يفكر في هذه الربوة عندما كان يقول: ألا تشرق الشمس على الجميع؟ لا يتوقف الضوء هنا عن إشعال امتدادات الصحراء. ضوء الشمس من القوة بحيث تبدو الروابي الأخرى، من جهة يعبد وجنين، تتقدم مثل أمواج.

هناك في أعلاي ممرات المخيم المستقيمة، أصبح مع الأيام سجننا، وقد يغدو مقبرتنا، من يدري؟ يبدو مخيم نور شمس، الذي يحده من الشرق مجرى الوادي الجاف، رقعة معتمة بلون الصدا والوحد ينتهي إليها طريق الغبار. هنا، في أعلى الربوة، وفي صمت الظهرية، أحب أن أتخيل سقوف عكا، كل أنواع السقوف المسطحة، القباب، الأبراج العالية والأسوار القديمة في أعلى البحر حيث نرى النوارس تحلق في الريح، وأشرفة سفن الصيد الرشيقة. أفهم الآن أن لاشيء من هذا سيكون لنا.

عكا، ذات يوم، عندما كان الجنود العرب بأسمال، الرأس مدمى والأرجل ملفوفة في حرق، بدلا من الضمادات، مجردين من السلاح وقد حفر الجوع والظما وجوههم، كان بعضهم أطفالا، لكنهم أصبحوا رجالا جرأ التعب والحرب، وحشد النساء والأطفال والكسيحين الذي يتمطى إلى الأفق. لم يجروا على عبور الأبواب عندما أدر كوا أسوار عكا، لكنهم تمددوا على الأرض في حقول الزيتون بانتظار أن يمنحهم الماء والخبز وقليلًا من اللبن الحامض.

كان الوقت ربيعاً، وكانوا يروون ما جرى في حيفا، يتحدثون عن المعارك في الشوارع الضيقة، عبر السوق المغطاة للمدينة القديمة، عن كل الأجساد الممددة على وجوهها أرضاً. مشى الناس حينها باتجاه عكاً طيلة النهار بمحاذاة البحر، على الشاطئ الرملي الفسيح، إلى أسوار مدينتنا وقد لفتحتم الشمس والريح.

أتذكر بأنني همت في ذلك المساء مرتدية فستاناً طويلاً، ملفوفة في حمارات، محنية وفي يدي عصا للإيهام بأنني عجوز تبحث عن قليل من القوت، لأنهم كانوا يقولون في المدينة إن قطاع الطرق يختفون ما بين الفارين ويغتصبون الفتيات.

رأيت كل أولئك الناس الممددين على الأرض، ما بين الجوانب وأشجار الزيتون، الشبهين بآلاف الشحاذين. كانوا منهوكين، لكنهم لا ينامون وقد اتسعت عيونهم بسبب الحمى والظما. استطاع بعضهم إشعال نيران تلمع على فترات في الضوء الخافت للغسق وتضيء وجوههم المهزومة. شيوخ ونساء وأطفال.

على مرمى البصر، على الرمل والكثبان كان هؤلاء الناس، كأنما ألقوا بهم على الأرض. لم يكونوا متذمرين، ولم يكونوا يتكلمون. وكان ذلك السكون أكثر رعباً من الصراخ والأنين. كان هناك أحيانا تباكي طفل، لا غير، يتهمع ويسكت، وصوت البحر على الشاطئ، انتشار الأمواج العاتية التي تلامس القوارب الجانحة.

مشيت فترة وسط هذه الأجساد، وإذا أشفقت عليها كثيراً، نسيت التظاهر بهيئتي التي تشبه عجوزاً متسولة. فقدت الشجاعة بغتة وعدت إلى المدينة، أراد رجل مسلح أن يعترض سبيلي وسألني بقسوة: «إلى أين أنت ذاهبة؟» ذكرت اسمي وبيت أبي، أضاء وجهي بمصباح يدوي وسخر مني. قال لي ماذا تفعل خارجاً

فتاة في سنك. ذهبت دون الرد عليه. استحييت بسبب كل ما شاهدته.

سمعت بعد ذلك فرقة الأسلحة حول المدينة، طلقات المدفعية التي تلهب الأرض لما أعلن الدروز الحرب على الهاغانا قبل الصيف، ليلا هارا. ذهب حينها الرجال المؤهلون إلى الحرب، وذهب أبي معهم نحو الشمال. فوضني على البيت، باركني وذهب. اعتقد هو الآخر أنه سيرجع قريبا، ولم يعد أبدا. علمت أنه قتل أثناء قصف النهارية.

ثم جاءت الشاحنات المغطاة لتأخذ المدنيين إلى مأمّن هناك، وجاء الجنود واستقروا بيتنا، وركبت أنا في الشاحنة. القوافل المغطاة تسير أمام أبواب عكّا تحت نظرات أولئك الذين لم يرحلوا. كانت الشاحنات تسير في كل الاتجاهات، نحو القنطرة، نحو النبطية، أو نحو جنوب غزة، أو باتجاه طولكرم وجنين ورام الله. قيل إن هناك من يذهبون إلى مدينة سات وإلى عمان، في الجهة الأخرى من نهر الأردن. لم نكن نعرف أنا وعمّة حورية إلى أين سنذهب، لم نكن نعرف أننا سنلتحق بالأجساد المطروحة التي شاهدتها على الأرض، وتحت الحواجز ذات مساء.

لا بدّ أنّ محيّم نور شمس هو نهاية الأرض، لأنّي أرى أنه لا يمكن أن يوجد شيء بعد، وأنّه لا يمكن أن نأمل في شيء مطلقا. لقد تراكمت الأيام. أصبحت أشبهها، الغبار الدقيق الذي لا يأتي من جهة معينة، خفيّ وغير محسوس، لكنّه يغطي كلّ شيء، الملابس، سقوف الخيام، الشعر، البشرة، غبار أحس بعينه، يختلط بالماء الذي أشربه، غبار أحس بمذاقه في الطعام، وعلى لساني عندما أستيقظ بعد منتصف الليل. هناك ثلاث آبار في عين شمس، ثلاثة ثقوب حفرت في مجرى الوادي، محاطة بدوائر من الحجارة المسطحة ومغطاة بألواح خشبية

قديمة. أحمل الدلوين فجرا، عندما تكون الشمس محتبئة خلف الروابي
والسماء شاسعة وصافية، لأبحث عن الماء. ماء الليل لازال باردا،
صافيا، الماء الذي لم يعكره أحد. لقد تشكل الطابور المديد للنساء
والأطفال المتوجهين نحو الآبار.

لما وصلنا في البداية إلى المخيم، كان هناك صخب الأصوات
والضحكات، كما في أية جهة أخرى من العالم، في بقعة لا حروب
فيها ولا سجون. تحصل النساء على الأخبار من هذه وتلك، يذعن
الأقارب ويخترعن حكايات، كأن شيئا لم يكن، كما لو أنهن في رحلة،
وكما لو أنهن سرجعن قريبا إلى بيوتهن.

كنّ يسألن: «من أين أنت؟» فتذكر الأصوات الجهورية أسماء الجهات
التي ولدن فيها وحيث تزوجن وولد أبنائهن: قلقيلية، يافا، قاقون، شفا
عمرو، وأسماء الناس اللائي عرفتهم، الطرق القديمة في عكا، القدس، نابلس،
حمزة الذي يعيش قريبا من مغارة الأولياء، مليكة، أم الاسكافي التي كانت لها
دعامة بمحاذاة كنيس الحاخام يوخنان، وعائشة التي كانت لها ثلاث بنات،
وكانت تعيش قرب كنيسة المسيحيين الكبيرة، قريبا من القلعة التي نصّب
فيها مدافعه كلوب الباشا. أسمع هذه الأسماء، مخلد، جيبا، فيسارية،
الطنطورة الياجور، الجعارة، نظيرة، جيت، اللد، رام الله، كفرسابا،
راس العين، عسقلان، غزة، طبرية، رمانة، عرعره، كل هذه الأسماء التي
ترنّ بغرابة في الهواء البارد حول الآبار، كأنها غدت في عالم آخر.

كانت عمّة من التعب بحيث لم تأت لسماع هذه الأسماء قرب
الآبار. لما كنت أعود وقتذاك بدلوي الماء أضعهما أمام باب كوخنا
وأقص عليها كلّ ما سمعته، بما في ذلك الأسماء التي لا أعرفها. كانت
تستمع إلى كل ذلك وتهزّ رأسها، كأنّ لذلك دلالة عميقة لا أستطيع
فهمها. كانت لي ذاكرة استثنائية.

كان ذلك في البداية لأنَّ صخب الأصوات تناقص فيما بعد تدريجياً، مع تناقص ماء الآبار التي غدت وحلة. يجب أن نترك الآن الماء يتصفى في الدلاء ساعة أو ساعتين قبل صبّه في الجرار بإمالة الدلو بحذر حتى يبقى الحمأ في القاع. كانت الشمس وقتها تشرق على أرض أكثر وعورة واحمرارا وتفحما، مع أدغال الشوك القاحلة وأشجار السنط التي لا تقدر على توفير الظلّ، الوادي الجاف، منازل الألواح الخشبية والورق المقوّى، الحّيّام الممزقة، الملاجئ المصنوعة من قصدير السيارات، دلاء البنّـزين وقطع الأطر المطاطية المربوطة بالسلك التي تقوم مقام السقوف.

كانوا كلهم ينظرون، كلهم يتطلعون صباحا إلى شروق الشمس على الروابي بعد الصلاة، ماعدا العجوز ليلي التي كانت تحمل قدرها في عينيها لأنّها كانت عمياء، وكانت عيناها البيضاوان لا تستطيعان رؤية الشمس. تطلّ جالسة على صخرة كبيرة أمام المغارة وهي تتمتم صلوات وشتائم منتظرة أن يأتيها أحد بماء وطعام، وكان كل واحد يعرف أنّها ستموت يوم تنسى. قتل كل أبنائها أثناء احتلال حيفا، وبقيت وحدها في الدنيا.

كفّ الأطفال عن الجري والصراخ والعراك في ضواحي المخيم. إنهم يمكثون اليوم جالسين حول الأكواخ في ظلّ الغبار، سغبين وشبهين بالكلاب، ينتقلون مع حركة الشمس. ماعدا عندما يقترب وقت توزيع الغداء وقد بلغت الشمس السمّت.

كنت أراهم آنذاك، وكان ذلك مرآة لضعفي وتدهوري الشخصي. جعلت شيخوخة غامضة ملامح الطفولة لدى كثير منهم، لاسيما الفقراء ويتامى الأب والأم، أو أولئك الذين فرّوا من قرى الشاطئ تحت قصف القنابل، بلا أموال وبلا مؤونة. الفتيات الصغيرات

النحيلات ذوات الأكتاف المدببة والأجساد الساجحة في فساتينهن
الواسعة بالنسبة إليهن، الأطفال الصغار نصف العراة ذوو الأرجل
المقوسة والركب المتورمة والبشرة الشهباء القائمة ذات اللون الرمادي،
وفروة الرأس التي أكلها القرع، والعيون التي غزاها الذباب الصغير.

الوجوه بخاصة هي التي كنت أنظر إليها، أثبت بصري عليها لأنني
لم أكن أحب رؤيتها: التعابير التي لم أستطع فهمها، نظراتهم التائهة،
البعيدة، الغريبة حيث يشع ضوء الحمى. وإذا كنت أمشي في شوارع
نور شمس بلا هدف، بلا تبصر، وأنا أجنب المنازل والحيطان المصنوعة
من الورق المقوى المزفت ومن الألواح الخشبية القديمة، أرى وجوه
أولئك الأطفال في كل مكان، تلك النظرات التائهة البعيدة التي كانت
تتسلط عليّ. أرى وجهي كما في المرآة، ليس وجه فتاة في السادسة
عشرة بجمال غامض تستفهمه عيون الشباب بفارغ صبر، بل وجه
امرأة عجوز مجمد، ذابل، سوّده الهمّ وجففه الموت الوشيك.

ذلك الوجه هو الذي أراه حيث يمتد في المخيم، وجهي ويدي
النحيلتين حيث تنبتق الأوردة، وطيف جسدي الهش، المائل كالظلّ.
الآخرون يغضون البصر، بل العكس، ينعمون النظر دون أن يظرفوا في
ظلّ خيامهم، كما من قاع كهف، دون تعليق، ولكن بنوع من الجنون
الأخرس.

توقفت النساء عن الحديث حتى في الآبار. لا يشتكين، لم يعدن
يتلفظن بأسماء المدن والناس الذين اختفوا، ومع الجفاف انخفض الماء في
قيعان الآبار، وكان الدلو المتأرجح في الحبل يكشط قعرا طينيا قريبا من
السواد.

أصبح الماء من الندرة بحيث لم نعد قادرين على الاغتسال، ولا
على غسل الملابس، كانت ثياب الأطفال ملوثة بالبراز، بالطعام

وبالتراب، وغدت فساتين النساء صلبة من الأوساخ، شبيهة باللحاء. كانت تفوح من النساء ذوات الوجوه السود والشعر المشبك رائحة جيفة تغثيني، كنا نفتسم وقتها بيتنا مع فلاحه مسنة من الساحل (من الزرقاء). أصبحت لا أطيق رائحة المرأة المسنة واعتدت على النوم خارج الدار، في الغبار، ملفوفة في نسيج كتّاني.

لا أشعر بالسعادة إلا عندما أستطيع الابتعاد عن المخيم. أتسلق في الصباح الباكر إلى أعلى ربوة الحجارة، إلى ضريح الشيخ ناس. رأيت في أحد الأيام، ولأول مرة، حيوانا يموت عطشا، كانت كلبة سعيد البيضاء، سعيد أصغر أبناء ناس، كنت أعرف الكلبة جيدا لأن الشيخ ولع بها في نهاية حياته، كانت كثيرا ما تبقى مستلقية إلى جانبه، القائمتان الأماميتان ممددتان والرأس منتصب. يبدو لي أنها لم تكن تحمل اسما، لكنّها تتبع الشيخ حيث ذهب. عندما مات تبعته الكلبة إلى القبر، في أعلى الربوة، ولم تنزل إلا في اليوم التالي، ومنذ ذلك الوقت أصبحت تصعد إلى أعلى الربوة وتنزل مع مجيء الليل.

بيد أن الماء غدا نفيسا، وكانت على وشك الموت إذ صادفتها ذات صباح تلهث بقوة لأتني سمعتها من أسفل الدرب. تشبه بقعة بين أدغال الشوك في ضوء الشروق، نحيلة ومترهلة. دنوت منها إلى أن لامستها، لكنّها لم تميّزني. كانت قريبة من الموت، عيناها كابتان، تملكّت جسدها قشعريرة وخرج من فمها لسأها المنتفخ.

مكثت جالسة قربها إلى النهاية، في الوقت الذي غدا ضوء الشمس باهرا. فكّرت في ما قاله الشيخ ناس، في ذلك السؤال الذي كرّره مرارا، مثل لازمة: «ألا تشرق الشمس على الجميع؟» كانت الشمس وقتها في كبد السماء، تلهب الأرض التي بلا أمل، تلهب وجوه الأطفال، تلمع بقوة على شعر الكلبة التي تحتضر.

لم أشعر أبدا بهذا من قبل، بما يشبه اللعنة، بهذه القوة القاسية على أرض تنكسر فيها الحياة وتُهرَب، حيث تأخذ كل بداية يوم جديد شيئا من اليوم الذي مضى، حيث المعاناة ثابتة، عمياء، لا يمكن فهمها، كما لا نفهم غمغمات العجوز ليلى في مغارتها.

لهذا طلب مني سعدي أبو طالب، البدوي، الذي غدا زوجي لاحقا، ذاك الذي لا يعرف القراءة والكتابة، لما علم بأني درست في مدرسة الجزائر، أن أكتب كل ما نعانیه هنا في مخيم عين الشمس، حتى يصبح معلوما، حتى لا يجرؤ أحد على نسيانه. أنا استمعت إليه، ولذا كتبت الحياة يوما بعد يوم في كراريس المدرسة التي جلبتها معي. والدي أحمد هو الذي كانت له إرادة تعليمي القراءة والكتابة مثل ولد، قبل الذهاب إلى الشمال الذي لم يعد منه أبدا. فعل ذلك لأتعلّم قراءة سور القرآن، ولأحسب وأحلّ تمارين الهندسة كما يفعل ذلك أيّ ولد آخر. هل فكر بأني سأستعمل الكتابة لملء كراريس ذاكرتي. يبدو لي أنّه كان سيستحسن هذا، لهذا استمعت إلى ما قاله سعدي البدوي.

وأكتب أيضا من أجلها، من أجل تلك التي دوّنت اسمها في أعلى الكراس، في طريق نبع اللطرون، إستير جريف، على أمل أن تقرأ هذا وتأتي لزيارتي. جاءت في ذلك اليوم وقرأت مصيري على وجهها. اجتمعنا لحظة واحدة، كما لو أننا كنا نلتقي دائما. لما أنتهي من كتابة هذه الكراريس سأقدمها لجنديّ من جنود الأمم المتحدة ليسلمها لها، هناك حيث وجدت. لهذا أملك قوة الكتابة، رغم الوحدة والجنون اللذين يحيطان بي.

تحدثت عن موت الكلبة البيضاء، عن معاناتها المستمرة أثناء صعود الشمس القاسية إلى السماء، في أعلى ربوة الحجارة، لأتني رأيت الموت لأول مرّة. رأيت من قبل في عكا رجلا ونساء ميتين، ممددين على

حصائر بيضاء ناصعة، أمواتا يبدون نائمين في أغطية أسرة ناصعة
البياض، غاية في النظافة، تلك التي ستخاط عليهم وعيونهم مغمضة.
كانوا معلّمين ببقعة باهتة، وكانت شفاههم مشدودة، مثبتة بخيط ناعم
يحيط بالفكين ويضللّ في الشعر، مثل عمّي رايسة وجدّي محمد،
الباردين، الجامدين، المرتبكين قليلا، كما لو أنّهما لم يتعوّدا بعد على
الموت.

ثم التوابيت التي توضع في القبور والرأس إلى الجنوب، وعمل
الحفارين والعويل الحاد للندابات المحترقات. في البداية، رحل الشيخ ناس
دون أن يكتثر له أحد، ولم أر منه سوى ذلك الشكل الملفوف في
غطاء قدم وقصير جدا، وقدميه الخافيتين الخنيتين باتجاه عمق التراب.

أمّا الكلبة البيضاء فقد ماتت فعلا، أبصرت رعب نظرتها المائية،
عينيها الكايبتين، سمعت جهد نفسها الذي لا يرغب في التوقف،
أحسست بقشعريرتها المديدة المؤلمة تحت يدي، ثم سكون جسمها
البارد، في الوقت الذي كانت الشمس تضيء بلا شفقة شعرها المليء
بالغبار. عرفت عندئذ أن الموت دخل إلى مخيمها، ستأخذ الآن
الحيوانات الأخرى، الرجال، النساء، الأطفال، الواحد تلو الآخر.

جريت وسط الأدغال إلى أعلى الربوة أين نبصر طريق عتيل
وطولكرم، روابي جنين، البقعة السوداء للوادي الجاف، وكل ما
أصبح عالمنا الآسر. لماذا نحن هنا؟ لماذا لا نذهب، نعبّر التلال باتجاه
الغرب، نحو البحر علّه ينقذنا؟

قدم أغلب سكان مخيم نور شمس من الجبال، عاشوا في تلك
الروابي المغروسة بالأشجار الشائكة حيث تتقدم ببطء قطعان الماعز
التي يرعاها ولد. لم يعرفوا أكثر من هذا، ولم يحدث لهم أن شاهدوا
البحر. عمّة حورية نفسها لا تهتم بهذا.

أما أنا فولدت في عكا، أمام البحر، وكبرت هناك على الشاطئ، في جنوب الحيّ، أستحم في الأمواج التي تأتي إلى حدّ الحواجز، قريبا من حصن الإنجليز، أو تحت أسوار حصن الفرنسيين، مترقبة أشرعة الصيادين الماضية، حتى أكون أوّل من تتعرف وسط الأطفال إلى سفينة أبي. يخيّل إلي أنّي لو استطعت رؤية البحر مجددا لما كان للموت قيمة، لما كانت له سلطة عليّ، ولا على عمّة حورية، ولما كانت الشمس بهذه القسوة، ولما نزعت الأيام تنفس الأيام الماضية، لقد حرمت اليوم من كلّ هذا.

عندما أركبنا الجنود الأجانب في الشاحنات المغطاة لنقلنا إلى هنا، إلى طرف الدنيا، إلى هذا المكان الذي لا يمكن أن نذهب أبعد منه، فهمت أنّي لن أرى أبدا ما أحببته. أين هي أشرعة السفن التي تنزلق على الماء صباحا، محاطة بالنوارس والبجع؟

أبصرت شيخوختي ونهايتي في نظرات الأطفال المرميين تحت ظلّ الأكواخ جامدين، شبيهين بكلاب ضالة لا أحد يهتم بشأنها. وجهي الهزيل المجدد ذو البشرة الباهتة، شعري الذي كان جميلا في ما مضى، الذي كان يغطي ظهري إلى الخاصرة كمعطف حريري وغدا كما هذا الدغل الموحل المليء بالغبار والشوك، الذي أكله القمل، وجسدي الذي أصبح خفيفا، واليدان والقدمان القدرّة التي خرجت منها عروق كالتّي في أيدي النساء المسنّات وأرجلهن. كل يوم يمرّ في نور شمس، وكل أسبوع يضيف رجالا آخرين ونساء أخريات وأطفالا آخرين.

أتذكر الآن كيف وصلت عمّة حورية، ولو أنّها لم تقدم لي شيئا، لأنّها وصلت بعد أيام مع اللاجئين القادمين من القدس، إلا أنّي كنت أناديها عمّة لأنّي أحببتها مثل قرية حقيقية. وصلت إلى نور شمس مثلي.

في شاحنة مغطاة من شاحنات الأمم المتحدة. كان متاعها الوحيد آلة خياطة. ولأنها لا تملك بيتا فقد أخذتها إلى كوخ الأخشاب حيث أعيش وحيدة، في جهة المخيم المقابلة لربوة الحجارة. بدت لي لما نزلت الأخيرة من الشاحنة أنها كما عهدتها، إلى النهاية، وقورة ولها هيئة جميلة في وسطنا نحن اللائي هدّتنا المحن. طيف مطمئن، مستقيمة جيّدا على أرضية الغبار.

كانت ترتدي اللباس التقليدي، جلابة الكتّان الطويلة الفاتحة والسرورال الأسود. كان وجهها محتجا بالأبيض، وكانت ترتدي صندلا مرصعا بالنحاس. جمع القادمون الجدد أمتعتهم وشرعوا في السير نحو مركز المخيم لإيجاد ملجأ يقيهم الشمس. سكن.

عادت شاحنة الأجانب المغطاة نحو طولكرم في سحابة من الغبار. بقيت جامدة، واقفة بالقرب من آلة الخياطة، كما لو أنّها تنتظر شاحنة أخرى لتأخذها بعيدا. اختارتني من بين الأطفال الذين كانوا ينظرون إليها، ربّما لأنّي كنت أكبرهم. قالت لي: «دليني على الطريق ابنتي.» قالت لي ذلك، نطقت اسم بنتي، ربّما سميتها عمّي لأجل ذلك، كأنّها جاءت لزيارتي في نور شمس، كما لو أنّني كنت أنتظرها.

أحببت وجهها في أوّل الأمر لما نزعتم حجابها في الكوخ، كانت بشرتها بلون النحاس الباهت وعيناها المزورورقتان تلمعان بغرابة، كما لو أنّ فيها شيئا خاصا عندما تنظر إليّ، شيئا مريحا ومربكا في آن

واحد، ربّما كانت تعرف كيف تنظر إلى ما وراء الأشياء والناس، كما يفعل بعض العميان.

استقرت عمّة في الكوخ أين أعيش وحيدة. طرحت آلة الخياطة الملفوفة بخرق بسبب الغبار، اختارت من البيت أقرب مكان إلى الباب، تنام على الأرض في غطاء سرير تلفّه حولها لتختفي كلياً. كانت تستعمل أحيانا خلال النهار، بعد الانتهاء من تحضير الأكل، آلة الخياطة لترقيق ثياب الناس الذين كانوا يجزونها بما تيسر، الطعام أو السجائر. أمّا الآن فهيهات. لأنّ المال هنا في مخيمنا لم يعد يصلح لشيء. كانت تفعل ذلك ما دامت تملك خيطا، وكانت النسوة يأتينها بالخبز والسكر والشاي أو الحليب. لكنهنّ لم يملكن أحيانا سوى الشكر، وكان ذلك يكفيها.

الأمسيات هي التي كانت جميلة بسبب الحكايات، تشرع عمّي أحيانا في سرد حكاية جنّ، هكذا، دون أن نعرف لماذا، في نهاية الظهر لما تأفل الشمس وتغيب خلف الضباب، ناحية البحر، أو بالعكس، لما تظرد الريح السحب وتتألق السماء مع هلال القمر المائل كالسيف. كانت تعرف ذلك، تحسّ به، إته المساء الذي تقصّ فيه. تجلس قبالي وتلمع عيناها بريق عجيب عندما تقول: «اسمعي، سأقص عليك حكاية جنّ.» إنّها تعرف الجنّ، لقد رأتها، إنّها شبيهة بلمعان أحمر، ترقص في ليل الصحراء ولا نراها في النهار مطلقا، تختبئ في وهج الضوء، لكنّها تعيد الظهور ليلا. تعيش في المدن مثل الناس، بأبراج وأسوار، مدن بأحواض ماء وبساتين. وحدها تعرف أين توجد هذه المدن، بل إنّها وعدتني باصطحابها إلى هناك بعد انتهاء الحرب.

كانت تبدأ إذن في سرد حكاية. تجلس أمام باب كوخنا ووجهها إلى الخارج، بلا حجاب، لأنّها لم تكن تسرد لي وحدي. كنت أجلس داخل البيت، في الظلّ، قريبة جدا منها لأسمع صوتها.

يصل عندئذ أطفال الجيرة الواحد تلو الآخر. يتخابرون ويجلسون أمام البيت وسط الغبار، أو يظّلون واقفين متكئين إلى جدار الألواح الخشبية. كان للعمّة حورية صوت آخر، صوت مختلف عندما تشرع في سرد حكاية جنّ. لم يكن صوتها المألوف، بل صوتا مخنوقا، أكثر خفوتا يجعلنا نصمت لنسمعها أفضل. لا يوجد أيّ صوت في المخيم مساء، كان صوتها مثل غمغمة، لكننا نسمع كلّ كلمة ولا ننساها. كان وجه عمّة حورية يتبدل بهدوء أيضا، وحتى أسمع جيّدا أتمدّد على الأرض قرب الباب وأرى وجهها ينتعش. عيناها تلمعان أكثر فأكثر وتقذفان بريقا، تومئ عبارتها، وتُظهر على وجهها الخوف والغضب والغيرة، تومئ الأصوات، خافتة أحيانا وخرساء، أو قصيرة وحادة، أو متأوّهة أحيانا. كانت يداها تشوران، كما لو أنها ترقص وهي تفخّم رنات الخلاخل النحاسية، بيد أنّ بقية الجسد تظلّ جامدة أثناء تربّعها على فتحة الباب.

كانت حكايات جميلة تلك التي تقصها عمّة حورية وهي جالسة في الغبار قدّام الباب في الوقت الذي يلين ضوء الشمس ويخف عبء النهار. حكايات تخيفنا، رجال يمسحون وهم يعبرون الوديان، أو أموات يخرجون من قبورهم للتنفس، حكايات الأشباح ومدن الأموات الضائعة في جهة ما من جهات الصحراء، والمسافر التائه الذي يغامر إلى هناك ولا يعود أبدا. حكايات الجانّ الذي يصبح زوج امرأة أو جنة تسطو على رجل وتجره إلى بيتها، في أعالي الجبال. هناك جانّ شيرير يدخل في أجساد الأطفال عندما تهبّ الريح ويجعلهم يفقدون العقل، يجعلهم يصعدون فوق البيوت كما لو أنّهم عصافير، أو يجعلهم يقفزون إلى قيعان الآبار كما لو أنّهم ضفادع.

كانت تقص علينا كذلك حكايات اللامة، لما فتنت الساحرة بيروت أمّ شاب وأوهمتها بألحانها.

غابت المرأة لحظة واستولت بيروت على ابنها لتضع بدله في المهدي
حجرا كبيرا ملفوفا في حرق، ثم طبخت الابن وقدمته لأمه. كانت
توضح لنا وقتها كيف نقاوم العين الشريرة بوضع اليد أمام الوجه
وكتابة اسم الجلالة على الجبين بماء ممزوج بالرماد. كانت توضح لنا
كيف نخيف الساحرات بنفث قليل من الرمل في اليد المفتوحة، كما
كانت تقص حكايات عائشة الأفريقية، القاسية السوداء المتكررة في
هيئة أمة، تلك التي تأكل قلوب الأطفال لتخلد.

وإذ كانت عمّة حورية تأخذني من يدي وتجلسني قريبا أمام البيت
وتقول: «ماذا أقص عليك هذا المساء؟» أجيبها في الحال: «حكاية من
حكايات العجوز عائشة الخالدة.»

أنسى من أنا وأين أنا، أنسى الآبار الثلاث الجافة، الأكواخ البائسة
حيث ينام الرجال والنساء على الأرض بانتظار الليل، بانتظار المجهول،
أنسى الأطفال الجياع الذين يترقبون وصول شاحنات الأمم المتحدة في
أعلى الربوة ويهتفون إذ يبصرون سحابة الغبار في الطريق: «الحبزي! الدقيق!
الحليب! الدقيق!» وذلك الحبزي الذي يتم توزيعه آنذاك، يابس ومرّ، بمعدل
قطعتين للشخص يوميا، وأحيانا قطعة واحدة، أنسى الجراح التي تغطي
أجساد الأطفال، لدغات القمل والبرغوث، الأكعاب المشققة، الشعر
الذي يسقط في شكل لفائف، الرمّد الذي يلهب الجفون.

حكايات عمّة حورية ليست دائما من أجل تخويفنا، كانت تقول
حين تلاحظ أننا مرهقون، وأنّ الأطفال متعبون وقد حفر الجوع
وجوههم، وأنّ هب الشمس لا يطاق: «اليوم يوم حكاية ماء، حكاية
حديقة، حكاية مدينة ذات ينابيع تغني وبساتين مليئة بالطيور.»

كان صوتها أكثر دفئا، وكانت عيناها تلمعان بوميض أكثر غبطة
حينما تبدأ الحكاية: تعرفون، لم تكن الأرض في قدم الزمان كما هي

الآن. كانت الجنّ تعمّر الأرض مع الناس، والأرض مثل حديقة كبيرة محاطة بنهر سحري يستطيع الجري في اتجاهين، يسيل من ناحية باتجاه الغروب، ومن الناحية الأخرى باتجاه الشروق. وكان ذلك المكان رائعاً، لذلك سمّي الفردوس، الجنة. تعرفون، لم يكن بعيداً من هنا كما قيل لي. كان على شاطئ البحر، قريباً جداً من مدينة عكّا. هناك قرية صغيرة لازالت إلى اليوم تحمل هذا الاسم، الجنة، ويشاع أنّ كلّ سكان هذه القرية من سلالة الجن. هل هي حقيقة، هل هي وهم، ليست لي إجابة. يبقى أنّ هذا المكان ربيع خالد، حدائق مليئة بالزهور والفواكه، بالينابيع التي لا تنضب أبداً. لم يكن الغذاء ينقص الناس. كانوا يعيشون بالفواكه والعسل والأعشاب، لأنهم لم يعرفوا طعم اللحم. كان في وسط هذه الحديقة الكبيرة قصر رائع بلون السحب، وكان الجن يعيشون هناك لأنهم أسياذ هذه الأرض التي أكلها الله لهم. كان الجن آنذاك طيبين، لم يكونوا يسيئون إلى أحد، وكان الرجال والنساء والأطفال يعيشون في الحديقة حول القصر. كان الهواء منعشاً، والشمس من الرحمة بحيث لم يحتاجوا إلى بيت للاحتماء. لم يحدث أن وجد شتاء أو صيف.

سأحكى لكم الآن أيها الأطفال كيف ضاع كل شيء، هنا وجدت قديماً تلك الحديقة ذات الاسم الناعم، الفردوس، الجنة، لأنّ تلك الحديقة المليئة بالأزهار والأشجار حيث تعني الجدائل والعصافير دون توقف، تلك الحديقة التي عاش فيها الناس في وئام، لا يأكلون سوى الفواكه والعسل، هي الآن هذه الأرض التي بلا ماء، الأرض الوعرة العارية، التي لا شجرة فيها ولا زهرة، الأرض التي أصبح فيها الناس أشراراً يشنون حرباً وحشية ضارية، دون أن تساعدهم الجنّ.

تتوقف عمّة حورية عن الكلام ونبقى جامدين بانتظار الآتي. تذكرت حين كانت تقص الحكاية لما جاء الشاب البدوي، سعدي أبو

طالب أوّل مرّة إلى الخيمة، جلس على عقيبه، على الحياض قليلا لسماع ما تقوله عمّتنا. لزمّت هذه المرّة عمّة حورية الصمت طويلا حتى نسمع نبضات قلوبنا، الأصوات الخفيفة التي تأتي من البيوت الأخرى قبل الليل، أصوات الرّضع ونباح الكلاب. كانت تعرف قيمة الصمت.

وأردفت: «تعرفون، الماء هو الذي كان جميلا في الحديقة. ماء لم يحدث أن شاهدتموه أو تذوقتموه أو حلتم به. ماء من البرودة والصفاء بحيث يحافظ من يشربونه على شبابهم، لا يشيخون ولا يموتون أبدا. كانت الجداول تسيل عبر الحديقة وتذهب إلى النهر الكبير الذي يحيط بها ويسيل في اتجاهين، من الغروب إلى الشروق ومن الشروق إلى الغروب. كذلك كانت الأشياء في ذلك الوقت، وكان بإمكانها أن تستمر كذلك، كان يمكن أن نكون اليوم تحت ظلّ الأشجار، في هذه الساعة وأنا أحدثكم، نستمع إلى موسيقى الجداول وزقزقة العصافير لو لم يغضب الجان، أسياد هذه الحديقة، على الناس ولم ينضبوا الينابيع ويلقوا الملح في النهر الكبير الذي أصبح على ما هو عليه اليوم، مرّا وبلا نهاية.»

تتوقف حورية قليلا ونرى السماء تقتم تدريجيا، تصعد أدخنة هنا وهناك ما بين سقوف الأكواخ القصديرية، بيد أنّها غرّارة ووهمية، كنا نعرف ذلك جيّدا. أشعلت النساء المسنات النار لعلّي الماء، لكنهن لا يملكن شيئا آخر لإلقائه فيها، ماعدا بعض الأعشاب والجذور التي أخرجنها من الأرض في الروابي. لم يكن لأحريات ما تطبخه، غير أنّهن يشعلن النار بفعل العادة، كأنهن سيتغذّين بالبخار، مثل أشباح الحكايات التي تفصها علينا عمّة حورية.

تستمر في حكايتها، وحقق قلبي فجأة بسرعة لأنّي أدركت أنّها كانت تقصّ علينا حكايتنا الحرفية، هذه الحديقة، هذه الجنة التي أضعناها لما ضربنا حنق الجنّ.

«كيف غضب الجان على البشر، كيف خربوا هذه الحديقة التي كنا سنعيش فيها ربيعا أبديا؟ هناك من يقول إن ذلك بسبب امرأة أرادت الدخول إلى قصر الجان، وحتى تقوم بذلك أوهمت الناس بأنهم أقوى من الجان، ومقدورهم طردهم بسهولة من قصرهم ماداموا أكثر منهم عددا. وقال آخرون إن ذلك بسبب أخوين، اسم الأول سواد واسم الثاني صافي، ولذا من أب واحد ومن أمين مختلفين، وكانا يتباغضان. كان كل واحد منهما يريد الاحتفاظ لنفسه بحصة الحديقة. يحكى أنهما كانا يتعاركان بالأيدي منذ الطفولة. وكان الجان يضحكون لرؤية جهودهما ككباشين صغيرين يتجاهاان في الغبار. ثم كبرا وتقاتلا بالعصي والحجارة، واستمر الجان يضحكون عليهما ويسخرون منهما من أعلى أسوار قصرهم، قريبا جدا من السحب، كانوا يشبهانها بقردين.

لكنهما أصبحا يافعين، واستمر الآن القتال بالسيوف والبنادق. كان كلا الرجلين قويا وماكرا، يجرحان بعضهما بوحشية ويسيل دمهما على الأرض دائما، دون أن يعترف أيّ منهما بالهزيمة، وكان الجان دائما ينظرون إليهما من أعالي القصر ويقولون: ليتصارعا وليستفدا قواهما، سيصبحان بعد ذلك صديقين.

لكن عجوزا تدخلت آنذاك، يقولون ساحرة ذات وجه أسود ترتدي ثيابا رثة، وقد تكون عائشة لأنها كانت مسنة جدا وتعرف كل أسرار الجن، ذهب الأخوان لاستشارتها الواحد تلو الآخر ووعدها بمنحها ذهباً كثيرا لنصرتهما، فتشت الأمة العجوز في أغراضها وأعطت لكل منهما هدية. أعطت لسواد، أكبرهما، قفصا صغيرا به حيوان برّي ذو وجه أحمر يسطع بشكل غريب أثناء الليل، لم يحدث أن رأى أحدهم حيوانا يشبهه في تلك الحديقة. وأعطت للثاني الذي يسمّى

صافي حقيبة كبيرة من الفرو بها سحابة خفية وقوية، لأنه لم يكن آنذاك، في تلك الحديقة، لا نار ولا ريح.

وفي أوج الحقد، ودون تفكير، ألقيا على بعضهما هذين الشئيين المسحورين، عندما فتح القفص الصغير من كان يملكه، وثب الحيوان الرّبي ذو الوجه الأحمر خارجا واستولى في الحال على الأشجار والأعشاب وأصبح كبيرا جدا. فتح حينها الأخ الآخر حقيبة الفرو فخرجت من الحقيبة الريح التي نفخت في النار وحوّلتها إلى حريق عظيم أشعل المدينة كلها. أحرق اللهب الأحمر كل شيء، الأشجار، الطيور والناس الذين كانوا في الحديقة، ماعدا من وجدوا ملجأ في النهر الكبير. لم يعد الجان الآن يضحكون في قصرهم المخاط بالدخان الأسود. قالوا: «اللعنة عليكم أيها الناس، واللعنة على أجيالكم.» ثم هاجروا الحديقة المتلفة إلى الأبد، وقبل أن يذهبوا سدوا كل النيايح والجداول ليتأكدوا من أن لاشيء سينمو على هذه الأرض، ثم رموا جبلا كبيرا من الملح الذي أنكسر وانتشر في النهر. هكذا تحوّلت حديقة الفردوس إلى هذه الصحراء الجافة. وهكذا أصبح النهر الدائري مرّاً وتوقف عن السيلان في الاتجاهين، هنا تنتهي حكايي، منذ ذلك الوقت لم يعد الجان يحبون البشر، لم يغفروا لهم بعد، ولازالت العجوز عائشة تهيم على هذه الأرض، الأمة العجوز التي تمنح السلاح والموت لمن يستمعون إلى كلماتها. حفظنا الله من ملاقاتها في طريقنا يا أولاد.»

جاء الليل، قامت الآن عمّة حورية واتجهت نحو الآبار لإقامة الصلاة، وعاد الأطفال كلّ إلى بيته. بقيت أسمع، وأنا ممددة على الأرض، في مكاني قرب الباب، صوت عمّة حورية، خفيفا ومنظما كتنفسها. أشمّ رائحة الدخان في السماء، ورائحة الجوع، فكرت في الجان، كم بقي من وقت وهم يهملون البشر؟

قدمت رومية إلى مخيم نور شمس في أواخر الصيف. لما وصلت كانت حاملا منذ أزيد من ستة شهور. كانت امرأة شابة، فتاة تقريبا، ذات وجه ناصع البياض عليه آثار التعب، لكنّها حافظت على شيء طفولي يقويه شعرها الأشقر المقسم إلى ضفيرتين متناسقتين، وكانت عيناها اللتان بلون الماء، تنظران إليك بنوع من البراءة الخائفة، على طريقة بعض الحيوانات. تكفلت بها عمّة حورية في الحين. قادتها إلى بيتنا وأقامت هناك، في مكان العجوز التي وجدت مكانا في جهة أخرى. كانت رومية إحدى ناجيات ديريس. توفي زوج رومية هناك، وكذلك أبوها وأمها وحمواتها.

عشر عليها الجنود الأجانب تائهة في الطريق فقادوها إلى مشفى عسكري لأنهم اعتقدوا أنّها مجنونة، وربما أصبحت مجنونة منذ ذلك اليوم لأنّها اعتادت الجلوس في زاوية لمدة ساعات. أخذها الجنود إلى المخيمات قريبا من أورشليم، إلى الجلزون، إلى معسكر، إلى دير عمار، ثم إلى طولكرم وبلاطة، وهكذا انتهى بها الأمر إلى أن قادها الطريق إلى مخيمنا.

لم ترغب في بداية الأمر، عندما وصلت عندنا، في التخلي عن حجابها، ولو في البيت. كانت تظلّ جالسة قرب الباب بلا حركة، بحجابها الطويل الملطخ بالغبار الذي يلفّها إلى الركبتين، وكانت تنظر إلى الأمام مباشرة بعينين تائهتين. كان أطفال الحيرة يقولون إنّها مجنونة، وإذا مروا على الباب، أو يصادفونها في طريقهم، بمدخل المخيم، ينفثون الغبار في راحة اليد اتقاء سيء الطالع.

يتحدثون عنها وهم يتمنون، «هايله، هايله» أصبحت مجنونة، ويقولون أيضا، «خايفي» نوعا ما. في حين وجدت عمّة حورية الطريق. أتت رومية يوميا. هي التي كانت تقدّم لها الطعام. كانت

تأتيها في أول الأمر بجفنة من عجين الدقيق بحليب كليم، مثل صبي،
تمرّر إصبعها المبللة باللعباب على شفيتها الياستين لتشرع في الأكل.
تحديثها بهدوء، تهددها، ومع الوقت استيقظت رومية وبدأت تنتعش.
أذكر لما نزعت حجابها أول مرة، وجهها الأبيض الذي يسطع
تحت الضوء، أنفها الدقيق، فمها الطفولي، الأوشام الزرقاء على خديها
وعلى ذقنها، وخاصة شعرها الطويل السميك المليء بلمعان من النحاس
والذهب. لم أشاهد جمالا مماثلا، وفهمت لماذا سميت رومية، لأنها لم
تكن من سلالتنا.

توقفت نظرهما برهة عن إظهار الخوف، نظرت إلينا، عمّة حورية
وأنا، ولكن، دون أن تتكلم، ودون أن تبسم. إنها لا تكاد تتحدث،
ماعدا بعض الكلمات لتطلب ماء أو خبزا، أو جملة مفاجئة ترددها دون
أن تفهمها، جملة لم يكن لها معنى بالنسبة إلينا جميعا. أملها أحيانا وأمل
نظرهما التائهة فأصعد إلى أعلى الربوة الحجرية، هناك حيث دفن الشيخ
ناس، وحيث يعيش الآن البدوي في كوخ صنعه من الأفنان والحجارة،
أبقى مع الأطفال الآخرين، كأني أترقب وصول شاحنات التموين.
ربما كان جمال رومية هو الذي يطاردني، جمالها الهادئ الذي يبدو أنه
يعبر كل شيء ويفرغه من معناه.

عندما تصعد الشمس إلى كبد السماء وتسخن حيطان بيتنا مثل
جدران فرن، تغسل عمّة حورية جسد رومية بمنشفة مبللة بالماء. تذهب
كل صباح لإحضار الماء من الآبار لأنّ الماء كان نادرا وبلون الحمأ،
وكان يجب تركه طويلا ليصفى. كانت تلك حصتها للشرب والطبخ،
لكنّ عمّة حورية تستعمله لغسل بطن المرأة الشابة دون أن يعلم أحد.
كانت عمّة حورية تقول إنّ الصبي الذي سيولد لن ينقصه الماء لأنّه
يعيش من قبل، يسمع صوت الماء الذي يسيل على البشرة كالطر.

تأتيها في أول الأمر بجفنة من عجين الدقيق بحليب كليم، مثل صبيّ، تمرّر إصبعها المبللة باللعباب على شفثيها اليابستين لتشرع في الأكل. تحذثها بهدوء، تهددها، ومع الوقت استيقظت رومية وبدأت تنتعش. أتذكر لما نزعنا حجابها أول مرة، وجهها الأبيض الذي يسطع تحت الضوء، أنفها الدقيق، فمها الطفولي، الأوشام الزرقاء على خديها وعلى ذقنها، وخاصة شعرها الطويل السميك المليء بلمعان من النحاس والذهب. لم أشاهد جمالا مماثلا، وفهمت لماذا سميت رومية، لأنها لم تكن من سلالتنا.

توقفت نظرهما برهة عن إظهار الخوف، نظرت إلينا، عمّة حورية وأنا، ولكن، دون أن تتكلم، ودون أن تبتسم. إنها لا تكاد تتحدث، ماعدا بعض الكلمات لتطلب ماء أو خبزا، أو جملة مفاجئة ترددها دون أن تفهمها، جملة لم يكن لها معنى بالنسبة إلينا جميعا. أملها أحيانا وأملّ نظرهما التائهة فأصعد إلى أعلى الربوة الحجرية، هناك حيث دفن الشيخ ناس، وحيث يعيش الآن البدوي في كوخ صنعه من الأبنان والحجارة، أبقى مع الأطفال الآخرين، كأني أترقب وصول شاحنات التموين. ربّما كان جمال رومية هو الذي يطاردني، جمالها الهادئ الذي يبدو أنّه يعبر كل شيء ويفرغه من معناه.

عندما تصعد الشمس إلى كبد السماء وتسخن حيطان بيتنا مثل جدران فرن، تغسل عمّة حورية جسد رومية بمنشفة مبللة بالماء. تذهب كل صباح لإحضار الماء من الآبار لأنّ الماء كان نادرا وبلون الحمأ، وكان يجب تركه طويلا ليصفى. كانت تلك حصتها للشرب والطبخ، لكنّ عمّة حورية تستعمله لغسل بطن المرأة الشابة دون أن يعلم أحد. كانت عمّة حورية تقول إنّ الصبي الذي سيولد لن ينقصه الماء لأنّه يعيش من قبل، يسمع صوت الماء الذي يسيل على البشرة كالمنطر.

تنظيفها. لازالت الشمس باهرة خارجا، كان على المخيم عبء الغبار
والسكون. كنت قبل الليل في أعلى الربوة وأذناي مليئتان بخيرير الماء
وطنين صوت العجوز. ربّما توقفت عن مشاهدة المخيم بعينيّ. كأنّ
كل شيء تبدّل، كأنّي وصلت في الحال ولم أعرف بعد هذه الحجارة،
هذه البيوت السوداء، الأفق الذي تسده الروابي، وهذه الربوة الجافة
التي غرست فيها أشجار محترقة، إلى حيث لا يأتي البحر أبدا.

منذ وقت طويل ونحن مسجونون في هذا المخيم، أجد صعوبة في تذكر ما كانت عليه الأحوال سابقا، عكّا، الحرّ، رائحة البحر، صياح النوارس، القوارب المنزلفة عبر الخليج فجرا، الأذان غسقا في الضوء الخافت عندما أمشي قرب الأسوار وفي حقول الزيتون، كانت العصافير تحلق، طيور الترغل الكسلانة، طيور الحمام ذات الأجنحة الفضية التي تعبر السماء معا، تدور، تتأرجح ثم تذهب إلى الجهة الأخرى. كانت الشحارير ترسل أصواتا قلقة في الحدائق مع اقتراب الليل. ذاك ما فقدته.

يجيء الليل إلى هنا فجأة، بلا آذان، بلا صلاة وبلا عصافير. تتغير السماء الباهتة اللون، تغدو حمراء، ثم يصعد الليل إلى أسفل الوديان. لما وصلت في الربيع، كانت الليالي حارة وروابي الحجارة تنفث حرارة الشمس أثناء الليل. إننا الآن في الخريف، الليالي باردة، نحسّ بالبرد يصاعد من الأرض بمجرد اختفاء الشمس خلف الروابي. يتدثر الناس قدر استطاعتهم في الأغطية التي وزعتها الأمم المتحدة، في المعاطف الوسخة، بأغطية الأسرة، أصبح الخطب من الندرة بحيث لم نعد نشعل النار ليلا. كل شيء أسود، ساكن، بارد، إننا مهملون، بعيدا عن العالم، بعيدا عن الحياة. تبرز النجوم بسرعة في السماء، تصنع رسوماتها الرائعة، أتذكر في ما مضى وأنا أمشي في الشاطئ، رفقة أبي، أتني كنت أرى رسومات نجوم تبدو لي أليفة. كانت كأضواء المدن المجهولة المعلقة في السماء. يُظهر الآن ضوءها الشاحب البارد مخيمنا أكثر عتمة

وأكثر إهمالا. تقول عمّة حورية لما يكون القمر دائريا في الأماسي، وعندما تنسبح الكلاب: «الموت هو الذي يعبر.» في الصباح يذهب الرجال لرمي جثث الكلاب التي ماتت ليلا.

الأطفال يصخبون أيضا في الليل. أحس بقشعريرة تسري في جسدي. هل يجب الذهاب صباحا للبحث عن جثث الأطفال الذين ماتوا ليلا؟

استقر البدوي، المسمّى سعدي، في ربوة الحجارة، قريبا من المكان الذي دفن فيه الشيخ ناس منذ أكثر من سنة خلت، بني ملجأ بأغصان قديمة وقطعة من قماش الكتان. يظلّ هناك ليلا فمارا ينظر إلى طولكرم، ولا يكاد يتحرك. يصعد الأطفال كل صباح لرؤيته، ومعهم يحرس الطريق التي تأتي منها شاحنة التمويل. لكنّه لا ينزل عندما تصل الشاحنة، يبقى جالسا قرب ملجئه، كأنّ ذلك لا يعنيه. لا يذهب أبدا لأخذ حصته، وإذا يشتد به الجوع أحيانا، ينزل إلى منتصف طريق الربوة، ولأنّ بيتنا هو أوّل بيت يصادفه، يبقى واقفا ومنعزلا قليل. تأخذ عمّة حورية قليلا من الخبز أو ظلمية من الحمص صنعتها بنفسها، تضعها على حجر وتعود أدراجها إلى البيت. يقترب سعدي، يحدّق في بنوع من الخجل والصلابة فيخفق قلبي. الكلاب التي تتسكع في الروابي حول المخيم ذات عيون بلون واحد. يحدثها هناك في أعلى الربوة، الأطفال يروون ذلك، وإذا سمعته عمّة حورية قالت إنّ أبله، ولهذا مخيمنا محفوظ.

أذهب كل صباح إلى أعلى القرية لمشاهدة وصول شاحنة الأمم المتحدة. ذاك ما قلته، لكنّي أذهب أيضا لمشاهدة بدوي جالسا على حجره أمام كوخه المصنوع من الأغصان وهو ملفوف في معطفه القطني. شعره طويل ومنفوش، بيد أنّ وجهه وشاب أمرد،

بشوارب خفيفة. وإذا اقتربت نظر إليّ، أبصرت لون عينيه الشبيه بلون عيون الكلاب الضالة. لا ينزل من الربوة إلاّ للذهاب إلى الآبار ليشرب. ينتظر في الطابور، وإذا يحين دوره، يستسقي الماء من البئر بيده، ثم لا يشرب إلى المساء. الفتيات يسخرن منه، لكنهن يخشينه قليلا، يقلن إنّه يختبئ في الأدغال ليرقبهن لما يذهبن لقضاء حاجتهن، يقلن إنّه حاول جرّ فتاة فعضته. لكنّه مجرد اغتياب.

يجيء أحيانا ليستمع عندما تقص عمّة حورية حكاية جنّ، لا يجلس مع الأطفال، يبقى منعزلا ورأسه مائل نحو الأرض لسمع، قالت عمّة حورية إنّه وحيد في الدنيا ولا عائلة له. ولكن لا أحد يعرف من أين جاء ولا كيف وصل إلى هنا عبر الطريق إلى نور شمس. ربّما كان هنا قبل الجميع بقطع من الماعز. ولما ماتت الحيوانات لم يعرف إلى أين يذهب وبقي هنا. ربّما ولد هنا.

اقترب منّي وكلمني. كان صوته لطيفا، ذا نبرة لم أسمعها من قبل. عمّة حورية هي التي قالت إنّه يتكلم مثل ناس الصحراء، مثل بدوي. لهذا سميناه كذلك.

كان ينظر إليّ بعينين صفراوين، قال لي من أنت ومن أين جئت، وعند ما حدّثته عن عكا وعن البحر رغب في معرفة البحر، لم يحدث أن رآه. لا يعرف سوى البحيرة الكبيرة المالحة ووادي غور الفسيح والمجيب حيث قصر الجنون كما يقول. أما أنا فحكيت له ما رأيته، الأمواج المنتظمة التي تنتهي على جدران المدينة، الأشجار التي جنحت على الشاطئ، والسفن ذات الأشرعة التي تعبر الضباب صباحا ووسط تحليقات البجع، رائحة البحر، مذاق الملح، الريح، الشمس التي تدخل إلى الماء كل مساء، إلى آخر ألق. أحببت طريقة إصغائه، نظرتة اللامعة، ذراعيه المتصالبين على معطفه، قدميه الحافيتين المتخذتين وضعة أفقية على التراب.

لا أتحدث مثل عمّة حورية لأني لا أعرف الحكايات الشعبية. لم أكن أعرف أن أحكي سوى ما شاهدته، هو بدوره يتحدث عما يعرفه، عن الجبال حيث كان يرعى القطعان، بالقرب من البحيرة المالحة، وهي تأكل الأعشاب والأدغال يوما بعد يوم بمحاذاة الوديان التي تجري تحت الرمل. لم يكن له رفقاء، ماعدا الكلاب التي تجري قدّامه. مخيمّات البدو، رائحة النار، أصوات النساء، إخوته الذين قدموا من بعيد مع قطعانهم، يلتقون ثم يفترقون.

عندما كنت أحدثه أو كان يحدثني، كان الأطفال يأتون ليستمعوا، وسّعت الحمّى عيونهم ونُفَس شعركم، وكانت بشرتهم تسطع من خلال ثيابهم الرثة. لكننا كنا نسيههم. أنا ابنة المدينة الساحلية، وهو، البدوي، لاشيء يميزنا، كانت لنا النظرة ذاتها للكلب الضال. نتحدث كلّ مساء عندما يلبّين الشفق قيظ النهار ونحن ننظر إلى أعمدة الدخان الدقيقة التي تصعد من المخيمّ، لاشيء يبعث عندئذ على القنوط، نستطيع الحرب، نصبح حرّين.

لم أعد بدوري أنتظر الآن شاحنة التموين، أرى من أعلى الربوة وأنا جالسة بالقرب من سعدي، سحابة التراب بعيدا في طريق طولكرم، وأسمع نداءات الأطفال الهائجين وهم يترنمون: «الدقيق!... الحليب!... الدقيق!...»

كانت عمّة حورية هي التي تذهب لإحضار الحمص، أما أنا فأبقى لأستمع إلى سعدي، محاولة أن أتذكر أفضل كيف كانت الأيام في ما مضى، على شاطئ عكا، لما كنت أنتظر عودة سفن الصيد، وأحاول أن أكون أوّل من تشاهد عودة الأب.

توبّخني عمّة: «سحرك البدوي! سأشبعه ضربا بالعصا.» كانت تسخر مني. الحرب بعيدة جدا. لم يحدث أن هدأت، كان الأطفال في

بداية الأمر يلعبون بقطع الخشب، أو يتراشقون بالحجارة وينبطحون أرضاً، كما لو أنّها قنابل يدوية. لم يعودوا الآن يقومون بذلك، لقد نسوا. «لماذا لا نتحاذب أطراف الحديث، لمّ لا نعود إلى بيتنا؟» كانوا يسألون، لكنّهم نسوا الآن. آباؤهم وأمهاتهم يفضون الطرف.

هناك في عيون الرجال ما يشبه الدخان، سحابة، وذاك يطفئ نظرتهم، يجعلها سطحية، غريبة، لا يوجد لا غلّ ولا غضب، لا دموع ولا رغبة، ولا قلق. ربّما بسبب النقص الكبير للماء، الماء، النعومة. هناك إذن هذه الودقة، كما في نظرة الكلبة البيضاء عندما بدأت تحتضر.

لهذا أحبّ عينيّ سعدي، لم يفقد ماء نظرتة، قزحيتاه الصفراوان تلمعان كتلك التي للكلاب المتسكعة في الروابي، حوالي المخيم. ثمة ضوء في عينيه لما آتى لألتقي به. يضحك، ولكنّه يفعل ذلك في سرّه، دون تحريك الشفتين، بالعينين فحسب، يبدو ذلك واضحا.

يتحدث أحيانا عن الحرب، يقول لما ينتهي كلّ شيء سيذهب إلى الجنوب، ناحية البحيرة الكبيرة المالحة، إلى ربوة طفولته. سيذهب للبحث عن أبيه وإخوته وأعمامه وعمّاته. يظنّ أنّه سيعثّر عليهم، وسيتمكن من المشي مجددا مع حيواناته بمحاذاة الأهوار الخفية.

يذكر أسماء لم أسمعها من قبل، أسماء بعيدة كبعد النجوم: سويمة، باشا، صفد، مداسا، كماك، ووادي السرّ الذي ينتهي إليه الجميع.

الأرض هناك وعرة برأيه، والرياح من القوة بحيث يهرب الناس كالغبار. عندما تأتي الرياح تتجه البهائم نحو نهر الأردن، وقد تذهب أحيانا إلى غاية مدينة القدس الكبيرة، تلك التي يسميها العبريون أورشليم، وإذ تمّ بدأ الرياح تعود الحيوانات إلى الصحراء. يقول مثل الشيخ ناس: أليست الأرض للجميع؟ ألا تشرق الشمس على الجميع؟

وجهه فتيّ، لكنّ نظرتّه مليئة بالمعرفة. ليس سجين مخيم نور شمس، يستطيع تركه وقت ما شاء، يقطع الروابي، يذهب إلى القدس وأبعد، إلى الجهة الأخرى من النهر، إلى مدن الذهب وعرق اللؤلؤ التي قالت عنها عمّة حورية بأن الملوك كانوا يسكنوها في ما مضى، أولئك الذين كانوا يتحكمون حتى في الجن، في بغداد وأصفهان والبصرة.

تأملت ذات ليلة وتمنيت الرحيل، أحسست كأنّ حجرا على صدري. خرجت. كان كل شيء هادئا في الخارج، وعمّة حورية تنام ملفوفة في غطاء السرير قرب الباب. لكنّ رومية لم تكن نائمة. كانت عيناها مفتوحتين جيّدا. أبصرت نفسها يحرك جسدها، بيد أنّها لم تقل شيئا لما مررت أمامها.

رأيت النجوم، وبدأ كل شيء في الليل يلمع بقوة، آمني اللمعان. كان الهواء حارا، والريح التي تهبّ تشبه نفس فرن. مع أنّه لم يكن أحد في الخارج، حتى الكلاب كانت محتبئة.

نظرت إلى ممرات المخيم المستقيمة، سقوف البيوت المرفّعة، الصفائح المعدنية التي تهتز في الريح، كأنّ الناس كلهم ماتوا، كأنّ كل شيء اختفى إلى الأبد. لا أدري لم تصرفت كذلك: خفت فجأة، كنت أتألم كثيرا بسبب ضيق الصدر، بسبب الحمى التي تلهبني حدّ العظام، شرعت حينها في الجري عبر ممرات المخيم، دون أن أعرف إلى أين أذهب، وكنت أصرخ: «استيقظوا!... استيقظوا!...» بدأ الرجال يخرجون، ثم النساء الملفوفات في معاطفنهم رغم الحرارة. أركض وأسمع باحتشام ما يقولونه. نفس ما قالوه مع وصول رومية: «إنها مجنونة، جنّت.» استيقظ الأطفال، جرى معي كبارهم وظلّ الآخرون يكون في الظلام. والحال أنّي لم أستطع أن أتوقف. كنت أجري وأجري عبر المعسكر. أعبّر الطرقات ذاتها جيئة وذهابا، مرّة من جهة الربوة، ثم من

الأسفل باتجاه الآبار ومحاذاة الأسلاك الشائكة التي وضعها الأجناب حول الآبار، أسمع نفسي يصفّر في الرئتين، أسمع خفقان قلبي، أشعر بنار الشمس على جبهي، على صدري، وأصرخ بصوت لم يعد صوتي: «استيقظوا!... استيقظوا!...» ثم خانني النفس دفعة واحدة. وقعت أرضاً قرب الأسلاك الشائكة، لم أعد قادرة لا على الحركة ولا على الكلام. اقترب الناس، النساء والأطفال، كنت أسمع وقع خطاهم، أسمع نفسهم بوضوح، كلما هم. جاء أحدهم بماء في إناء حديدي، سال الماء قرب فمي، على خدي، مثل الدم. أبصرت وجه عمّة قريبا مني. ذكرت اسمها، كانت هناك ويدها على جبهي، تتمم بكلمات لم أفهمها. ثم فهمت أنها صلوات، وأحسست بأنّ الجنّ تبتعد عني، تهجرني. شعرت فجأة بأني خاوية، ضحية وهن شديد.

استطعت المشي مستندة إلى ذراعي عمّة، سمعت الأصوات تخفّ وأنا ممددة على حصير بيتنا، استمرت الكلاب في النباح مدة طويلة، ونمت بنومها.

جاء سعدي إليّ لما صعدت صباحا إلى ربوة الحجارة وقال: «تعالِي، أريد أن أكلّمك.» ذهبنا قريبا من قبر الشيخ ناس، كان الوقت باكرا ولم يكن هناك أطفال. لاحظت أن سعدي تغيّر. غسل وجهه ويديه عند ذهابه إلى الآبار وقت الصلاة، وكانت ملايسه نظيفة رغم أنّها ممزقة، ضغط على يدي في يده بقوة ولمعت نظرتيه ببريق لم أعرفه، قال لي «نجمّة، سمعت صوتك هذه الليلة. لم أتم عندما بدأت تتادين. فهمت أنّ ذلك جاءك من الله. لم يسمعك أحد، أمّا أنا فسمعت نداءك، ولهذا جهزت نفسي.»

أردت أن أسحب يدي وأذهب، لكنّه كان يشدني بقوة بحيث لم أستطع الإفلات. كانت الراية خالية، ساكنة، وكان المخيم بعيدا. خفت، واختلط الخوف بشعور لم أفهمه بسبب بريق نظرتيه. قال لي: «أريد أن تأتي معي إلى الربوة التي ولدت فيها، إلى المحيب. ستكونين زوجتي، وسيكون لنا أطفال إن شاء الله.» كان يتحدث مهدوء، بنوع من الفرح الذي يضيء نظرتيه، ذاك ما كان يفتني ويجيفني في آن واحد، «سنذهب اليوم إن شئت. نأخذ معنا الخبز وقليلًا من الماء ونعبر الجبال.» كان يشير إلى جهة الشروق. وكانت الروابي لا تزال معتمّة.

السماء فارغة، بدأت الشمس في الصعود واستضاءت الأرض ببريق جديد. في الأسفل، في أسفل الربوة، هناك المخيم الذي يشبه بقعة مظلمة يصعد منها بعض الدخان، كنا نرى أطيايف النساء قرب الآبار، والأطفال الذين يركضون في الغبار.

« نجمة، كلميني. يكفي أن توافقي لنذهب اليوم. لن نستطيع أحد منعنا.» قلت: «سعدي، هذا غير ممكن، لا أستطيع الذهاب معك.»

أظلمت نظرتي، أطلق يدي وجلس على صخرة. جلست قربه، كنت أسمع خفقان قلبي في الصدر لأتني رغبت في الذهاب، وحتى لا أسمع خفقان قلبي تحدثت. تحدثت عن عمّة حورية، عن رومية التي ستلد قريبا، تحدثت عن مدينتي عكا حيث يجب أن أعود. كان يستمع دون أن يجيب وهو ينظر إلى الربوة المديدة والمحيم الشبيه بسحن، وهؤلاء الناس الذين في غدوّ ورواح عبر الشوارع كالنمل. قال لي: «ظننت أنني فهمت نداءك، النداء الذي أرسله الله هذه الليلة.» قال ذلك بصوت غير مكترث، لكنّه كان حزينا، أحسست بالدموع في عينيه، وبدأ قلبي يخفق أكثر لأتني أردت الذهاب. أمسكت بدوري بيديه ذات الأصابع الطويلة الدقيقة حيث تكوّن الأظافر بقعا صافية على البشرة السوداء. أحسست بالدم في يديه. «سعدي، ربّما سأذهب في يوم ما، لكنني لا أستطيع الذهاب الآن. هل أنت غاضب عليّ؟» تأملني مبتسما وشعت عيناه من جديد: «كانت هذه إذن رسالة الله التي أرسلها لك؟ أنا أيضا سأبقى.»

مشينا قليلا في الربوة، وإذ وصلنا إلى محبته لاحظت أنّه جهّز كيسا للسفر، غداء ملفوفا في قماش وقينة ماء مربوطة بخيط: «سأخذك معي إلى عكا لما تنتهي الحرب، توجد جداول كثيرة هناك، ولن نحتاج إلى نقل الماء.»

فسخ الكيس وجلسنا على الأرض لناكل قليلا من الخبز. كان ضوء الشمس يبدّد نداوة الصباح. سمعنا ضوضاء المحيم والأطفال الذين يصلون، وكان هناك طيران سريع لعصفور يرسل زقزقة حادة، انفجرنا ضحكا نحن الاثنين لأننا لم نر طائرا منذ وقت طويل. وضعت يدي

على كتف سعدي ورحت استمع إلى صوته المتردد الغنائي الذي يتحدث عن الربوة التي كان يتعقب فيها القطيع مع إخوته، بمحاذاة وادي المخبب الجوفي.

جاء فصل الشتاء بعد ذلك وأصبحت الحياة صعبة في نور شمس،
مرت سنتان تقريبا ونحن في المخيم، أصبحت شاحنة التموين تأتي أقل
فأقل، مرتين أسبوعيا، أو مرة واحدة، ويحدث أن يمر أسبوع كامل
دون أن تأتي الشاحنة إلى المخيم. كانت هناك إشاعات الحرب، أشياء
مرعبة تحكى، يقال إن المدينة القديمة في القدس احترقت وأنّ المقاتلين
العرب يلقون بالأطر المطاطية في الأحياء والمحلات. يصل لاجئون في
الشاحنات، رجال ونساء وأطفال بوجوه شاحبة. لم يعد الأمر يتعلق
بالفلاحين الفقراء كما في البداية. إنهم ناس حيفا ويافا الأكثر ثراء،
تجار، محامون، وطبيب أسنان كذلك. كان الأطفال ذوو الثياب الرثة
يحيطون بهم إذ ينزلون من الشاحنة ويترغنون: «فلوس! فلوس!»
يتعقبون القادمين الجدد ويضايقوهم إلى أن يمنحهم هؤلاء قطعة نقدية.
لكنهم لم يكونوا يعرفون أين يستقرون في المخيم. هناك منهم من
ينامون في الهواء الطلق وحقائبهم مشدودة إلى أقدامهم وهم ملفوفون
في أغطيّتهم. تأتيهم الشاحنة بالسجائر والشاي وبسكويت هاري.
السائقون هم الذي يبيعوهم ذلك خفية في الوقت الذي يقف الفقراء في
الطابور للحصول على حصص الدقيق وحليب كليم واللحم المجفف.

وإذ كان القادمون الجدد ينزلون من الشاحنة يحيق بهم الناس
ويسألوهم: «من أين أنتم؟ ما هي الأخبار؟ هل صحيح أن أورشليم
تحترق، من يعرف والدي، الشيخ سرايس، في طريق عين كريم؟ أنت،
هل رأيت أخي؟ يسكن في البيت الكبير لسليغمان، هناك حيث يوجد

محل للأثاث؟ ومحلي لبيع الأقمشة، أمام باب دمشق، هل نجا؟ ومحلي لبيع الأواني الخزفية قرب مسجد عمرو؟ وبيتي في الأقصى، بيت أبيض جميل بنحلتين أمام الباب، بيت مهدي أبو طراش؟ هل لكم معلومات عن حيي، قرب المحطة؟ هل صحيح أن الإنجليز قبلوه؟» كان القادمون الجدد يتقدمون وسط الأسئلة وقد بلدهم السفر، يطرفون العيون بسبب الغبار وقد اتسخت ثيابهم الجميلة بالعرق. وشيئا فشيئا تتوقف الأسئلة ويعود الصمت، يتوزع ناس المخيم أمامهم محاولين قراءة إجابة على أسئلتهم في عيونهم التائهة، في أكتافهم الخائفة، في عيون الأطفال حيث يلمع الخوف كرشح سيء.

حدث ذلك وقت وصول سكان المدن الأوائل الذين طردتهم القنابل، لم يعد ما لهم يصلح لشيء هنا، حاولوا عبثا توزيعه أثناء الطريق في شكل قبضة من الأوراق، من أجل رخصة مرور، من أجل الحق في البقاء في البيت أطول مدة، من أجل مكان في الشاحنة المغطاة التي أوصلتهم إلى المخيم عبر الطريق.

ثم أصبحت الحصص أكثر فأكثر قلة بسبب كل هؤلاء الناس الذين دخلوا إلى المخيم. أصبح الموت الآن يضرب في كل الجهات. عندما أذهب إلى الآبار صباحا يكون معبر الأسلاك الشائكة مكدسا بجثث الكلاب التي يتنازع عليها الناجون وهم يهرّون كحيوانات مفترسة. لم يعد الأولاد قادرين على المغامرة بعيدا عن البيوت، وإذا أصدع إلى أعلى ربوة الحجارة لألتقي بسعدي، كان عليّ أن أحمل عصا لإبعاد الكلاب. أما هو فلم يكن يخاف. يريد البقاء هناك. نظرته تشعّ دائما، يشدّ يدي ليحدثني، وكان صوته ليّنا. لكنّي لم أعد أمكث مطوّلا. بلغت رومية مرحلة الوضع، ولم أكن أودّ البقاء بعيدا وقت حدوث ذلك.

كانت عمّة حورية متعبة. لم تعد قادرة على تنظيف رومية. أصبحت الآبار على وشك الجفاف رغم الأمطار. أولئك الذين يأتون في الأخير لا يستخرجون سوى الطين. يجب انتظار الليل كله ليعود الماء إلى قعر الآبار.

الغذاء الوحيد هو عجّين الخرطال المزوج بحليب كليم. يذهب الأطفال الذين في سنّ العاشرة أو الحادية عشرة، وحتى النساء، يذهبون تباعاً نحو الشمال، باتجاه لبنان، أو نحو الشرق باتجاه الأردن. يقولون إنهم يذهبون إلى هناك للالتحاق بالفدائيين، يسمّوهم العائدين لأنهم سيرجعون في يوم ما. سعدي لا يريد الذهاب إلى الحرب، لا يريد أن يكون عائداً. ينتظر أن أذهب معه إلى ربوة طفولته، في الجهة الأخرى من البحيرة المالحة.

لا تكاد رومية تخرج من البيت، ماعدا لقضاء الحاجة في المنحدر، خارج المخيم. لا تذهب إلاّ معي، أو مع عمّة حورية، مترنحة على طول الطريق وهي تشد بطنها بين يديها.

الآلام تبدأ هنا، في المنحدر. كنت في أعلى الربوة لأنّ الوقت باكر، وكانت الشمس في الأسفل تضيء الأرض من خلال ضبابية، كان وقت اللجن، وقتاً لمشاهدة الشعل الحمراء ترقص حول آبار زعرون يعقوب، كما رأت عمّة حورية، قبل وصول الانجليز بوقت قصير.

سمعت صوتاً حاداً، صوتاً ثقب سكون الفجر، تركت سعدي وشرعت في نزول الربوة جرياً، سالخة قدمي الحافيتين على الحجارة الحادة. أصدى الصوت مرّة واحدة وتسمّرت بحثاً عن مصدره، وإذا دخلت إلى البيت أبصرت أغطية السرير ملقاة جانبا. مازالت الجرّة التي ملأها صباحاً على حالها. ذهبت نحو المنحدر غريزياً. كان قلبي يخفق

لأن الصرخة ولجت أعماقي، فهمت أن الوقت قد حان، ستضع حورية مولودها. جريت إلى المنحدر عبر الأدغال، سمعت الصوت من جديد. لم تصرخ، لم تشتك، كانت تتأوه أكثر فأكثر، ثم تتوقف وكأنها تلتقط الأنفاس.

رأيتها لما وصلت إلى المنحدر. كانت ممددة على الأرض، رجلاها مثنيتان، ملفوفة في حجابها الأزرق، مغطاة الرأس. كانت عمّة حورية جالسة بجانبها تلاطفها وتحديثها. لازال المنحدر في الظلّ، وثمة نداوة الليل التي تخفف من رائحة البول والغائط. لأول مرّة أرى في نظرتها علامات الاضطراب. قالت: «يجب أخذها، إنها ليست قادرة على المشي.» هممت الذهاب بعيدا بحثا عن المساعدة، لكنّ رومية أبعدت الحجاب واستقامت. شوّه وجهها ألم القلق، وكان شعرها مبللا بالعرق. قالت: «أريد البقاء هنا، ساعديني.» ثم استمرت في التأوهات تحت إيقاع تشجنات الرحم. بقيت واقفة أمامها، غير قادرة على الحركة، غير قادرة على التفكير. كلّمّتي عمّة حورية بقسوة: «اذهبي لإحضار الماء والأغطية!»، وإذ لم أتحرّك قالت: «اذهبي بسرعة! إنها بصدد الولادة.» ذهبت حينها جارية وصوت دمي في أذناي ونفسي يصفّر في حلقي. أخذت من بيتي أغطية السرير وجرّة الماء، ولأنتي كنت أسرع، انبثق الماء من الجرّة وبلّ فستاني. تعقبني الأطفال، وحين وصلت إلى مدخل الجرف أمرتهم بالذهاب. غير أنّهم مكثوا هناك، تسلقوا جوانب المنحدر ليروا، رميتهم بحجارة فابتعدوا، ثم عادوا من جديد.

كانت رومية تعاني كثيرا وهي ممددة على الأرض، ساعدت عمّة في رفعها للّفها في غطاء. كانت المياه تبلل فستانها، وعلى بطنها الأبيض الموسّع. كانت التشجنات تحدث ما يشبه الموجات على سطح البحر.

لم أر ذلك مطلقاً. كان مرعباً وجميلاً في آن واحد، لم تعد رومية نفسها، تبدّل وجهها. ولما كانت مقلوبة إلى الوراء، في مواجهة السماء المضيئة. بدا وجهها قناعاً، كأنّ شخصاً آخر يسكنه. وكانت رومية تنهج فاتحة فاهها، والتأوهات تخرج أحياناً من حلقها ولا تشبه صوتها. تجاسرت واقتربت منها ووضعت على وجهها ماء مستعملة قاماشا مبللاً، فتحت عينيها ونظرت إليّ، كما لو أنّها لم تتحقق مني، ثمّ تمت: «بي ألم، بي ألم.» عصرت القماش على شفيتها حتى تستطيع أن تشرب.

عاد الموج إلى بطنها، صعد إلى الوجه، قوّس ظهرها إلى الخلف، ضغط على الشفتين وكأنّه يمنع خروج الصوت، كبر الموج أيضاً وانزلق الأنين إلى الخارج، أصبح صراخاً، ثمّ تحطم، غدا نفساً لاهناً. وضعت عمّة حورية يديها على بطنها وضغطت بكل قواها، بقوة كبيرة وكأنّها تريد التخلص من وسخ بياض على حافة مغسل. أبصرت ذلك برعب، كان وجه العجوز مكشّراً وهي ترضّ بطن رومية، وخيل إليّ أنّي أحضر جريمة.

وفجأة بدأ الموج يتحرك بسرعة، ثبتت رومية رجليها على الكعبين، الكتفان لصق حجارة الجرف والوجه باتجاه الشمس، وبصراخ غير طبيعي دفعت المولود خارج الجسد. هناك الآن هذا الشكل، هذا الكائن الملفوف في الدم والسخد، وحول الجسد حبل حيّ. أخذت عمّة حورية المولود وشرعت في تنظيفه، وفجأة أطلق صراخه الأول.

نظرت إلى رومية وهي ممددة، إلى فستانها المشمّر على البطن الذي رضّته لكلمات عمّة، وإلى تهديها المنتفخين اللذين بحلمتين بنفسجيتين. أحسست بالغثيان، بدوار كبير، لأوّل مرّة تنظر إليّ بوجه مرتاح. عرضت عليّ الوليد الصغير المدعوك: إنّها بنت، «بنت جميلة جداً.»

قالت ذلك بصوت مرتخ، كأن شيئاً لم يكن في واقع الأمر، كأنها وجدت الوليد في قفة. وضعتة برفق على صدر أمه حيث بدأ الحليب يسيل، ثم غطتهما بغطاء نظيف وجلست قريهما مدنونة. صعدت الآن الشمس إلى السماء وبدأت النساء يصلن إلى الجرف. بقي الرجال والأطفال بعيداً، وكان الذباب يحوم. كأن عمّة حورية تذكرت فجأة الرائحة الرهيبة، «يجب العودة إلى البيت.»

أحضرت النساء غطاء، وحملت خمسة منهن رومية وبنتها مضمومة إلى صدرها، ثم نقلنها ببطء، مثل أميرة.

تغيرت الحياة الآن مع وجود الصبية في بيتنا، ورغم نقص الغذاء والماء فإنّ هناك أملا في دارنا، حتى الجيران يحسون بذلك. يأتون كل صباح إلى الباب ويحضرون ما تيسر، سكرًا، قماشًا نظيفًا، قليلا من الحليب المسحوق الذي يجهدون في أخذه من حصصهم. أمّا العجائز اللائهي لا يجدن ما يهنه فإتهن يأتين بالحطب الجاف لإشعال النار، يجذور وأعشاب عطرية.

رومية نفسها تبدّلت منذ مجيء الصبية، لم تعد لها تلك النظرة الغريبة، وما عادت تتستر خلف حجابها. أطلقت اسم لولا على ابنتها، لأنّها كانت المرّة الأولى، وأظن ذلك صحيحا في مخيمنا البائس حيث قذفنا العالم، بعيدا عن كل شيء.

لا تتعب عمّة حورية من سرد حكاية الولادة للنساء اللائهي يأتين في زيارة، كأنّ ذلك أعجوبة.. كانت تقول: «يجب أن نتخيل أنّي أخذت رومية إلى الجرف لقضاء حاجتها قبل فترة قصيرة من شروق الشمس، وهناك شاء الله أن تولد البنت، كأنه أراد أن يبيّن أنّ الشيء الأجمّل يمكن أن يظهر في الجهة الأكثر وضاعة، في وسط الأوساخ.» تغالي في الموضوع كثيرا، حتى أصبح خرافة تناقلتها النساء من فم لأذن. تحكي الزائرات رؤوسهن في البيت ويمسكن بحجابهنّ لإلقاء نظرة على هذه الآية. صحيح أنّ الخرافة التي أبدعتها عمّة حورية كانت تحيطها بضوء خاص، بفتاتها الأبيض النقيّ وشعرها الطويل المنسدل على كتفيها. سيبدأ شيء ما حقا. كانت تلك المرّة الأولى.

كان الفصل شتاء عندما عرف مخيمنا اليأس والجوع والإهمال. الأطفال والمسنون يموتون من الحمى والأمراض الناتجة عن مياه الآبار، خاصة في الجهة السفلى حيث استقرّ القادمون الجدد. كان سعدي يبصر من أعلى القرية الناس الذين يدفنون الأموات. لم تكن هناك توابيت، كانوا يلقون الميت في غطاء سرير قديم، دون خياطته حتى، ثم يخفرون بسرعة ثوبا في جنب الربرة ويضعون بعض الصخور الكبيرة حتى لا تنبشه الكلاب الضالة. لكننا كنا نقنع نفوسنا بأن ذلك يحدث بعيدا جدا، ولن يحدث لنا أي شيء من هذا بفضل لولا.

البرد حاليا، الريح تعصف ليلا على امتدادات الحجارة، تلهب الأجناف وتحدّر الأطراف. يحدث أحيانا أن أستمع أثناء سقوط المطر إلى صوت الماء الذي يجري على الألواح الخشبية والورق المقوّى المقطرن، ورغم تعاستنا، كان ذلك يبدو لي أفضل من وجودنا في بيتنا، بمجران عالية جافة وحوض في الساحة يعزف فيه المطر موسيقاه. وضعت عمّة حورية تحت المزارب لجمع ماء المطر، كل الأوعية التي استطاعت الحصول عليها، القدور، الأباريق، علب الحليب المسحوق الفارغة، بما في ذلك غطاء محرك سيارة عثر عليه الأطفال في مجرى النهر. كنت أسمع حينها المطر يدق على كل الأوعية وأستعيد سعادي الماضية في بيتنا لما كنت أسمع الماء يجري على السقف وزجاج الساحة ويسقي شجيرات البرتقال التي غرسها أبي في الأصص. كان صوتنا يدفعني إلى البكاء لأنه يحدثني، يقول لي لن يكون أي شيء على ما كان عليه، لن ألحق ببيتنا، ولا بأبي والجيران، ولا بشيء آخر عرفته.

تأتي عمّة حورية للجلوس بقربي، كأنها سيرت حزني. تحدثني بهدوء، ربّما كانت تقص عليّ حكاية جنّ، أنكئ عليها دون إزعاجها لأنّ الخصاصة أوهنتها. مزحت مساء أثناء سقوط المطر: «مقدور النبتة

الذابلة أن تخضرّ الآن.» بيد أنني كنت أعرف أن المطر لن يعيد إليها قواها، كانت شاحبة ونخيلة، وما تحلّى عنها السعال.

رومية هي التي تهتم اليوم بها، أمّا عمّة حورية فتصون البنت الملقوفة في البياض، تعني لها تهويدات.

لم تأت شاحنة الأمم المتحدة منذ وقت طويل. كان الأولاد يذهبون إلى الروابي بحثا عن الجذوع لأكلها، عن الأوراق وفاكهة الريحان. يعرف سعدي الصحراء جيّدا، يعرف كيف يقبض على الغنائم، طيور صغيرة ويرايح يقوم بشيئها واقتسامها معنا. لم أتصور أبدا أن أكل هذه الحيوانات الصغيرة يمنح كلّ تلك المتعة، وكان يأتي أيضا من الخلجان البرية بثمار القطلب التي يلتقطها من بعيد، من وراء الروابي. وإذا كان يأتي بمحصوله في خرقة ويضعها باحترام على الحجر المسطح أمام الباب، كنّا نهرع نحو الفواكه لأكلها وامتصاصها بشراهة، وكان يسخر بصوت غير مبال: «لا تعضوا أصابعكم! لا تأكلوا حجارة!»

هناك أمر غريب حاليا ما بين بدوي ورومية، هي التي كانت تغض الطرف، في ما مضى، لحظة اقتراب سعدي من البيت، غدت اليوم تسدل الحجاب على وجهها كأنما تبغي التستر، لكنّ عينيها الصافيتين تحدقان في الرجل.

لم أعد بحاجة، عندما أعود صباحا، من الآبار، إلى الذهاب إلى أعلى الربوة لملاقة سعدي. كان هناك جالسا على الحجر المسطح قرب البيت. لا يحدث أحدا، يبقى معزولا قليلا كما لو أنه ينتظر شخصا ما. لم يعد بمقدوري الآن وضع يدي في يده، ولا وضع رأسي على كتفه للاستماع إليه. يحدثني بنفس الصوت اللين الغنائي، لكنني كنت أفهم أنني لم أعد أنا من ينتظرها، بل طيف حورية المختبئة في فيء البيت،

رومية التي تمشط عمّة حورية شعرها الطويل بالتفصيل، رومية التي ترضع ابنتها، أو التي تحضر الوجبة بالدقيق والزيت. كانا يتحدثان أحيانا. تجلس حورية على عتبة الباب ملفوفة في حجابها الأزرق، ويجلس سعدي في الجهة الأخرى من الباب ويتكلمان، يضحكان.

أصعد وقتها إلى أعلى الربوة والعصا في يدي لإبعاد الكلاب، لم يعد هناك أطفال، أترقب وحدي شاحنة التموين، وكان ضوء الشمس مبهرا والريح تذر الغبار في عمق الروابي، وكان الأفق البعيد رماديا، أزرق، غير محسوس. أستطيع أن أتخيل نفسي في البحر، على الشاطئ أترقب في الغسق عودة قوارب الصيد لأكون أوّل من تشاهد ذلك الذي أعرفه جيّدا، بشراعه الأحمر، وعلى جؤجؤه اسمي في النجمة الخضراء التي يأخذها أبي معه.

جاء إلى مخيمنا ذات صباح أجنبي ومعه جنود. كنت في أعلى الربوة عندما صعدت سحابة الغبار الكبيرة في طريق زيتنا، وفهمت أنّها ليست شاحنات التموين. أخذ قلبي يخفق من الخوف لأنّي تصوّرت أنّ الجنود هم الذين جاءوا لقتلنا.

بقيّ جميع الناس محتبئين وقت وصول القافلة لأنّهم خافوا، ثم خرج الرجال من الأكواخ ومعهم النساء والأطفال، ونزلت من الربوة راکضة.

توقفت الشاحنات والسيارات في مدخل المخيم ونزل الرجال والنساء، عساكر، أطباء وممرضات، ألتقط بعضهم صورا وتحدّثوا مع الرجال ووزعوا الحلوى على الأطفال.

اقتربت من الحشد لأسمع ما يقولون. كان الرجال الذين يرتدون الأبيض يتحدثون بالانجليزية، ولم أكن أفهم سوى كلمة أو كلمتين في الهواء. سألتني امرأة بحيرة: «ماذا يقولون؟ ماذا يقولون؟» كانت تحمل

بين ذراعيها طفلا ضامر الوجه جزّ القرع شعره، قلت لطمأتها. «إنّهم أطباء جاءوا لعلاجنا.» لكنّها واصلت التطلع: «ماذا يقولون؟»

كان هناك وسط الجنود رجل غريب، طويل ونحيف ورشيق يرتدى الرمادي. كان الآخرون بخوذات، في حين كان هو عاري الرأس، كان وجهه لطيفا، أحمر قليلا، وكان يميل برأسه جانبا لسماع ما يقوله الأطباء. فكّرت بأنّه مسؤول الأجانب، وذنوت لأراه أكثر. كنت أودّ أن أذهب إليه، أن أكلمه، أن أقول له إنّنا نعاين هنا، الأطفال الذين يموتون كلّ ليلة، الذين يدفنون صباحا في سفح الربوة، بكاء النساء اللاتي يغمغن من طرف المخيم إلى طرفه، ويجب سدّ الآذان والجري إلى الربوة لتفادي سماعهن.

بدأ قلبي يخفق بسرعة إذ طفقوا يمشون في الشوارع مع الجنود، جريت نحوهم دون أن أحجل، رغم فستاني الممزق وشعري المشبك ووجهي المبقع بالأوساخ. لم يشاهدني الجنود في الحال لأنّهم كانوا يجرسون الجوانب في حالة الهجوم عليهم. لكنّ الرجل الطويل الذي يرتدي ملابس فاتحة شاهدي، توقف عن السير وعيناه تحدقان فيّ، كأنّه يسألني. رأيت جيّدا وجهه الوديع الذي خضبته الشمس وشعره الفضي. أوقفني الجنود وأمسكوني، شدّوا على ذراعيّ بقوة وتألمت. أدركت أنّي لن أصل إلى المسؤول ولن أكلمه، تظلمت حينئذ بكل ما أملكه من إنجليزية: «صباح الخير سيدي! صباح الخير سيدي!...»

صحت بكل قواي متمنية أن يفهم من هذه الكلمات وحدها ما وددت قوله. غير أنّ الجنود أبعدون ومرّ الفريق الذي يرتدي الأبيض برفقة المرضيات. التفت المسؤول ونظر إليّ متسما، قال شيئا لم أفهمه، وأظنه ببساطة، «صباح الخير»، استأنف جميعهم السير معه، رأيت بيتعد عبر المخيم بطيفه المنيف ورأسه المائل إلى الجنب قليلا، رجعت مع

الآخرين، النساء والأطفال، وكنت متعبة مما فعلته بحيث لم أشعر بألم الذراعين، ولا بعجزني عن عدم القدرة على قول شيء.

عدت إلى بيتنا. كانت عمّة حورية ممددة تحت الغطاء. لاحظت كيف كانت شاحبة وهزيلة. طلبت منّي إن كانت شاحنة التمويل وصلت أخيرا، قلت لها لطمأنتها إنّ الشاحنة أحضرت كل شيء، خبزا وزيتا وحبليا ولحما مجففا، تحدّثت أيضا عن الأطباء والمرضات والأدوية. قالت عمّة حورية: «رائع، رائع.» وبقيت ممدّدة على الأرض تحت الغطاء ورأسها مسند إلى الحجر.

قدم الممرض إلى المخيم رغم زيارة الأطباء. لم يعد الأمر خاصا بالموت الخفيّ الذي يقضي على الأطفال الصغار والشيوخ ليلا، بذلك البرد الذي يدخل إلى أجساد أوهنهم ويطفئ حرارة الحياة. كان طاعونا يجوب مسالك المخيم زارعا الموت في وضع النهار، في كلّ لحظة، وحتى بالنسبة إلى الأصحاء.

بدأ ذلك بالجرذان التي كنا نراها تموت في أزقة المخيم والشمس في السمّ، كأنّها طردت من أعماق الأجراف، كان الأطفال يلعبون بالجرذان الميتة في بداية الأمر. أمّا النساء فكنّ يجتمعن بعضا ويلقن بها. قالت عمّة حورية يجب حرقها، والحال أنّه لم يكن هناك بنزين، ولا حشب لتحضير محطبة.

خرجت الجرذان من كل الجهات. كنا نسمعها ترخص ليلا على سقوف البيوت، وكانت برائتها تصرّ على صفائح الحديد والخشب. كذلك كانت تهرب من الموت. وإذ أذهب فجرا لإحضار ماء اليوم أجد حواشي البئر مكتظة بالجرذان الميتة، حتى الكلاب الضالة لا تقربها. مات الأطفال أوّلا، أولئك الذين لعبوا بالجرذان. انتشرت الإشاعة في المخيم لأنّ أطفالا، أشقاء الموتى أو أترامهم، كانوا

يركضون عبر المخيم ويصرخون. كانت أصواتهم الحادة تردّد كلمات مرعبة، عجيبة، هم أنفسهم لا يفهمونها، كأسماء العفاريت: «حويبة!... كحولة!...» كان صراخ الأطفال يصدي كأصوات العصفائر المنكوبة في الهواء الجامد للظهيرة. خرجت في الشمس الحارقة ومشيت في ممرات المخيم. لا أحد. يبدو كل شيء نائما، مع أنّ الموت في كل مكان. كان الناس متجمعين أمام بيت، ناحية الطرف الشمالي حيث القادمون الجدد، أثرياء القدس ويافا وحيفا الذين فرّوا من الحرب. كان هناك رجل مهندس مثل إنجليزي. إنّه طيب أسنان حيفا. هو الذي استقبل الأطباء ومسؤول الأجانب في المخيم. شاهدته مع الجنود. أبصرني لما كنت أجري أمامهم محاولة أن أكلم الرجل الذي بلباس فاتح.

كان واقفا أمام الباب وعلى وجهه منديل، وبقربه نساء منهارات، حجابهن على الفم والأنف وهنّ يبكين، كان في ظلّ البيت جسد طفل صغير ممددا على الأرض، على بشرة جزئه العلوي وبطنه آثار زرقمية، وعلى وجهه وراحتي يديه بقع مخيفة.

الشمس تسطع بقوة في السماء الصافية والحرارة ترج روابي الحجارة من حول المخيم. أتذكر أنّي سرت بتؤدة في الأزقة، أسمع خفقان القلب فيما السكون يحيق بي تحت هذا الضوء الساطع، كأنّ الموت مسّ العالم كلّهُ.

الناس في بيوتهم محتبّون في الظلّ، لا تسمع أصواتهم، لكنّي كنت أعلم أنّ الطاعون أصاب، هنا أو هناك، أطفالا آخرين، نساء ورجالا تلهبهم الحمى ويننون بسبب الألم القادم من غددهم المنتفخة المتسببة، تحت الزنود وفي الرقبة والأربية. فكرت في عمّة حورية، كنت متأكدة بأنّ العلامات ظهرت على جسدها، كنت اشعر بالغثيان ولم أستطع

الدخول رغم القيظ. تسلقت منحدر الحجاره إلى أعلى الربوة، إلى غاية قبر الشيخ ناس.

لا وجود للأطفال، ولم يكن البدوي في مخبأ الأغصان، لم يعد هناك أحد يترقب وصول شاحنة الغذاء، والحال أنها قد لا تأتي أبداً، سيمحو الطاعون كل أحياء نور شمس. ربّما مسّ الأرض بأسرها، وباء أرسلته الجن للناس بأمر من الله ليتوقفوا عن الحرب. وبعد ذلك، بعد أن يموت الجميع ويغطي العظام رمل الصحراء، ستعود الجنّ وتسود من جديد في القصر، على حديقة الجنة.

انتظرت طوال النهار في ظلّ الشجيرات المحترقة متمنية لا أدري ماذا، ربّما تمنيت مجيء سعدي. لكنّه لم يعد يأتي إلى جهة القبر منذ إقامته قرب بيتنا، وإن ذهب فلعدة أيام، من أجل صيد الأرناب أو الحجل في جبال الشرق، أو في جهة الغرب، في بدوس، هناك حيث آثار قصر الجن، كما يروي، كما في ربوة طفولته.

لبثت طيلة النهار أترقب في أعلى الربوة طيف رجل أو طفل وأنا أستمع إلى أصوات النساء البعيدة.

نزلت قبل غروب الشمس بسبب الكلاب الضالة التي تأتي مع الليل، لم تكن عمّة حورية هي المريضة في بيتنا المظلم، بل رومية، كانت ممدّدة على الأرض في غطائها وقد استبد بها الألم. نفخت الحمى وجهها واحتقنت عيناها. كانت تتنفس سريعاً محدثة صوتاً مؤلماً، وكانت قشعريرة ترح جسدها في شكل موجات. كانت عمّة حورية ساكنة بجوارها، تنظر إليها وهي ملفوفة في حجابها الأزرق. لم تكن المولودة هناك، أو كلتها عمّة حورية إلى جارة. ومثلما كنت أفعل في الجرف أثناء وضع حورية، كانت عمّة حورية تغطس قماشاً في جرّة الماء وتعصره ببطء على جهة المرأة، وكان الماء يسيل على شفتيها

ويبلبل عنقها وشعرها. لم تعد عينا حورية تبصران. لم تعد تسمع، ولم تشعر بالماء الذي كان يسيل على شفثيها المتيستين.

بقيت عمّة حورية هذه الليلة جالسة إلى جنب حورية، وفي الخارج كان البدر رائعا، وحده في كبد السماء الزرقاء المائلة نحو السواد. نمت خارجا حتى لا أسمع صوت النفس، ملفوفة في غطائي ورأسني مسند إلى حجر العتبة المسطح. وصل سعدي فجرا، أتى بالحجل والتمر البري، بدا طويلا جدا ونحيفا وهو يقف أمام باب البيت، وكان وجهه الأسود يلمع كالمعدن.

دخل سعدي إلى البيت ورصدتُ السكون كما في أزقة المخيم. خرج سعدي، خطا خطوات قليلة وجلس قرب الباب منهكا من التعب. تناثرت الطيور الميتة والثمار في الغبار. دخلت إلي البيت. كانت عمّة حورية جالسة في المكان نفسه والقماش في يديها. رأيت في الظلّ جسد رومية، كان وجهها مقلوبا وعيناها مغمضتين وشعرها الأشقر مبلّلا على كتفيها. كانت تبدو نائمة، فكرت في وصولها إلى المخيم منذ زمان بعيد، بدا لي بعيدا جدا.

إنّه سكون الموت، لم أشعر بأية دمعة في عينيّ. بيد أنّه كان موتا كما في الحرب، موت يثلج ما حولها، لم يتأثر وجه رومية بالألم، كان أبيض، بدائرتين حول العينين. لن أنسى ذلك أبدا. وإذ مكثت جامدة، واقفة قرب الباب، نظرت إلى عمّة حورية، كانت نظرتها قاسية. قالت لي بصوت لم يحدث أبدا أن سمعته من قبل، صوت يشبه الغلّ «أذهبي، اذهبي من هنا. خذي البنت واذهبي. سنموت كلّنا.» أغمضت عينيها هي الأخرى، كما لو أنّها مقبلة على النوم. طأطأت حينها رأسي ومضيت.

جهّزت صرة في بيت جارتنا، وضعت فيها خبزا ودقيقا وأعواد ثقاب وعدة علب من حليب كليم للولا، وضعت فيها كذلك

كراريسي حيث كتبت حياتي كلّ يوم. ذاك فقط ما أخذته من المخيم. حافظ سعدي على قنينة الماء جاهزة. ثم حزمت البنت بوشاح على ظهري، أخذت الصرة وخرجت من المخيم باتجاه الطريق الذي تأتي منه ساحنات التموين.

كانت الشمس لا تزال في الأسفل، على مستوى الروابي، لكنّ الأفق بدا يرتعش، استدرت في لحظة ما لرؤية المخيم. لم يعلّق سعدي الذي كان بجانبني، كانت نظرتة ضيقة وحادة، وضع يده على عنقي وقادني في الطريق.

كاننا يسيران يوميا من شروق الشمس إلى منتصف النهار باتجاه الجنوب، عبر التلال المتييسة، وإذ نفذ حليب كليم قالت نجمة يجب العثور على الحليب وإلا ماتت البنت. كان العساكر يحتلون طولكرم، ترقب سعدي طوال اليوم من أعلى شناخ، دون حراك، كما كان يفعل في أعلى ربوة الحجارة، قرب قبر الشيخ ناس. كانت عيناه ثابتتين بحيث يمكنه رؤية الأسلاك الشائكة التي تسيج المدينة، وحتى مراكز الرشاشات المخبأة تحت الحجارة. هناك من الجهة الأخرى للسكة الحديدية السوداء التي تعبر حقولا خصبة، وبعيدا أيضا، أذخنة ميناء مخلد ومد البحر الخافت الوهمي.

ذاك ما أحببت نجمة سماعه لحظة رجوعه: البحر، بعيد، منيع. تمددت في ظل شجرة لتعطي الماء للولا في رضاعة أذابت فيها الملاعق الأخيرة من الحليب المسحوق. بدأت البنت تنوح بعد أن شربت، وذهب سعدي ثانية.

مكثت هناك قرب الشجرة ما تبقى من النهار، ثم طوال الليلة الباردة، ثم اليوم التالي وهي لا تكاد تتحرك، ماعدا لقضاء حاجتها، متنقلة مع ظل الشجرة. لم يبق سوى قليل من الماء المحلى للولا، وقليل من بسكويت ماري. سنموت إن لم يعد سعدي.

كانت البنت تعاني العطش والحرارة، ورغم قطع القماش التي كانت تلفها، فقد أحرقت الشمس بشرتها وانتفخت شفتاها، وحتى تهدئها غنت لها نجمة أغاني الطفولة، لكنها لم تعد تذكر الكلمات

جيداً. مكثت معلقة، نظرتها في الفراغ وهي تستمع إلى نفس لولا، صوت غريب في سكون الروابي.

أبصرت عدّة مرات أطيافا يمرون وحقق قلبها بقوة لأنّها ظنت أنّ سعدي هو الذي رجع، لكنّهم كانوا ناسا هارين بدورهم إلى الجنوب، مرّوا دون أن تحدّثهم قلوبهم بوجود نجمة، دون سماع لولا تتباكى في الظلام.

في اليوم التالي، وبعد أداء الصلاة وتمرير يدها على وجهها وعلى وجه البنت، لأنّها كانت تستعد للموت، وصل سعدي. جاء بهدوء إلى غاية الشجرة، وقال لنجمة: «تعالى وانظري.» كان صوته نافذ الصبر. ساعد نجمة على المشي: «تعالى بسرعة.» رأت نجمة في الأسفل هيتتين واضحتين مربوطتين في شجيرة: عنزة وجدوها. أحست بفرح عارم لم تشعر به منذ الطفولة، وجرّت نحو الحيوانين اللذين انتفضا. سحبت العنزة الحبل مقاومة وشرع الجددي في الجري بين الأدغال. وضعت نجمة البنت على الأرض واقتربت من العنزة حاملة في راحة يدها إحدى أو آخر قطع البسكويت. حاولت نجمة حلب العنزة وقت هدوئها، لكنّ يديها كانتا واهنتين.

البدوي هو من حلب العنزة في صحن معدني. كانت الحلمات المنتفخة تقذف حليباً خثراً عطراً. أفرغت نجمة في الحال الحليب الساخن في الرضّاعة وقدمتها للولا، شربت البنت دون استرجاع الأنفاس، ثم نامت، أرقدها نجمة أمام جذع الشجرة. بقيّ هناك حليب. شرب سعدي أوّلاً، وشربت نجمة مباشرة من الصحن. كان الحليب الدافئ المالح يجري في حلقتها ناشراً الحرارة في أعماقها. «جيد». لأوّل مرّة تستعيد نجمة الأمل. قالت لنفسها بصوت خفيض: «لن نموت الآن أبداً»، ونظر إليها سعدي دون أن يردّ.

سقط الليل وناما على الأرض ولولا بينهما. كانت نجمة تستمع ليلا إلى الجدي الذي يتعثر في الحجارة، ثم سمعت ضربات الرأس وهو يرضع أمه.

كانت النجوم تشع في السماء المعتمة. مرّ وقت طويل دون أن تنظر إليها نجمة. كانت جميلة في جهة الجنوب، ليست تلك التي تشعّ في أعلى المخيم.

جاء البرد، أخذت نجمة يد البدوي فانقل إلى جوارها متخطيا جسد البنت النائمة. أحست نجمة باهتزاز حياته، رائحته ورأسها مسند إلى صدره. بقيا وقتا طويلا بلا حراك وعيونهما مفتوحة في الظلام. نمت الرغبة في جسد الولد وفكّ أزرار لباسه. أحست نجمة بدوار وبدأت ترتعش. سألتها سعدي دون تهكم، وبلطف: «هل خفت؟» التحمت به وأحاطته بذراعيها ورجليها ضاغطة عليه بصدرها. تصاعد نفسها كما لو أنّها ركضت، لم تخطر ببالها أفكار أخرى، ماعدا الليل البارد في الخارج، والسنجوم اللامعة والجسد الحار لسعدي، وذكره الذي يلجها ويفض بكارتما.

سارا يوميا، أبعد قليلا، باتجاه الجنوب عبر الروابي، كانا يشاهدان من حين إلى آخر البحر المعتم، ثم صعدا بحاري الأتجار المتبيسة، إلى جمال. وكانت العنزة والجدي يتعقباهما، يشربان ماء الآبار نفسها، يأكلان الجذور نفسها. يشربان كل مساء، بعد أن تشبع لولا، الحليب الدافئ الذي يمنحهما قوة. وضّح سعدي لنجمة كيف يجب عصر الحلمات المتفتحة ليتدفق الحليب.

كانا يأكلان ثمار الآس والقطلب، لا يدخلان إلى المدن خوفا من العساكر. الحرب في كل مكان ودوي المدافع يقصف كالرعد، لكنهما لا يشاهدان المعارك. هناك في بعض الجهات بيوت خربة، هياكل

عظمية لأحصنة وحمير، ثقب القذائف في الأرض. وإذا اقتربا في أحد الأيام من عزون، في الجبل، كان هناك صوت مرعب في السماء. بقي سعدي ونجمة جامدين، في حين تقدمت الطائرات، وكان ظلّها يجري على الأرض. عبرت الكوكبة السماء ببطء راسمة نصف دائرة، وبدت نجمة وسعدي مركزا. هربت في تلك الآونة العنزة وصغيرها عبر الأدغال لما اختفت الطائرات خلف الأفق. كانت ترتعد بقوة بحيث جلست على الأرض وهي تضمّ البنت التي كانت تبكي، قال سعدي: «لاشيء»، «إنّها ذاهبة نحو الجنوب»، إلى أورشليم. بيد أنّه لم يرها عن قرب أبدا. جرى للحاق بالعنزة، وحتى يمسك بالحلبل كان عليه أن يتحایل ويقابل الريح، كما لو أنّه يصطاد أرنا.

ثم سارا باتجاه هواره، نحو الشرق، إلى غاية المساء. وصلا إلى وادي عزون مع سقوط الليل واستقرّا على حافة النهر تحت أشجار السنط. كان المساء نديا والريح تحفّ في الأوراق، وكانت هناك خفافيش في السماء، وبعيدا قليلا كان حقل زيتون يرسل رائحة زكية. هنا، مع ماء النار الذي يسيل ببطء، مع رائحة الشجر، صرير الريح في السنط وأشجار النخيل القصيرة، نسي الجوع، العطش، الحرب، كلّ ما يجعل النساء والأطفال يموتون، كلّ ما يطرد الناس من بيوتهم، وهذا المرض الذي يخلف علامات على أجساد المراهقين ووجوههم. المرض الذي أحرق جسد رومية. كانت نجمة تسمع صوت عمّة حورية وهي تردّد: «أذهبي! أذهبي من هنا. سنموت كلنا».

ذهب سعدي ليغتسل في النهر قبل الصلاة. استدار نحو الجيب، وادي طفولته ولامس رمل الشاطئ بجهته. وإذا أظلم الليل، نزع كل ملابسها ودخل إلى النهر وسبح قليلا ضد التيار. التحقت به نجمة محافظة على سروالها، ضامة البنت إلى صدرها، ودخلت النهر. كان

الماء البارد يلفّها، يحدث تيارات في ظهرها. صرخت لولا، لكنّ نجمة كانت تحدّثها بهدوء وقد أثار فيها الماء رغبة في الضحك. كان النهر يلمع بين الضفاف السوداء تحت ضياء النجوم الخافتة، والرياح تأتي في شكل هبوب، مصوّتا في أوراق السنط.

كان سعدي قد حلب العنزة وقت خروج نجمة. أعطى الرضّاعة للولا، ثم شربا بالتداول في الصحن المعدني. كانت نجمة تريد إشعال النار لتتدفأ، لكنّ سعدي خشيّ لفت أنظار العساكر. أكلا ثمار الآس والستين البرّيّ وحبّات زيتون مرّة. كانت البنت قد نامت ملفوفة في حجاب نجمة، في حفرة رمل.

نام سعدي ونجمة في ثياهما، وكانا يستمعان إلى صرير الرياح في أوراق السنط والانزلاق المستمر للماء في الوادي. مال سعدي على وجه نجمة ولمسه بشفتيه، ذقت حرارة النفس، كحالة نشوة، ولما ولجها لم تشعر بالألم مجددا، ضغطت برجليها وذراعيها على جسده وطوّقت خصره بيديها، سمعت صوت النفس يزداد ودقات القلب ترتفع أكثر فأكثر.

استقرا للإقامة في أسفل الوادي، هناك حيث كوّن النهر حوضا من المياه الجوفية، أزرق كالبحر، الحوض الذي تلامسه الطيور، وكانت هناك على الضفاف أشجار الآس والطرفاء والزيتون البرّي. اكتشف سعدي في إحدى الروابي، في أعلى الوادي، آثار مزرعة، بعض الجدران العالية المبنية بالحجارة والآجر، وبقايا سقف متفحّم. أتلّف الحريق المزرعة من كلّ جهة، إلى حدّ الزريبة. لم ترغب نجمة في الدخول. قالت إنّ منزل أموات. أغلق سعدي على العنزتين في الزريبة وبني في الأسفل ملجأ من الأغصان، على حافة النهر.

كانت الأيام طويلة وجميلة هنا، في هذا الوادي. كانت نجمة تنظر صباحا إلى ضوء الشمس التي تولد في تقوية الروابي، في أعلى ماء

الوادي. الماء يلمع كدرب من الشعل بين الضفاف التي لا تزال معتمة. تستضيء السماء وتخرج من الليل الروابي الحجرية. تمشي نجمة إلى الحوض وتترك لولا نائمة في الخمارات في أسفل المخبأ، تغسل جسدها، وجهها وشعرها وهي مستديرة نحو الشمس. تشعل النار، بعد الصلاة بالأغصان اليابسة التي يحضرها سعدي. تسلق في قصعة المعسكر لحية التيس البيضاء، الجزر البري وجذورا أخرى لا تعرفها نجمة، حامضة ومرة. لا يوقدان النار إلا فجرا لأن سعدي يؤكد أن الطائرات لا تستطيع رؤيتهما بسبب الضباب.

فكرت نجمة بأن الحرب قد تكون انتهت ومات الجميع في مخيمات طولكرم ونور شمس، وربما عاد العساكر من حيث أتوا. لما انتهت لولا من شرب رضاعتها مكثت نجمة إلى جانبها تحت ظل شجر الطرفاء وهي تنظر إلى الماء يسيل في الحوض العميق. لم تعرف هذا الهدوء منذ وقت طويل. يمكنها أن تحلم بعينين نصف مغمضتين بحركة الماء على الصخور، بأصوات النوارس وقت مجيء قوارب الصيادين نحو مكسر الأمواج.

كان سعدي يبحث عن الغذاء حافي القدمين، مرتديا كساءه القطني، مغطيا الوجه والشعر بالنقاب الأبيض الطويل وهو يجوب الروابي بحثا عن الجذور وثمار الريحان.

عشر مرة، في شجرة سنط، على خلية نحل معلقة في الأغصان مثل فاكهة الشمس. أشعل النار بالأوراق الجافة إلى أن أخرج الدخان النحل. تسلق حينها الشجرة وقلق الخلية لأخذ أقراص العسل. أكلت نجمة بلذة العسل الصافي الممزوج بالتخروب، وحتى لولا امتصت الأقراص.

مرت الأيام هكذا، من شروق الشمس إلى غروبها، مع خريز النهر الريب، صراخ لولا ودموعها والثغاء العذب للعنزة والجدي. سعدي

ينادي نجمة: «زوجتي» وكان ذلك يضحكها. كانت لا تضاجع إلا مساء في أغلب الأحيان، عندما ينتهي كل شيء. يستدير سعدي نحو الليل لذكر الله، ثم يأتي للجلوس بالقرب من نجمة، يتحدثان في الوقت الذي تكون نجمة نائمة.

كما لو أن لا أحد يعيش في العالم، كما لو أنهما الأولان، أو الأخيران، الأمر سيان، تظهر الخفافيش في السماء، تلامس بدورها حوض الماء الجوفي لتصطاد الناموس. يشرب سعدي ونجمة حليب العنزة الفاتر، يغطسان شفثيهما في الصحن المعدني بالتناوب. تلمع النجوم أمامهما في تقوية الروابي، وتشرع ريح الليل الباردة في التصويت في أوراق أشجار الطرفاء.

وإذ يصبح الجو باردا فعلا فيما بعد، ينحني سعدي ببطء على شفثي نجمة. كانت لحظة من التأجج بحيث بدا لها أنها لم تعش أبدا إلا من أجل هذا. لما يتحد جسدهما، عندما يختلط نفسهما وعرقهما ويختفي كل شيء من حولهما، وإذ تحس نجمة لاحقا بالنعاس يحدّر كل حواسها، ينشد سعدي بصوت يكاد يكون خفيضا، وقرىبا جدا من أذنها، قصيدة، أغنية تتحدث عن واده المولدي، عن أبيه وأمه، عن إخوته وعن القطعان التي كان يسوقها نحو الوادي أين يجري النهر الكبير. يغنيها لها، وله أيضا، ثم ينام بدوره ملفوفا في معطفه.

أيقظهما في أحد الليالي ناس كانوا يقتربون منهم: ظلال تسير على حافة النهر وتتوقف أمام الحوض. كان سعدي حذرا، مستعدا للدفاع. سمعا وقتئذ أطفالا سيكون، كانوا فارين مثلهما، يمشون ليلا ويحتبئون همارا. ذهبت نجمة إلى النهر ليلا حاملة لولا في حجابها ورأت القادمين: لم يكن هناك سوى نساء وأطفال جاءوا من مخيمات عتيل، طولكرم، من قلنسوة، أو من المدن الساحلية، من يافا ومخلد

والطننطورة. حكّت النسوة أشياء مرعبة عن القرى المحرّبة، المحترقة،
والحيوانات التي قتلت، والرجال الذين سجنوا أو فرّوا إلى الجبال،
والنساء والأطفال الذين يمشون في الدروب حاملين حزم الأغذية على
رؤوسهم.

أمّا من كانوا محظوظين فقد ركبوا الحافلات للذهاب إلى العراق.
كان العساكر في كل مكان. يجوبون الطرق في المدرّعات ويذهبون إلى
القدس، وأبعد أيضا، إلى البحيرة المالحة. كانت النساء يتعّمن، يردّدن
أسماء أبنائهن الذين قتلوا. سألت بعضهن سعدي: «وأنت؟ لماذا لم
تذهب إلى المعركة؟ لماذا تهرب مع النساء عوضا عن حمل بندقيتك؟» لم
يجب سعدي، وإذا أبصرن نجمة تحمل صبّية تخلين عن قدحهن. «هل هو
ابنك؟» سحبن الحجاب ولاحظن أنّها بنت، كذبت نجمة: «إنّها ابنتي
الأولى، اسمها لولا، أوّل مرّة.»

انفجرت النسوة ضحكا. «أنجبت هذه البنت بمجرّد أن نمت معه
لأوّل مرّة!» رغب سعدي في الرحيل. قال سيأتي آخرون، سيأتي
العساكر. قال ذلك مهدوء، كان يرى الرحيل طبيعيا. مذ كان صغيرا
وهو يحزم أمتعته ويمشي في الصحراء خلف القطعان، لكنّ نجمة نظرت
بحزن إلى كل الجهات. كانت المنطقة الوحيدة التي استطاعت العيش
فيها دون التفكير في الحرب، كما في عكّة في ما مضى، تحت الأسوار
حيث لا حاجة لها بالمستقبل.

رحلا مع شروق الشمس يسوقان أمامهما العنزة والجددي
ويصعدان الوادي إلى أن يغدوّ النهر سيلا من الماء الصافي الذي يجري
في الصخور، وإذا وصلا ذات صباح إلى قمة جبل، قريبا من هواره،
دلّها سعدي على ظلّ أخضر في الأفق: «إنّه الغور، النهر الكبير.»
ولتفادي الأجراف سلكا طريق الجنوب، نحو ياسوف، بوبلان،

وجلجولية، ثم نحو الشروق من جديد، إلى مجدل. كان سعدي ينظر إلى الوادي الكبير قلقا. هناك سحب من الغبار تملأ الفضاء. «لقد وصل العساكر سلفا.» لكنّ نجمة لا تستطيع رؤيتهم. الرّمد يشوّش بصرها، وكانت من التعب بحيث نامت على الأرض دون أن تسمع بكاء البنت.

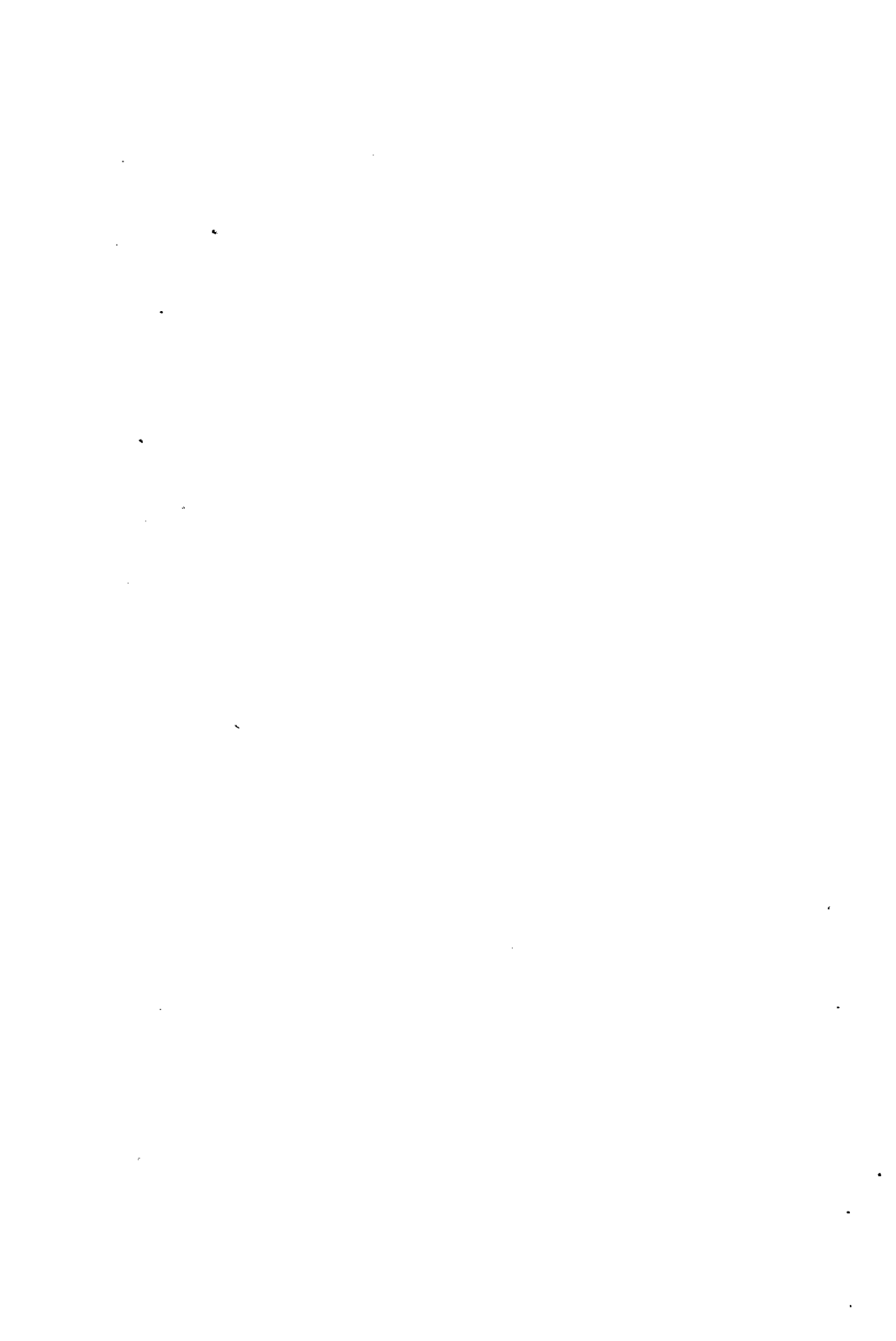
ناما في حرائب سمرا، قبل النزول باتجاه النهر. لاحظ سعدي، عندما استيقظ صباحا، بأنّ الجدي مات، وكانت العنزة واقفة بجانبه وتدفعه بقرنيتها، دون أن تفهم. حفر سعدي ثقبا في الأرض ودفن الجدي، وحتى لا تنبشه الكلاب الضالة وضع على القبر حجارة من الأثر الروماني، ثم حلب العنزة، لكنّ حلماتها المفلّعة لم تمنح سوى قليل من الحليب الممزوج بالدم.

وصلا إلى النهر الكبير قبل المساء. الماء المتوحد يسيل في الوادي، نحو أريحا، في الحدود. التقيا في الغسق بهارين آخرين. كانوا رجالا، هذه المرّة، وقد قدموا من عمّان. كانوا هزيلين، محروقين، بثياب بالية، وكان بعضهم يمشي حافي القدمين. تحدّثوا عن المخيمات حيث يموت الناس من الجوع والحمّى. الأطفال يموتون بعدد كبير، وكان عليهم الإلقاء بجثثهم في القنوات المتيسسة، أما الذين لهم الجاه فإنّهم ذهبوا نحو الشمال، نحو البلد الأبيض، لبنان، ونحو سوريا.

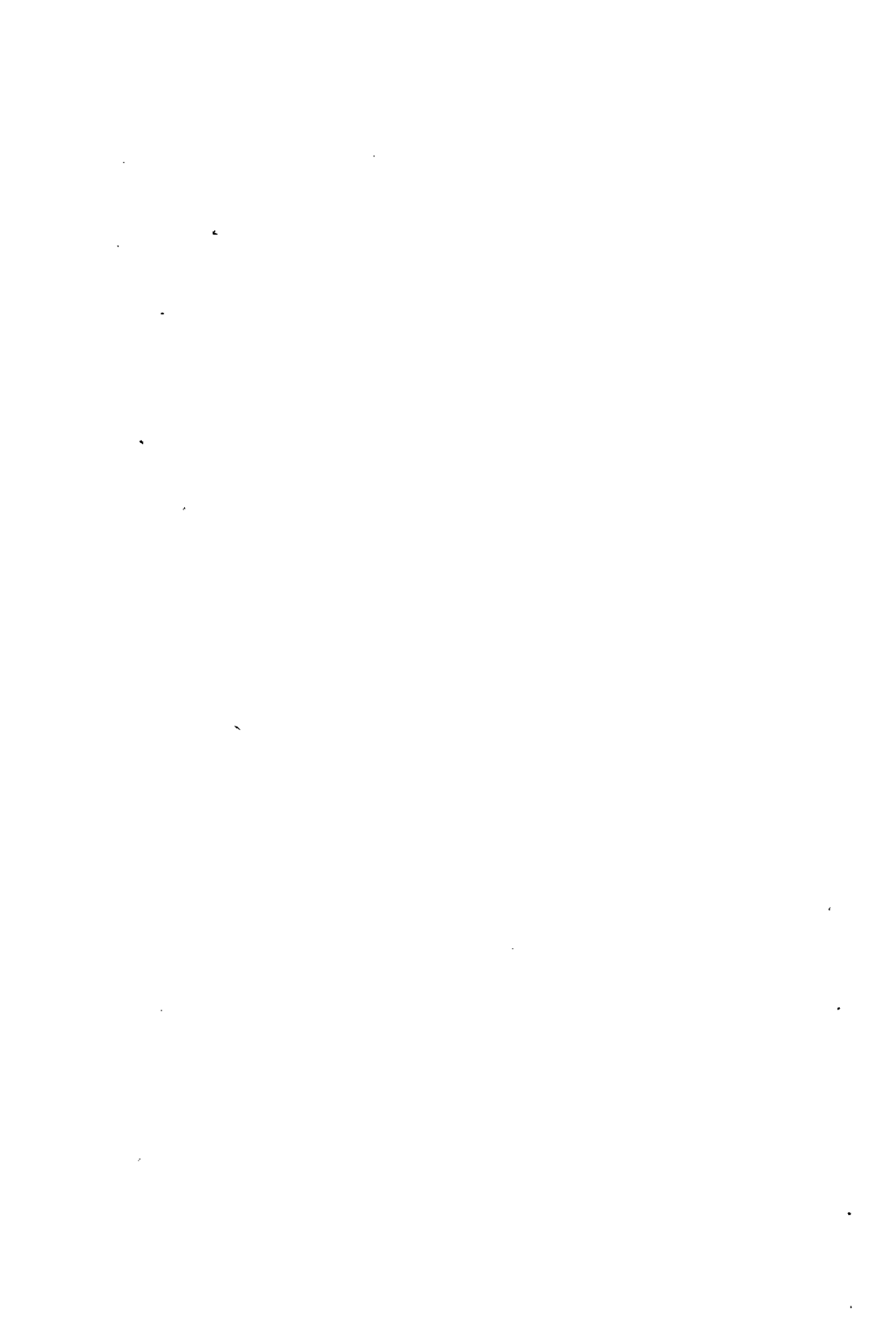
عبر سعدي ونجمة النهر قبل الليل، عبر جسر يحرسه جنود الملك عبد الله. مكثا طوال الليل على حافة النهر. كانت الحرارة ديماسية، وكانت هناك نار تحرق الأعماق. شاهدت نجمة بحر لوط لأول مرّة، البحيرة الكبيرة المالحة، وفوق الماء سحب عجيبة تتجه ببطء نحو الأحراف. وهناك قرب الضفة زبد أصفر في شكل حاجز يهتز في الريح. نظرت نجمة إلى البحر بعينها المنتهين.

لم تكن الشمس قد ارتفعت إلى السماء، لكن هبوب الريح كان ساخنا. دلّها سعدي على الجبال التي غطاها الضباب، باتجاه الجنوب. «إنّهُ المجيب، وادي طفولتي.» كانت ثيابه مزقا وقد أدمت الحجارة قدميه الحافيتين وجفت الشمس وجهه الذي تحت النقاب وسوّدته. نظر إلى نجمة وإلى لولا التي كانت تئن ووجهها ملتصق بالحجاب بحثا عن ثدي ترضعه. «لن نصل إلى المجيب أبدا، لن نشاهد قصر الجن أبدا. ربّما رحلت هي الأخرى.» قال ذلك بصوته الهادئ، لكنّ الدموع كانت تجري من عينيه وترسم خطوطا على خدّيه وتبلل طرف النقاب المعبر.

شرعت النسوة والأطفال في عبور الجسر. كان الفارون يسيرون في الطريق باتجاه الشروق، نحو مخيمات عمّان، وادي السر، مداسا وجبل حسين، وكان الغبار من تحت أرجلهم سحابة رمادية تدوم في الريح. كانت الشاحنات المغطاة تعبر الطريق من حين إلى حين بأضوائها المشتعلة. ربط سعدي حبل العنزة إلى مرفقه ووضع يده اليمنى حول كتفي زوجته وشرعا معا يسيران في طريق عمّان. لقد وضعا خطاهما على خطى من سبقوهما. وكانت الشمس تسطع عاليا في السماء، تسطع للجميع، ولا حدّ للطريق.



ابن الشمس



رامات يوحانان، 1950

عثرت على أخي، يوحانان، ذلك الذي أعطانا لحم الخروف في الشاطئ أوّل مرّة. وجهه وديع جدا، له دائما نفس العينين الضاحكتين والشعر الأسود المتحد كشعر العجر. هو الذي دلّنا على الديار والمرابط والبرج والمخازن لما دخلنا إلى الكيبوتز. سرت معه إلى حافة الحقول، رأيت السيركة تلمع ما بين أشجار التفاح، على الربوة. هناك بيوت الدروز في الجهة الأخرى من السهل.

لا زال يوحانان لا يتحدث حاليا سوى الجرية وبعض الكلمات الإنجليزية، لكنّ ذلك لا أهمية له. كنا نتحدث بالأيدي، أقرأ عينيه، لا أدري إن عرفنا. كان حيويًا وخفيفا، يجري عبر الأدغال، مع كلبه دائما. يقوم بلفّة ويعود نحوي لاهنا. يضحك مجانا. هو الذي كان راعيا، يذهب فجر كل يوم مع قطع الماعز والأغنام. يأخذ الحيوانات ترعى في الجهة الأخرى من السهل، نحو الروابي. يتقلّد جرابا به خبز وفواكه، جبن وما أمكن شربه. يحدث أحيانا أن آتبه بوجبة ساخنة. أعبّر مزارع التفاح، وإذا أصل إلى السهل أستمع إلى أصوات الخرفان لمعاينة القطيع.

دخلنا كيبوتز رامات يوحانان في مطلع الشتاء، كان جاك في المعركة، في الحدود السورية بناحية طبرية. يأتي في كل إحازة مع بعض الأصدقاء في باكار قديمة زرقاء محدّبة، ذات زجاج أمامي مكوكب. نذهب معا إلى البحر ونسير في شوارع حيفا، نتفحص المحلات، أو نذهب إلى رأس كرمل ونظّل جالسين تحت أشجار الصنوبر.

كانت الشمس تسطع على البحر، والريح تحدث صوتا في الرؤوس، وكانت هناك رائحة نسغ. يأتي معي في المساء إلى المخيم، نستمع إلى الموسيقى، أسطوانات الجاز. يعزف يوحانان على الأكورديون في قاعة الأكل وهو جالس على مقعد في وسط القاعة. يجعل ضوء المصباح الكهربائي شعره لامعا، ترقص النساء رقصات عجيبة مسكرة. كنت أرقص مع جاك، أشرب من كأسه نبيذا أبيض وأسند رأسي إلى كتفه، ثم نذهب للسير خارجا، دون كلام. كان الليل صافيا، الأشجار تشعّ بهدوء، وكانت هناك خفافيش حول المصايح. تمسك بأيدينا، مثل عاشقين، وكنت أحسّ بحرارته، برائحة جسده. لا يمكن أن أنساه. ستتزوج. قال جاك لا أهمية لذلك، مجرد طقس لإرضاء أمي. ستتزوج في الربيع عندما يعود من الجيش.

عندما تنتهي الإجازة يعود إلى الحدود في السيارة مع أصدقائه، لا يريد أن أذهب إلى هناك. يقول إن الأمر خطير جدا. أبقى عدّة أسابيع دون أن أراه. أتذكر رائحة جسده. نورة هي التي كانت تعيرنا غرفتها لممارسة الحب، ولم أكن أريد أن تعرف أمي، لم تسأل، لكنني أظن أنّها كانت مرتابة.

كانت الليالي عذبة، بلون المخمل، وكنا نسمع أصوات الحشرات في كلّ مكان. تصل موسيقى الأكورديون في أمسيات السبت، في شكل نفحات، مثل نفس. كنت أضع أذني، بعد الجنس، على صدر جاك وأسمع نبضات قلبه. أظن أنّنا كنا طفلين، بعيدين جدا، حاملين جدا. ظننت كل ذلك أبديا، الليل الأزرق، غناء الحشرات، الموسيقى، حرارة جسدينا على فراش الميدان الضيق، النوم الذي يرفرف من حولنا، أو كُنّا نتكلم وندخن السجائر. كان جاك يريد دراسة الطب في مونريال، أو ربّما في فانكوفر، سنذهب عندما ينهي جاك خدمته العسكرية. نتزوج ونرحل. كان الخمر يصيبنا بدوار.

الحقول شاسعة، يتمثل العمل في نزع براعم الشمندر للحفاظ على برعم واحد في كل خمسة وعشرين ستيمترا، الأطفال والبنات يشتغلون معا، يرتدون السراويل نفسها وبزات الكتان الغليظ ويتعلون أحذية عسكرية ذات نعال سميكة. كانت الحقول مجمّدة جرّاء برد الصباح، وهناك بخار حليبي يلتصق بالأشجار والروابي. نتقدم مقرّفين لنزع براعم الشمندر، ثم تصعد الشمس إلى الأفق وتصبح السماء شديدة الزرقة. كانت أحاديث الحقول مليئة بالعمال الذين يحدثون ضوضاء عصفير، ومن حين إلى آخر يتسرب أماننا تخليق طيور الدوري.

تمكث إليزابيث في الحقل، تمّ تعيينها في البيّضة لغسل ملابس العمل وتحضيرها، كانت تحس أنّها مسنة بحيث لا تستطيع البقاء خارجا طيلة النهار. أما بالنسبة إلى إستير فكان ذلك شاقا ورائعا. لم تتعب من الشعور بحرقه الشمس على وجهها، على يديها وعلى كتفيها، عبر قمّاش القميص. إنّها تعمل مع نورة، تتقدمان بنفس الإيقاع عبر الأحاديث، تملآن الأكياس بالبراعم المقتلعة. كانتا تثرثران في بداية الأمر، تضحكان على مشيتهما كالبط، تتوقفان أحيانا للاستراحة، تجلسان في الطين وتشركان في تدخين سيجارة، لكنّهما تكونان من التعب في نهاية النهار، بحيث لا تقدران على المشي، لا تطيق أرجلهما المخدّرة على حملهما، تنهيان العمل وهما تجرجران نفسيهما. تدخل إستير إلى غرفتها حوالي الرابعة، تنام على سريرها في الوقت الذي تذهب أمها لتناول العشاء، ثم تستيقظ من جديد. إنّ الصباح، بداية يوم آخر.

تحمل في ذاتها حرقة الشمس. كان ذلك من أجل السنين الضائعة، السنين المنطفئة. نورة أيضا تحمل الحرقة إلى حدّ الجنون، تتمدّد على الأرض أحيانا، تربّع يديها وتغمض عينيها طويلا بحيث تضطر إستير إلى تحريكها، ترغماها على النهوض: «لا تفعلي هذا، ستمرضين.» تذهب إستير ونورة، عندما لا يكون هناك عمل لأخذ الغذاء إلى الراعي في جهة الروابي. يخرج يوحانان الهرمونيك بمجرد رؤيتهما، ويبدأ في عزف نفس ألحان الأكورديون، رقصات مجرية. يصل أطفال القرية، ينزلون عبر تلال الحجارة ويقترّبون بجيأ. كانوا فقراء جدا، وكنا نرى بشرتهم السمراء من خلال ملابسهم الممزقة، كانوا يطمئنون نوعا ما عند رؤية إستير ونورة، ينزلون أكثر ويجلسون على الحجارة للاستماع إلى يوحانان وهو يعزف على الهرمونيك.

تأخذ إستير الغذاء في الحقيبة، الخبز والتفاح والموز، تقدم لهم الفواكه وتقتسم الخبز، تدنو إستير من البنات، تتسلق إلى أن تصل، تحاول أن تكلمهن، بعض الكلمات العربية التي تعلّمتها في المخيم: **خبز، أعطائي، كل!** كان ذلك يضحك الأطفال فيعيدون الكلمات نفسها، كما لو أنّها بلغة أخرى مجهولة.

ثم جاء رجال كانوا يرتدون كساء الدروز الطويل الأبيض، معتمرين منديلا أبيض يخفق على القفا، مكثوا في الأعلى، في خط الروابي، وكانت أطيافهم تنطلق نحو السماء كعصافير. توقف يوحانان عن العزف وأوما لهم أن يأتوا، لكنّ الرجال لم يقترّبوا. اجترأت إستير على الصعود إلى حدّ الصخور، أتت بالخبز والفواكه التي قدّمت للنساء. كان هناك صمت مرعب. قدّمت الغذاء ونزلت من جديد بالقرب من نورة ويوحانان، كان الأطفال ينزلون في الأيام التالية بمجرّد وصول القطيع بالقرب من الراية. نزلت معهم امرأة في

سنّ إستير تقريبا، وكانت ترتدي فستانا طويلا أزرق، وكان شعرها مشبوكا بخيوط مذهبة. قدمت إبريقا من الخمر. بللت إستير شفيتها، كان الخمر حديث العهد، خفيفا وحامضا نوعا ما، شرب يوحانان بدوره، وشربت نورة. ثم أخذت المرأة الإبريق وصعدت عبر الصخور إلى أعلى الربوة. لم يكن سوى هذا، السكون، نظرة الأطفال، مذاق الخمر في الفم وبريق الشمس، لأجل ذلك قالت إستير كل شيء دائم، كما لو لم يكن هناك شيء من قبل، كما لو أنّ أباهما سيظهر ويمشي بين الصخور في أعلى القرية.

عندما تقترب الشمس من الأفق، باتجاه ضبابية البحر، يجمع يوحانان حيواناته، ينادي كلبه مصفّرا، يحمل عصاه، وتشرع الماعز والخرفان في السير إلى وسط الربوة، نحو البركة التي تشعّ بين الأشجار.

تذهب إستير أحيانا، مع أفول الشمس عصرا، للجلوس مع نورة في مزرعة شجر الحامي. كان ظلّ الأشجار نديا، وكاننا تمكثان هناك مطولا، تتحاذبان أطراف الحديث، وكانت إستير تنام أحيانا مسندة إلى رأسها خصر نورة. المزرعة على مرتفع بحيث نشاهد الوادي كله. وبعيدا، هناك الروابي المعتمة في جهة طبرية، والبقع السوداء للقري العريبة، وبعيدا أيضا، هناك الحدود حيث يحارب جاك. يحدث أحيانا أن نرى بريق مدافع الهاون، كوميض العاصفة، لكننا لم نكن نسمع الدويّ مطلقا.

نورة إيطالية، من ليفورنو، اختفى أبوها وأمها وأختها الصغرى، اقتادهم الفاشيون. كانت عند إحدى صديقاتها وقت مجيء الميليشيا. نجحت أثناء الحرب ببقائها محتبئة في قبو: «إستير، انظري، هناك دم في كل مكان.» كانت تقول أشياء عجيبة، وكانت لها نظرة تائهة وتجميدة محزنة من جهتيّ الفم. ترتدي الأسود مثل صقلية متى نخلت عن ثياب العمل. «هل ترين الدم الذي يسطع على الحجاره؟» تقتلع الحجاره المسطحة وتتسلى بإخراج العقارب التي تهرب على الأرض المغيرة بخنا عن محباً آخر. تشدها نورة بين غسلوجين دون أن تؤلمها، تنظر إلى غدة السم المنتفخة والشوكة المنتصبه. تقول إنها تستطيع ترويضها وتعليمها بعض الحيل.

تشتغل في حقل الشمندر مع إستير، تكشف في الحين عن العناكب المحتبئة تحت السيقان. تحملها بعشب، على مهل، وتطرحها

بعيدا حتى لا يؤذيها الآخرون. تترك العناكب تنسج خيوطها في غرفتها. كانت تُظهر نجوما رمادية غريبة تَهْتَرّ في مجرى الهواء. استنفر جاك ذات يوم أثناء دخوله أوّل مرّة إلى غرفتها، أراد كس الخيوط، لكنّ إستير صدّته: «لا يحقّ لك فعل هذا، إنّها صديقاتنا.» ثم اعتاد جاك. يعتقد هذا الآخر بأنّ نورة مجنونة نوعا ما. بيد أنّ ذلك لا أهمية له. كان يقول: «مهما يكن من أمر يجب أن نكون مجانين قليلا لنفعل ما نفعله ها هنا.»

وإذ كانت نورة في العمل ذات يوم، تمّ طلاء الغرفة بأكملها بالأبيض الهملامي، من الأرض إلى السقف. سعرت نورة، وكانت تجوب المخيم متدمرة، شائمة من فعل ذلك، وكانت تبكي بسبب العناكب التي طردوها.

كان لإستير ونورة مخبأ في طرف العمارات، تحت خزان الماء. نورة هي التي عثرت على المخبأ، وكانت تلجأ إليه في الظهرية وقت اشتداد الحرّ. وجدت نورة تحت الخزان المفتاح الذي يفتح الباب، غرفة كبيرة فارغة تضيئها كوّتان، ولا وجود لشيء آخر، ماعدا بعض الصناديق وأكياس الجوتة والحبال والقرب الخاوية، وكان الجوّ معتما هناك وباردا، كما في المغارة.

لا وجود لأيّ صوت، ما عدا خرير الماء الذي يجري في الأنابيب وقطرات الماء التي تنزل بانتظام في جهة ما. عثرت نورة على عقارب بيضاء، شفافة تقريبا، وأخرى سوداء كالحبة. كانت تدلّ إستير على حلقات الذئيل التي تبين قوّة السّم. تقول إنّها أصبحت تسكن هنا منذ صبغوا غرفتها، تريد أن تمثل. تمشي تحت الخزان طولا وعرضا وتردد أشعارا بصوت مرتفع، كانت أشعارا تشبهها. قصائد حادة ومأساوية ترجمها لإستير، هتافات، نداءات. تقرأ قصائد لغارسيا لوركا،

لمياكوفسكي، ثم قرأ أبياتا بالإيطالية، مقاطع لدانتي وبتراكي، مقاطع لبافيز، يأتي الموت ويستولي على عينيك. تستمع إليها إستير، كانت جمهورها الوحيد، وكانت نورة تقول: «هل تعرفين ما سيكون رائعا؟ الإتيان بالأطفال إلى هنا وسماعهم يغنون ويلعبون.»

كان هناك صمت ثقيل كالانتظار. انتهى. كانت إستير تريد أن يلقى كل شيء مملتا، أن لا يكون فراغ الذاكرة. نقلت قصائد حايم ناحمان بياليك في كراسها الأسود، الكراس نفسه الذي كتبت فيه نجمة اسمها في طريق المنفى، وقرأت:

«أخي، أخي»

اشفق على العينين السوداوين اللتين في أسفلنا،
لأننا متعبون، لأننا نقتسم الألم.

لم أعتز على ضوئي في دروس الحرية،
لم أخذه من أبي،
هشته من لحمي،

جذمته من قلبي.»

كان منزل الأطفال في وسط الكيبوتز، وكانت قاعات الطعام تحلّ محلّ المدرسة. كانت طاولاتهم وكراسيهم على مقاسهم، لكنّ الحيطان عارية، مطلية بالأبيض الهلامي نفسه.

كان ذلك يتجاوزها. لم تعد نورة تحتمل البقاء وحدها في الخزان مع خريبر الماء، وهذا الضوء المعمي خارجا. تمشي خارجا في الأعشاب الطويلة التي تنمو حول الخزان، تبحث عن الثعابين، وكان وجهها الشاحب مضاء كقناع فوق فستانها الأسود. تلتقي بإستير دون أن تميزها. لقد ضاعت في عمق ذاكرتها. كانت في ليفورنو، أخذ رجال الميليشيا أختها فيرا. كانت تائهة كالمجنونة وتنادي هذا الاسم: «فيرا،

فيرا، أريد رؤية فيرا فوراً!» تذهب إلى بيت الأطفال، تدخل إلى الساحة، يبقى المعلم واقفاً وجملة العبرية معلقة في السبورة السوداء. تجثو نورة أمام فتاة صغيرة وتضمها إليها، تخنقها بالقبل، تحدثها بالإيطالية إلى أن تنفجر البنت المرعوبة بالبكاء. تكتشف نورة فجأة مكان وجودها. تخجل وتعتذر بالفرنسية والإيطالية لأنها لا تعرف لغة أخرى. تأخذها إستر من ذراعها وتقودها إلى الغرفة، ترقدها في سريرها همدوء، مثل أخت. تجلس إستر على السرير بجانبها، دون أن تكلمها. تنظر نورة إلى الأمام طولاً، إلى الحائط الأبيض، ثم تنام في حينها.

كان هناك عيد الأنوار. انتظره الجميع. كان ذلك لأول مرّة، كما لو أنّ كل شيء سيصبح جديدا. كما لو أنّ كل شيء سيبدأ من جديد. تتذكر إستير أنّ أباهما كان يقول ذلك، يجب أن نبدأ كل شيء من البداية. أرض الخراب، الأنقاض، السجون، الحقول اللعينة حيث مات الناس. غسل نور الشتاء كلّ شيء، برد الصباح عندما كنا نشعل الحنوكّة، النار الجديدة مثل ولادة. تتذكر إستير أيضا سفر التكوين لما اشتعلت النجوم في اليوم الثالث. تتذكر شعل الشموع في كنيسة فيستيونا.

كان جاك وقتئذ لا يزال معها، عليه الذهاب بعد الأعياد مباشرة. لكنّ إستير لا ترغب سماع هذا الحديث. بدأ جني الليمون الهندي. يشتغل جاك وإستير جنبا إلى جنب. المزرعة ضاحجة بالأيدي التي تجني الفاكهة. كان صباحا رائعا. الشمس ملتبهة رغم برودة الهواء. عادا بعد الظهر إلى غرفة نورة وناما ملتصقين، مختلطي الأنفاس. قال جاك بيرودة: «سأذهب بعد قليل.» شعرت بالدموع تملأ عينيها. كان ذلك في أول يوم أشعلت الحنوكّة.

تلك الليلة هي التي لن تنساها، قاعة الأكل مزدحمة بالناس، كانت هناك موسيقى، وكنا نشرب الخمر. جاءت الفتيات إليها وقلن لها بالإنجليزية: «متى ستزوجين؟» كانت إستير مع نورة، ثملة لأول مرّة. شربت الاثنان نبيدا أبيض من نفس القنينة. رقصت إستير دون أن تعرف من راقصت. شعرت بفراغ كبير ولم تعرف لماذا. لم يذهب

جاءك إلى الحدود للمرّة الأولى. ربّما بسبب الشمس التي لفحت وجهيها في المزرعة. كانت لحيّة جاك تلمع كالذهب. كانت نورة تضحك، ثمّ أجهشت بالبكاء فجأة، بلا سبب. أحسّت بالغيثان، كل هذا النيّذ ودخان السحائر. رافقتها إستير مع إليزابيث إلى الخارج ليلا. ساعدتها وهي تقيء، ثمّ ساعدتها في المشي إلى الغرفة، لم تكن ترغب في البقاء وحدها. كانت خائفة. تتحدّث عن إيطاليا وليفورنو، عن الأسماء التي اقتادت أختها فيرا. بلّلت إليزابيث قماشاً ووضعته على جبهتها لتهدأ. نامت، لكنّ إستير لم تردّ العودة إلى الحفل. ذهبت إليزابيث كي تنام وبدأت إستير تكتب رسالة تحت ضوء سراج الليل الباهت، على السرير بالقرب من نورة. لم تكن تعرف بالضبط لمن تكتبها، إلى جاك أو إلى أبيها، وربّما إلى نجمة، في نفس الكراس الأسود الذي أخرجته في طريق الغبار، حيث كتبا اسميها.

كان ذلك صباحا عندما عرفت إستير لأوّل مرّة أنّها تنتظر مولودا، حتى قبل أن تعرف الدليل المادي، عرفت ذلك، أحست بذلك التوتر، بذلك السّقل في بطنها، شيء حدث ولم تستطع فهمه. سعادة، وهو كذلك، سعادة لم يحدث أن أحست بها من قبل. كان الوقت فجرا، نامت والباب مفتوح لتستّم نداوة الليل، أو ربّما بسبب رائحة الخمر التي تسرّبت إلى الغرفة وأغظية السرير. كانت إيزابيث لا تزال نائمة، بلا صوت. الوقت باكر ولا شيء يتحرك في المخيم، ماعدا بعض عصافير الدوري التي كانت ترفرف بين الأشجار، وصياح الديك الذي يأتي من حين إلى آخر من جهة الكمبيوتر، صياح أبخ. كان كل شيء رماديا، جامدا، مشت إستير إلى الخزان، ثم تابعت طريقها إلى مزرعة أشجار الحمّامي، حافية القدمين في خفها البدوي الذي اشترته مع جاك من سوق عكا. تسمع الأرض تصرّ تحت خطاها، وكان النهار يطلع شيئا فشيئا كلّما تقدمت. هناك الآن ظلال، ظلال أشجار تبرز في قمم الروابي. العصافير تحلّق أمامها، أسراب من طيور الزرزور تحوم في أعلى الحقول وتنزلق باتجاه البركة.

ابتدأت الأصوات تدريجيا، عرفتها إستير الواحد تلو الآخر. تصوّرت أنّها لها، كما تعرض كلمات جملة من الأمام إلى الوراء، ضاربة بجذورها في أبعاد الذكريات. تعرفها، لقد سمعتها دائما، كانت هناك وقت وجودها بنيس، أو في الجبل بروك بيليبي وسان مارتان. صرير العصافير، ثغاء الخرفان والماعز في الإسطبل، أصوات النساء والأطفال، خريز مضخة الماء، اهتزازات المصفاة والحركات الهوائية.

سمعت في لحظة ما، دون أن تراه، قطع يوحانان يتعد في المراعي،
من جهة قرية الدروز، ثم الراعي الذي يفتح باب الزريبة ليأخذ الأبقار
تشرب في البركة.

تابعت إستير المشي عبر الحقول، ظهرت الشمس في أعلى
الروابي الحجرية، أضاءت قمم الأشجار وأوقدت انعكاسات حمراء
على البركة. كانت هذه الشمس بداخلها، تلك النقطة الحارقة الحمراء
التي لا تعرف اسمها.

فكرت في جاك، لن تخبره، ليس الآن. لا تريد أن يتغير أي شيء.
لا تريد أن يكون هناك أي كان. قبل أن يذهب جاك إلى الحدود قال
إنهما سيتزوجان هناك، لما يكونان في كندا، وسيدرس الطب في
الجامعة. لهذا لا تريد إستير الحديث عن شيء آخر، لا مع جاك ولا مع
آخر. لم تكن تريد التفكير في المستقبل كثيرا.

كانت تمشي عبر الحقول التي لا تزال خالية، تذهب بعيدا إلى
الروابي، بعيدا بحيث لا تسمع ضوضاء الناس، ولا أصوات القطيع.
تسلك في وسط مزارع أشجار المحامي. الشمس الآن في الأعلى،
تضيء البركة وقنوات الري. وبعيدا جدا، في الجنوب، كان هناك
الشكل المقرب لرأس الكرمل، في أعلى سحابة البحر. لم يحدث أبدا
أن وهبت الطبيعة لإستير شيئا كهذا، كانت واسعة جدا وصافية،
واهنة جدا وقديمة. لم تنظر إستير بعينيها، بل بعيون كل أولئك الذين
حلموا بها، أولئك الذين انطفأت عيونهم على هذا الأمل، عيون
الأطفال الذين ضاعوا في وادي ستورا، أولئك الذين اقتيدوا في
قاطرات بلا نوافذ. خليج حيفا، آكو، الكرمل، خط الروابي
الباهت كما رأته إستير وإليزابيث ينبثق من الأفق أمام جوجو الإخوة
السبعة منذ أمد بعيد.

هناك شيء ما ينمو بداخلها، ينتفخ في بطن إستير، يعيش فيها، لا تعرفه ولا يمكن أن تعرفه، كان قويا جدا، ترتعد بسببه. لم تعد قادرة على المشي، جلست على حجر في ظلّ شجرة وتنفست ببطء. يأتي ذلك من النوى، كانت مختزقة. تتذكر كلمات جويل في سجن تولون، كلمات اللغة الغريبة التي تجري في حلقة وتملأ جسده. تمننت لو أنها التقت الآن بكل واحد منهم على هذه الأرض، تحت الشمس. تتذكر عندما لامست إليزابيث هذه الأرض أوّل مرّة، رمل الشاطئ، عندما قدمتا في السفينة بلباس وسخ، مبلل بملح البحر، وبصرر الملابس القديمة.

شرعت في المشي من جديد، خرجت من المزرعة وتقدمت في وسط الأدغال، كانت بعيدة عن الكيبوتز، في حقل العقارب والثعابين. أحست بالخوف فجأة. كان ذلك كما في المرّة السابقة في طريق روكيلير لما أحسّت بالموت يحطّ على أيّها، وبال فراغ الذي انفتح أمامها، يوم ركضت إلى أن أصبحت غير قادرة على التنفس.

شرعت إستير في الجري، كان وقع خطاها يصدي في الروابي، وصوت دمها في الصدغين، وخفقان القلب، كل شيء كان فارغا بغرابة. بدت الحقول مهجورة والأحاديث المنتظمة تسطع بقسوة تحت ضوء الشمس، كآثار عالم تبدّد، ولم تكن في السماء طيور. وبعيدا قليلا تقاطعت إستير مع قطيع الماعز والخرفان. كانت البهائم متوقفة في عمق أحد الأجراف، منتشرة على طول الحقل، تسلفت مجموعة من الماعز المنحدر وبدأت تأكل براعم الشمندر، وكان ثعائها الضعيف ينادي.

وإذ وصلت إلى الكيبوتز رأت إستير الرّجال والنساء متجمعين أمام البيوت. لم يذهب الأطفال إلى المدرسة، وضعوا جسد يوحانان في

ظلّ العمارة المركزية، على إسمنت الرّصيف. رأّت إستير وجهه الناصع
البياض المتتكس إلى الخلف. كان ذراعاه مشدودين على طول الجسد،
وكانت يدها مفتوحتين، وكان الضوء المنعكس على الحائط يلمّع عينيه
وشعره الأسود. كان ذلك مرعبا، يبدو نائما في حرارة منتصف النهار،
ليس إلّا، وكانت هناك بقعة داكنة على قميصه، هناك حيث ضرب
القاتل.

في اليوم نفسه علمت إستير بموت جاك الذي قتل في الحدود،
قريبا من بحيرة طبرية. لم تقل إستير أيّ شيء عندما جاء العساكر
لإعلان الخبر. كانت عيناها جافتين. قالت في سرها ببرودة: هكذا، لن
يعود، لن يرى ابنه.

مونريال، شارع نوتردام، شتاء 1966

أنظر من خلال نافذة الشرفة الموصدة إلى الشارع الثابت. السماء والبياض، كأننا في أعلى المناطق المرتفعة للجوّ. الشارع مبّع بالثلج. أرى علامات الأحواق التي تتعرّج، آثار الخطى. هناك قدام عمارتي، حديقة ذات أشجار عارية، منتصبية باتجاه السماء الشاحبة، في طرف هذه الحديقة خطا ميشال خطاه الأولى. لا تزال القمم بيضاء ناصعة. الغربان وحدها هي التي خلّفت آثارا. ثمة مرايا كبيرة عاكسة مقوّسة على حافتي الطريق، تشكل ليلا غدراننا من الضوء الأصفر، السيارات متوقفة على طول الأرصفة المغطاة بالثلج. لم تتحرّك بعض السيارات منذ أيام، غطى الثلج المحمد سقوفها وزجاجها. يمكنني رؤية سيارة لولا التي تلفت بطايرتها في بداية الشتاء. كأنها حطام أسره الجليد.

كانت أضواء السيارات الخلفية، في طرف الطريق، تشتعل عندما تضغط على المكابح في مفترق الطرق. وكانت الحافلات البرتقالية والبيضاء تدور حول البستانة وتنزل مع الطريق باتجاه مفترق الطرق، هناك التقيت بلولا أوّل مرّة، كانت تتابع دروس المسرح، تنتظر مولودا هي الأخرى، لذلك تحدّثنا. كنا نذهب يوم الأحد في سيارتها إلى لونغوي، أو إلى مقبرة مون-روايال لمشاهدة السناجب التي تسكن في القبور، كل هذا من البعد بحيث يبدو خياليا. الشقة الآن مفرغة، لم يبق سوى بعض الورق المقوّى، وبعض الكتب والزجاجات.

الرحيل صعب، لم أتوقع بأنّي خزّنت كلّ هذه الأشياء. استلزم ذلك الرّزم، الإهداء والبيع. كان هناك البارحة، في الساحة، بيع أمام بيت لولا. فيليب هو الذي نقل مع ميشال وزوي، ابنة لولا، الأواني، الأدوات المنزلية وأكداس الجغرافية القومية. كان هناك ما يشبه الحفل بعد البيع. شربنا قنينات جعة ورقصنا، وكان فيليب يتحدث بصوت مرتفع نوعاً ما. ذهب ميشال وزوي بسرعة، بدا عليهما نوع من الخجل، ذهباً ليلعبا البولنغ مع الأصدقاء.

إنّه الأحد، كان الثلج يسقط، أرادت لولا أن تعودا معا إلى المقبرة، كما كان الأطفال في الصغر. كان البرد شديداً. بحثنا كثيراً ولم نعثر على السناجب التي تسكن في القبور.

العودة صعبة. أنظر إلى الطريق بانتباه مؤلم لأسجل في ذاكرتي كلّ تفصيل. وجهي قريب جداً من الزجاج بحيث أشعر ببرودة جبهتي، وبنفسي الذي رسم دائرتين من البخار. الطريق لا يحده حدّ. نزلت مع الأشجار غير المتناهية وعمارات الآجر الصاعدة إلى السماء الشاحبة، كأنه يمكن ركوب أية حافلة للوصول إلى هناك، إلى الجهة الأخرى من المحيط، إلى أمي إليزابيث.

وجه ترستان هو الذي يترأى لي الآن وأنا على أهبة الرّحيل، وجهه الوديع جداً، كوجه طفل، كما رأيته في الضوء الباهت عند أشجار القسطل بسان مارتان يوم بدأنا هيامنا عبر الجبال. قبل أكثر من سنة عرفت أنّ ترستان في هذا البلد، يبدو أنّه يشتغل في تورنتو، في صناعة أو في فندقة، لم أفهم جيّداً. تحدّثت عنه أحدهم مع فيليب، رقم هاتف محرش على علبة كبريت، فكرت فيه لحظة ثم ضيّعت الرقم. نسيت.

أرى الآن من جديد وجهه لحظة الذهاب، ولكنّه في الجانب الآخر من حياتي، إنّه المراهق الذي كان يستفزني لأنني أصادفه في كلّ

الطرق التي أسلكها، وكنت أعاتبه لتحسسه عليّ. ليس رجل الأربعين سنة ذاك الذي أحبّ رؤيته، المتكرّش الأشيب، مع أشغاله في تورنتو، بل طفل سان مارتان، عندما لم يكن أيّ شيء قد تبدّل في مجرى العالم، لما كان أبني وقتها هناك، واقفا على عتبة الباب وترستان يصفحه بوقار، أو في أسفل المضيق الهادر بماء السيل، يضغط ترستان بأذنه على صدري العاري ويستمع إلى نبضات قلبي، كأنها أهمّ شيء في العالم. كيف حدث خراب كل هذا؟ أتألم في أعماقي، لا أستطيع أن أنسى.

العودة أسهل من الذهاب. أعود من أجل ميشال ليعثر أخيرا على أرضه وسمائه، ليكون أخيرا في بلده. أدركت فجأة أنّه في سنّي لما ركبت سفينة الإخوة السبعة، الفرق الوحيد أنّ ذلك بالطائرة في يومنا هذا، تكفي ساعات قليلة لعبور الهوة التي تفصلنا عن أرضنا. أنظر إلى هذا الشارع، أحس بالدوران. ظننت أنّ كل شيء بعيد جدا، يكاد يكون منيعا في ظلّ رحلة طويلة ومؤلمة كالموت. تصوّرت أنّ وصولي يستغرق حياتي كاملة. سيكون ذلك غدا، هاهنا. تماما في طرف هذا الشارع. في الجهة الأخرى من الملوحة، هناك حيث الحافلات اليرتقالية والبيضاء تدور ثم تختفي ما بين أجراف العمارات الحمراء.

أفكّر الآن فيها، نجمة، أختي ذات الجانبية الهندية والعينين الشاحبتين، هي التي لم ألتق بها إلا مرّة واحدة، مصادفة، في طريق سلووم، بالقرب من أورشليم. ولدت من سحابة غبار واختفت في سحابة غبار أخرى، فيما كانت الشاحنات تنقلنا إلى المدينة المقدسة. أتصوّر أحيانا أنني أشعر بوزن يدها الخفيفة على ذراعي، أحس باستفسار نظرهما، أنظر إليها وهي تكتب اسمها ببطء، بالحروف اللاتينية في الصفحة الأولى من كراسها الأسود. اليقين الوحيد الذي أحفظ به عن نجمة، بعد كلّ هذه السنين، في وسط الغبار الذي لفّها، هو هذا الكراس الأسود الذي كتبت فيه اسمي، أنا أيضا، كأنما من أجل تحالف عجيب.

حلمت بهذا الكراس، رأيته ليلا مغطى بكتابة دقيقة، مدوّنة بقلم الرصاص نفسه الذي استعملناه بالتناوب. حلمت بأنّي أعرف تلك الكتابة، وأنّي أعرف ما كانت تقوله لي، لي وحدي، حكاية حبّ وهيام كان يمكن أن تكون حكايتي، حلمت بأنّ الكراس وصل إليّ، أو أنّ رسولا غريبا وضعه أمام باب شقتي في مونريال، كأولئك الأطفال الذين يتمّ هجرهم في زمان ديكنز.

اشتريت بدوري، وقتذاك، كراسا أسود وكتبت اسمها في الصفحة الأولى، نجمة. لكنّي دوّنت فيه حياتي، شيئا من حياتي اليومية، دراساتي في جامعة ميشال، صداقة لولا، لقائي ببرينيس اينرج، حبّ فيليب، وكذا رسائل إليزابيث، انتظار العودة، الروابي الجميلة، رائحة

الأرض، ضوء البحر الأبيض المتوسط. كانت هي، كنت أنا. لا أعرف. سأعود في يوم ما إلى طريق سلوام، وسينفتح طريق الغبار وتأتي نجمة إليّ، سنتبادل كرّاسينا لإلغاء الزمن، لإطفاء الأوجاع وحرقة الأموات.

كان فيليب يسخر منّي. «تكتبين مذكراتك؟» ربّما اعتقد أنّها مجرد مذكرات فتاة متأخرة ذهنيا تدوّن علاقاتها العاطفية وقضاياها الحميمة.

بحثت عن نجمة هنا. ترقبتها في هذا الطريق المثلوج. فتشت عنها بعينيّ في أروقة المشفى، ما بين المسكينات اللاتي يجئن من أجل العلاج. تتجلى واقفة أمامي في الأحلام، كما لو أنّها تفتح الباب، وكنت أشعر بالحادسية نفسها، وبالغلّ ذاته. كانت تنظر إليّ، وأحس بلمسة يدها الخفيفة على ذراعي. كان هناك السؤال ذاته في نظرها الشاحبة. لم يتبدل أيّ شيء فيها منذ لقائي بها. تلبس الفستان نفسه، السترة نفسها المغطاة بالغبار، الوشاح نفسه الذي يحجب وجهها نصفيا، وخاصة يديها، يديها الواسعتين المشققتين كأيدي فلاحه. كانت وحدها على الدوام. اختفت النساء والأطفال الذين كانوا يمشون بمحاذاها. جاءت من المنفى، من بلدان الجفاف والنسيان لتجلّني.

انكسرت بوفاة جاك ولم أعد أحلم. أخذتني إليزابيث إلى بيتها، كانت مقيمة في حيفا، في بناء مشرف على البحر، لم أكن أعرف أين أنا. همت في الطرق إلى غاية الشاطئ الذي نزلنا فيه منذ أمد بعيد. ألتقي في الطريق بالمرأة ذاتها، طيف لا سنّ له. كانت ترتدي مزقا، وكان وجهها مستورا بقماش مبّقع بالغبار، تسير بخطى عملاقة لمحاذاة الينبوع، في هيئة عفريت والأطفال يرمونها بالحجارة. أراها أحيانا جالسة قرب الحائط، محتبئة من الشمس، غير مبالية بحركة السيارات والشاحنات.

اقتربت منها ذات يوم. أحببت قراءة عينيها، معرفة ضوء نجمة،
وإذ دنوت مدّت إلي يدها، يد نحيفة لامرأة مسنة، بأوردة ناتئة
كالجبال. ابتعدت وقد أصابني دوار، بصقت عليّ المرأة ذات النظرة
المعتوهة وهربت عبر ظلال الأزقة.

كنت أشبه نورة، أرى الموت والدم في كل مكان. الوقت شتاء
وقد ألهبت الشمس الروابي، ألهبت الشوارع، وكان في بطني هذا
الثقل، كرة النار هذه. لم أعد أستطيع النوم ليلاً، ينتفخ حفناي، وهناك
ملح في عيناى. لم أستطع أن أفهم، بدا لي أنني مرتبطة بجناك أبعد من
الموت، بهذه الحياة التي وضعها فيّ. أكلّمه كما لو أنّه كان هنا، كأنّه
يستطيع أن ينتظر. تسمعني إليزابيث وتربّت على شعري، تظنّ ذلك
حزناً. «أبك إستيرليتا، ستشعرين فيما بعد بأنك أفضل.» لم أكن أودّ
أن أحدثها عن الطفل.

أمشي في الأزقة فخاراً بلا هدف. كانت لي هيئة المجنونة التي
تتسول ناحية السوق. ثم قمت بهذا الفعل الجنوبي. ركبت في إحدى
هذه الشاحنات التي تنقل العتاد والمئونة. أفلحت في إقناع الجنديين
الشابين اللذين لا يزالان طفلين بأنّي ذاهبة لزيارة خطيبي في الجبهة.
ذهبت إلى طبرية، وهناك بدأت أمشي في الروابي، دون أن أعرف
وجهي، لأمشي على الأرض الذي توفي فيها جاك، ليس إلا.

الشمس ملتهبّة، أشعر بعبء الضوء على كتفيّ وعلى ظهري.
تسلّقت ردموم أشجار الزيتون ومررت أمام المزارع المهجورة ذات
الجدران المخرّقة بالرصاص. لم تكن هناك أية ضوضاء، كما في طريق
فيستونا حيث كنت أذهب لسبر الجبل الذي سيأتي منه أبى.
السكون والريح يجعلان قلبي خافقاً، وضوء الشمس يبهرنى، لكنني
استمر في المشي، في الجري عبر هذه الروابي الساكنة.

رأيت في لحظة ما دبابة متوقفة. لم تعد سوى هيكل نصف متفحم، بسلاسل ثبتتها الأرض، لكنني خفت كثيرا ولم أجرؤ على التقدم. وصلت لاحقا إلى الممرات المتعرجة، كانت عبارة عن خنادق معززة بحطب أسطواني تعطف في جنب الربوة، شبيهة بملتقى ممرات غزاها العليق الشوكي. مشيت عبر الخنادق، ثم جلست على الحافة النائية ونظرت مطولا إلى جهة بحيرة طبرية.

هناك عثر عليّ العساكر. أخذوني إلى مركز القيادة لمساءلي، لأنهم اعتقدوا أنني جاسوسة لفائدة السوريين، ثم أعادوني شاحنة إلى حيفا.

أعدت إليزابيث كل شيء، بتت في كل شيء. سأرحل إلى كندا، سأذهب إلى مونريال، إلى جامعة ماكجيل لدراسة الطب. ذاك ما كان يرغب فيه جاك بيرجي. قبلت بسبب الطفل. كان ذلك سرّي. كنت أتمنى أن يولد بعيدا، أن لا تعلم إليزابيث. أبحرت في نهاية مارس في بروفيانس، سفينة نقل صغيرة كانت تأتي بمؤونة وأدوية الأمم المتحدة للاجئين العرب وتنقل المسافرين إلى مرسليليا. ركبت في مرسليليا نيا هيلاس التي تنقل المهاجرين إلى العالم الجديد.

ولدت شمسي في نهاية أيلول. حملت بولادته في أرضي، هناك، في الضفة الأخرى من المحيط، في الشاطئ الذي نزلنا فيه أنا وإليزابيث بعد أن نقلتنا سفينة الإخوة السبعة. كانت شهور الحمل الأخيرة قاسية. توقفت عن الذهاب إلى الدروس وضاع السداسي. كان الأساتذة غير مباليين، ماعدا سلفادوري، أستاذ علم الأمراض، شيخ بشارب ونظارات دائرية صغيرة مثل غاندي. قال لي: ارجعي لاحقاً بعد انقضاء الأمر. أخذ في الحسبان مشقتي، دون إجراء الامتحان من جديد.

لولا هي التي اعتنت بي كأخت، كانت هي الأخرى حاملاً، لكن مولودها لن يأتي قبل عيد الفصح. كنا نتعاضد، نتبادل الحكايات، وكانت تسخر من هيئتي المكومة، كانت هي الأخرى وحيدة. ذهب خطيبها دون أن يترك عنواناً. كنا نعيش جلّ الأوقات معاً. تعلمني السيوغا. تقول إنها مهمة لنا. التنفس، الدفع بالبطن، تربيعة الرجلين، إغماض العينين والتأمل. كانت لولا غريبة، شجاعة وعصبية، ذات وجه طفولي وعينين زرقاوين وشعر مجعد قليلاً ولون شبيه بدمية هولندية، اسمها فان فالسون. لم أعرف أبداً لم أطلق عليها والدها هذا الاسم المكسيكي.

كنا نتحدث عن السماء. كانت ترغب في بنت، تحدّد الأسماء وتغيّر الترتيب يوماً، ليونورا، بيرجيت، رومين، ألبرتين، كريستينا، كارلوتا، سونيا، ماري، ماريك أو مارت، زوي، وتضيف دائماً هيلين

بسببي. رأيت أن زوّي يناسبها جيّداً، خاصة إذا كانت تشبه أمّها. «وابنك؟» قررت أن يكون ولداً، شمسي. لكنّي تظاهرت بعدم التفكير فيه. خفت من المستقبل، لم أجرؤ أن أقول لها إنّه سيكون الشمس. قلت لها إن كان ولداً سيحمل اسم أبي ميشال. «وإن كانت بنتاً؟» «أنت التي ستسميها.» لم تستفسر لولا مطلقاً عن والد ابني. ربّما اعتقدت أنّي مثلها، أن رجلاً هجري. كنا نعرف أنّنا لن نلتقي مرّة أخرى.

سيكون ابن الشمس، دائماً فيّ، مجبولاً من الحمي ودمي، من أرضي وسماي. ستحمّله أمواج البحر إلى الشاطئ الرملي حيث غادرنا السفينة، حيث ولدنا. ستكون عظامه الحجارة البيضاء لرأس الكرمل، وصخور برج الزجاج والأرض الحمراء وروابي غاليلي لحمه، وسيكون دمه ماء السواقي، ماء الشلال في سان مارتان والماء الموحد في ستورا، ماء بئر نابلس الذي سقت به المسيح امرأة السّامرة. ستكون في جسده قوة الرعاة ومهارتهم، وفي عينيه تسطع شمس أورشليم.

كنت أحسّ بهذا من قبل، بهذا الحضور، بهذه القوة وأنا أهيّم على وجهي في رواي رامات يوحانان، على أرض أشجار المحامي المعفرة. كما قطعة من شمس، ملتهبة جداً وصعبة الحمل. كيف يمكن أن يفهم الآخرون؟ كانت لهم عائلة وكان لهم مكان ولادة، مقبرة تمكّنهم رؤية أسماء أجدادهم، وكانت لهم ذكريات. أمّا أنا فلم أكن أملك إلاّ كرة في البطن وجب أن تظهر. لهذا أصاب بالدوار، أحسّ بالغثيان على الشفتين، بفراغ كبير يتحوّف بداخلي، بثقب يفتح على عالم آخر، على حلم.

أذكر كلمات الحاخام جويل في سجن تولون عندما كان يتحدث بلغته العجيبة عن خلق حواء. كانت الكلمات تهزني وأضغظ

على يد جاك ليشرح لي بسرعة. أشعر الآن بالقوة ذاتها في أعماقي. تعبر جسدي، كأنّ تلك الكلمات هي التي تحققت. تمرّ الجمل، وكانت هناك موجات تتقدم كأثر الريح في الماء.

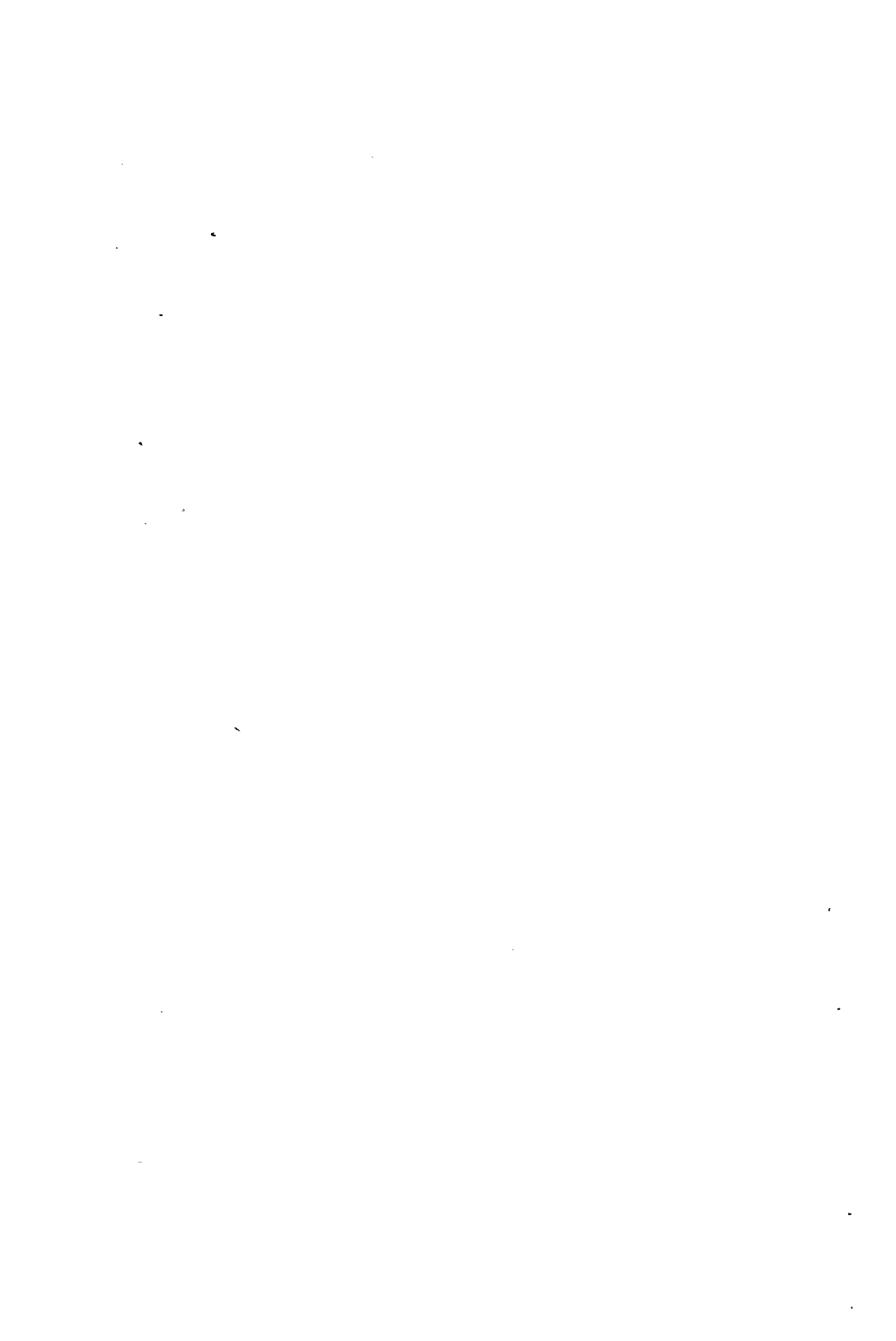
لم أعد أعرف أين أنا. قاعة العمل بالمشفى، الحيطان المطلية بالأصفر اللامع، النقلات المتحركة التي كانت النساء ممددة عليها، وهذا الباب البني المرعب الذي يصطفق في اتجاهين لما تصطحب القابلة نفساء، والسقف الذي بأعمدة النيون الستة التي تصرّ، والنوافذ الكبيرة المسيّجة، المظلة على الليل، السماء المكفهرة الوردية كبريق الثلج، وسكون البوادي الذي لا تتخلّله سوى آتات النساء ووقع الخطى العجلانة في الرواق، على بلاط الغرائب.

حلمت بأنّ الشمس ستشرق من الجهة الأخرى من العالم، على الشاطئ الفسيح الذي نزلنا فيه أنا وإليزابيث التي كانت بجانبني لمساعدتي وملامسة شعري، وكنت أسمع مدّ الموج المنزلق على الضفة، صياح النوارس وطيور البجع التي ترافق سفن الصيد فجرا. أغمض عينايا لأكون هناك. أشمّ رائحة البحر، أحسّ الملح على شفتي. أرى ضوء الفجر الصافي من خلال أهدابي، الضوء الذي يأتي من البحر أولاً، ثم ينزلق بهدوء إلى الشاطئ.

كان جاك بصحبي، أحسّ يده في يدي، أرى وجهه المضني، النور الذهبي على شعره وعلى لحيته، لهذا كان ولدي ابن الشمس، بسبب لون شعره. أسمع صوته يترجم لي كلمات سفر التكوين، "فأوقع الله سباتا على آدم فنام، فأخذ واحدة من أضلاعه وملاً مكانها لحما. وبني الله الضلع التي أخذها من آدم امرأة، وأحضرها إلى آدم. فقال آدم: "هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي. هذه امرأة تدعى امرأة لأنّها من امرئ خلقت."

كانت تلك أطول ليلة في حياتي. كنت من التعب بحيث أنام في قاعة العمل ما بين التشنجات. سألت القابلة: «متى يبدأ هذا؟» كنت محبطة، قُبلتني وقالت: «يا عزيزي، لقد ابتدأ هذا.» كنت أعرف أنّ ابني سيولد مع شروق الشمس، كان ابنه، ستكون له قوّته وقوة أرضي، قوة البحر الذي أحبه وجماله. لازلنا نعبّر ميناء ألون باتجاه أرض إسرائيل، وإذ أغمض عيناى أحسّ بالاهتزاز العذب للأمواج، أرى مدّ البحر المصقول فجراً لما يقترب جؤجؤ السفينة من الضفة، مع الصوت الأبحّ الذي يردد أغنية البلوز. ثم ابتدأ المولود يبرز، وأخذتني الأمواج إلى الشاطئ حيث نمت، بينما إليزابيث تحرس بالقرب من الأمتعة، وكان ذلك رائعاً. جميلاً جداً. تألمت، لكنّي سمعت هدير الأمواج على الرمل، تأخذني، انزلق على البحر الذي يفتح، كان الشاطئ مضاء بالشمس لحظة الشروق، «تنفسي، ادفعي ادفعي ادفعي ادفعي.» كان صوت القابلة يصدي في سكون الشاطئ بشكل غريب، أتففس، لا أصرخ. كانت الدموع في عينيّ، وبدا لي أنّ الموجات تعبر بطني. وولد ميشال. أعماي الضوء. لا أعرف من اصطحبتني، لا أعرف ماذا جرى. نمت مطوّلاً، راقدة على الشاطئ الواسع الأملس أين وصلت في آخر المطاف.

إليزابيث



نيس، صيف 1982، فندق الوحدة

ماتت البارحة إليزابيث، تلك التي كانت أمي، وقد مضى على ذلك حين من الدهر، وسأنتثر رمادها، وفق مشيئتها، في البحر الذي أحبته، هذا المساء في الغسق، حين لن يكون هناك أحد على الشاطئ، ماعدا بعض الصيادين الجامدين في السد، المخدّرين في حمول المساء الحار. سأفعل ذلك بلا دموع، وأنا لا أكاد أحسّ بشيء. ثم سأمشي في الشوارع التي تحاذي البحر، تلك التي لها أسماء تنتهي بـ «إ» مثل ريبوتي، ماكاراني، فردي، ألكسندر ماري. سأشعر بالريح تأتي في مفترق الطرق في شكل نفحات، الرائحة التي أحببتها دائما.

كانت الشمس لاهية كلّ هذه الأسابيع، كلّ هذه الشهور، أتلفت الحرائق الروابي، وكانت السماء عجيبة، نصفها أزرق ونصفها معتم بالدخان كلّ مساء، وكان هناك مطر من الرماد على البحر.

في أرصفة المقاهي سياح ألمان، إيطاليون، أمريكيون، أرجنتينيون أو عرب. الناس يتحدثون بأصوات عالية، عالية جدا، وكانت النسوة معطّرات كثيرا، وثمة أزواج من الجنوسيين المصرادين، حاضنون، بحّارة يونانيون، قبرصيون، تونسيون، سوفيت. وكان هناك متسكعون جرمانو-براتيون، ميشلو. جادتيون، بيتزائيون، فخذيون، قوادون. وكان هناك سمسارو الأوراق المالية، متقاعدو الشركة الوطنية للسكك الحديدية، فتيات ساهيات ذوات شعر مكلور، مراهقون مخدّرون حدّ

الموت. وكان هناك مستحمّون هولنديون ذوو لون أحمر فاقع، عمال قبائليون، قدماء محاربين، حلاقون، سفراء، أصحاب مآرب، وزراء، ومن أيضا؟

أرى هذا العالم ولا أعرفه. لا أتحمق منه. كل هؤلاء الناس الذين في غدوّ ورواح، يتجاوزون، يتوقفون، يتخاطبون، يتلامسون، هذا الحشد الذي يتسرب عبر أهدود مثل بقية ثخينة. هناك خاصة وقع الخطى هذا، الأصوات الصاخبة رغم دويّ المحركات. للناس في هياكلهم نظرة قاسية، بعيدة، مثل صدى.

رحلت إليزابيث عام 1973 أثناء حرب صحراء سيناء، في تلك السنة بالذات تزوجتُ فيليب وفتحت عيادة لطب الأطفال في شارع صاحب بتل أبيب، على مقربة من مسرح حايما. كيف تركتها ترحل؟ كان عليّ أن أفهم أنّها مريضة من قبل، أنّها تعاني بصمت. كان السرطان يقرض بطنها، وكنت أحبّ أن أعيش بسرعة وبقوة، دون أن أحرز، ودون أن أتردد.

ذهبت إليزابيث وهي ترتدي الأسود، بحقيبتها الصغيرة، الحقيبة ذاتها التي كانت معها حين وصلت في السفينة. حاولت استبقاءها، بيد أنّي كنت أعرف أنّ ذلك عدم الجدوى. حدّثتها عن مهنتي، عن فيليب، عن ميشال الذي سيحتاج إليها، كانت لها ابتسامة، حركة يد تقول لا داعي للمغالاة. وقالت: «لست أنا من يفتقدها. أنا التي سأفتقده.» وأردفت بغبطة متصنعة: «سيسافر لزيارتي متى شاء. سيغني ذلك.» قالت وقت ركوبها في المطار، بهدوء مرعب جعل قلبي يخفق: «فهمت أنّي ذاهبة كي لا أرجع، سأرحل إلى الأبد.» أعرف الآن لماذا قالت ذلك.

أتقدم في شوارع هذه المدينة التي لا أعرفها. هنا عاش أبي وأمي شابكهما كليًا. رأيت الثانوية التي درّس فيها التاريخ والجغرافيا، هذا

السجن الرائع المبني بحجارة رمادية، بأبراجه الصغيرة وكوى حصونه ومصبّعاته المزينة بالرّماح الصغيرة. رأيت الزيتون الضامر الذي غرس في المرج الأخضر، رمزا للحرية. رأيت المزالة برموزها اللاتينية التي جعلتني أفكر في معادلات بيكويك كلوب. بحثت عن العمارة التي قطنها أبي وأمي، بشرفتها المطلّة على النهر، لكنّ النهر امتلأ اليوم بمواقف السيارات والبنيات المتكلفة المشيّدّة بالاسمنت المسلح. وليس بعيدا من هنا، ثمة فندق له اسم أحبّه، فندق الوحدة. حجزت غرفة صغيرة في اتجاه الساحة بسبب ضجيج حركة المرور. سمعت، وأنا ممددة على السرير الضيق، هديل الحمام وجلبة غامضة للمذبايح وصراخ الأطفال. يبدو لي أنّي في أيّ مكان، في كلّ مكان، في اللامكان.

مرّت كلّ الأيام في هذه المدينة المجهولة في حرارة الحرائق. كلّ يوم يأتي بأخبار الحرب في لبنان وأخبار النيران التي تندلع في شمال أفريقيا، في إستريل وفي روابي الفار. كلّ يوم في غرفة المشفى الضيقة، أمام جسد أمي المنزوف النّاحل. أرى يوميا اقتراب زوالها، اختفائها. أسمع صوتها الهشّ، البعيد، أحس يدها في يدي. تتحدث عن الماضي، عن ميشال، نيس، أنتيب، تتحدث عن الأيام السعيدة، الجولات على شاطئ البحر، العطل في إيطاليا، في سينا، في فلورنسا وروما. تحدّثني عن هذا، كأنّي كنت هناك في جهة ما، كأنّي كنت كبيرة آنذاك، صديقة أو أختا يلتقي بها زوج مصادفة في فندق، على حافة بحيرة، تقاسمه لحظة السعادة، كنوع من التضييق، مطعم الإمارة، البحر الشديد الزرقة، الرعان التي تتقدم في الغسق. كنت هناك، معها، مع أبي، أكلت البطيخ، شربت النبيذ، سمعت موسيقى الأمواج وصياح النوارس. ينمحي الباقي لما تحدّثني عن الإمارة وعن أيام الصيف التي أعقبت زفافهما، كأنّي كنت هناك، أنا أيضا، وكأنّي رأيت وجهيهما اللذين

يضئيهما الشباب، كأني سمعت أصواتهما، ضحكاهما المتواطفة. كانت تتكلم ويدها تضغط على يدي، كما ضغطت، بلا شك، على يد أبي عندما ركبا ذلك الزورق المنزلق على البحر المشعّ وهما محاطان بصياح النوارس المسكر.

غدا صوت إليزابيث أكثر فأكثر ضعفا بمرور الأيام، تقصّ الحكاية ذاتها، بلا نهاية، تذكر الأسماء نفسها، المدن نفسها، روما، نابولي، ودائما اسم الإمارة، كأنه المكان الوحيد الذي لم تقع فيه الحرب. كان صوتها من الضعف في الأيام الأخيرة، ما جعلني أنحني إلى حدود شفيتها وأشتمّ النفس الذي ينقل كلماتها ومقاطع حياتها.

أخرج يوما من المشفى غسقا وأمشي في الشوارع عشوائيا وقد ألمّ برأسي الدوار، أسمع ذلك الاسم الذي يتردد بلا نهاية، إلى أن يصبح ملازما، الإمارة، الإمارة... أقرأ في الجريدة أخبار الحرائق التي تشتعل في كلّ الجبال وتلتهم غابات البلوط والصنوبر، في تولون، في فاينس، في دراجونينا وفي مرتفعات تانورون، الحرائق التي تضيء بيروت المحتضرة.

كنت حينها أمشي ليلا في الشوارع الملتهبة، باحثة عن الظلال والذكريات، وكانت يد إليزابيث تضغط على يدي وصوتها يغمغم كلمات غامضة، كلمات الحب التي كانت ترددها على الشاطئ في الإمارة وهي ملتصقة بجسد أبي، الكلمات التي كانت تقولها له كسرّ من الأسرار، وكان البحر يبدو أجمل فأجمل، مليئا بألق الضوء، وكانت كل جملة تقدم سرمديا نحو الشاطئ.

لم تعد قادرة على الكلام في الأيام الأخيرة، بيد أنّ الكلمات كانت في أعماقها، تصل إلى الشفتين وتجعلني أنحني لالتقاطها مع النفس، لأسمعها مرّة أخرى، كلمات الحياة. أحدثها حاليا لأنّها لا تستطيع القيام بذلك، أصبحت أحدثها عن كل هذا، عن سيينا وروما

ونابولي والإمارة، كما لو أنني كنت هناك، كما لو أنني أنا التي أمسكت بيد أبي على الشاطئ ونظرت إلى الطيران المشتت للنوارس في السماء، خلف الأفق. كنت أضغط على يدها وأحدثها محدقة في وجهها، في صدرها الذي يهزّ غطاء السرير قليلا، ممسكة بيدها الممدودة لأعطيها شيئا من قوتي.

لم يعد هناك ماء وخبز في المدينة المحاصرة، ماعدا أضواء الحرائق المتموّجة، دويّ المدافع وأطياف الأطفال الهائمين في الخرائب، كان ذلك في أواخر أيام أغسطس لما كانت الجبال تحترق كليا في سان مكسيم.

كنت أرى ليلا، لحظة خروجي من المشفى، ألقا في السماء شيئا بغسق. احترقت سبعة هكتارات في الفار، وكان هناك طعم الرماد في الهواء والماء، وفي البحر أيضا. كانت سفن الشحن تتعد عن المدينة الخربة شاحنة حمولة الناس. أسماؤهم الآن بداخلي، صول جيورجيوس، ألكيون، صول فرين، نيروس. كانوا متوجهين إلى قبرص، إلى عدن، إلى تونس وميناء السودان. يتقدمون في البحر المصقول، تكبر أمواج مخورهم وتموت على الضفاف والشطآن. ترافقهم النوارس الصغيرة البيضاء. تسألني الوجوه في ماتهة الشوارع وتتألمني العيون. أرى النساء والأطفال يتحركون كالظلال في الأزقة الخربة، في صدوع مخيمات اللاجئين، في صبرا وشاتيلا. تتعد السفن، تتجه نحو طرف العالم الآخر، نحو الحدّ الآخر للبحر. تنزلق الأطلننتس ببطء بمحاذاة مصدّ الأمواج، تتقدم في البحر الأملس، في ربح العتمة الحارّة، شامخة وبيضاء مثل عمارة.

كانت تبحر نحو الشمال، نحو اليونان، وربما باتجاه إيطاليا. وكنت أسير البحر، بحر الرماد هذا، كأني سأراها في الضوء الخافت، الأضواء مشتعلة وهي تسحب في مخرها وسط دوامة النوارس.

كانت إليزابيث من الوهن بحيث لم تعد عيناها قادرتين على رؤيتي. أحدثها مطوّلاً، قريبة جداً من أذنها، أحسّ بخصلة شعرها الأشيب تلامس شفّتيّ، أحاول ترديد الكلمات التي تحبّها، هذه الأسماء، نابولي، فلورنسا، الإمارة، لأنّ هذه الكلمات هي القادرة على الدخول إلى أعماقها لتمتزج بدمها ونفسها. تحاول الممرّضات إبعادي، لكنّي أظلّ متشبّثة بقضبان السرير ورأسي مسند إلى الوسادة نفسها، أنتظر، أتنفّس وأعيش. كان الماء يجري في عروقها من خلال الأنبوب، قطرة فقطرة، وكانت كلماتي كتلك القطرات، تأتي الواحدة تلو الأخرى، غير محسوسة، خفيضة جداً، بطيئة جداً، الشمس، البحر، الصخور السوداء، طيران العصفير، الإمارة، الإمارة... الأدوية، الحقن، العلاج القاسي، المرعب، ويد إليزابيث التي تشبّثت فجأة بيدي مع اشتداد الألم. الكلمات مرّة أخرى، مجدّداً، لربح الوقت، للبقاء قليلاً أيضاً، لعدم الرحيل، الشمس، الفواكه، النيذ المتألّئي في الكؤوس، أطياف المراكب الصغيرة المنسلّة، مدينة الإمارة النائمة في صهد الظهيرة، نداوة أغطّية السرير تحت الجسد العاري، الظلّ الأزرق للنوافذ الموصدة. عرفت هذا بدوري، كنت هناك، مع أبي، مع أمّي، كنّا في ذلك الظلّ، في تلك الندوة، وفي لباب الفواكه. لم تكن هناك حرب أبداً، لم يحدث أن عكّر شيء شساعة البحر المصقول.

ماتت إليزابيث ليلاً. أبصرت، إذ دخلت الغرفة، جسدها ممدداً على النقالة، ملفوفاً في غطاء، ووجهها الأبيض جداً، الشاحب جداً، وتلك الابتسامة الهادئة التي لا تبدو واقعية. زال الألم مع زوال الحياة في أحشائها. نظرت إليها لحظة ثم ذهبت. لم أكن أشعر بشيء. ملأت الوثائق اللازمة وأخذتني سيارة أجرة إلى مركز حرق الجثث من أجل شعيرة الوفاة. حوّل الفرن، المسخن إلى ثمانمائة درجة، تلك التي كانت

أمي إلى ركام من الرّماذ. ثمّ منحوني، مقابل دراهم، مرداسا حديديا بغطاء مُلّولب وضعته في حَمّالتي. مرّت سنوات وأنا في هذه المدينة، وخيّل إلي أنّي لن أستطيع مغادرتها أبدا.

تمّت في الأيام التالية بحمّالتي في الحرارة الفولاذية للحرائق التي تحيط بالمدينة، لم أعرف ما كنت أريده. ربّما الظلال التي يلاحقها عملاء الغيستابو في هذه المدينة، كل أولئك الذين حكموا عليهم بالإعدام وهم يخبثون في الأقبية وفي تخشبية السقوف، أولئك الذين أسرهم الألمان في ربوة ستورا وسجنوهم في محتشد بورجو سان دالمازو، قريبا من المحطة، أولئك الذين رحلوا في قاطرات مصفحة وعبروا محطة نيس ليلا، وأكملوا رحلتهم باتجاه الشمال، نحو دراستي، وأبعد، نحو داخاو وأشويتز؟ مشيت في شوارع هذه المدينة والوجوه تطفو أمامي وقد أضاءها بريق المرايا العاكسة، ينحني عليّ ناس، يهمسون جملا في أذني، يضحك الشباب، يتقدمون عشوائيا، أولئك الذين حكم عليهم السوالي بالإعدام، معلنا عن نفي اليهود. كان أطفال ونساء مخيمات اللاجئين ينظرون إلى السفن التي تتعد في البحر الأملس، هناك على الشاطئ، في الجهة الأخرى من البحر، في حين تبدو المدينة جامدة في دمارها.

هنا، في هذه المدينة، الناس في غدوّ ورواح في الشوارع، أمام الواجهات المزدانة بالأضواء، غير آهين، غائبون. يمرّون على الزوايا حيث علّق الأطفال الضحايا من الأعناق في أعمدة المصابيح، كما في عقافة القصبّاب.

في اليوم الذي أعقب تواري إليزابيث في المحرقة، مشيت عبر ربوة سيميياز، في شوارع هادئة تشعّ تحت الشمس، مع رائحة السرو والعلاك. كانت ثمة قطط تجري بين السيارات وشحارير متغطّسة،

وكانت طيور الترغلة ترقص فوق سقوف الدارات. اختفت حاليا رائحة الحدائق، وما عادت في السماء غيوم. لم أعرف عمّا كنت أبحث، ما كنت أحب رؤيته. كان هناك ما يشبه جرحا في القلب، أحببت رؤية الألم، فهم ما فاتني، ما قذني إلى عالم آخر. خيل إلي أنني لو عثرت على أثر هذا الألم لاستطعت أخيرا أن أرحل، أن أنسى، أن أعيد حياتي مع ميشال، مع فيليب، الرجلين اللذين أحببتهما. أستطيع أخيرا السفر من جديد، الحديث، اكتشاف المناظر الطبيعية والوجه، أن أكون في الزمن الحاضر، لديّ وقت قصير، إن لم أعتز على الألم سأكون قد ضيّعت الحقيقة، وسأستمر في الهيام.

مشيت خلال هذه الأيام عبر الحدائق، أمام العمارات الفاخرة المشرفة على البحر وحمّالتي على كتفي، إلى أن وصلت إلى بناية بيضاء شامخة، جميلة جدا وهادئة، تضيئها أشعة الشمس الأخيرة. تلك التي كنت أبغي رؤيتها، جميلة ومخيفة كقصر ملكي، محاطة بحديقة على الطراز الفرنسي، بحوض ماء هادئ تأتي طيور الحمام والشحارير لتشرب منه. كيف لم أرها من قبل؟ كان هذا البيت مرتيا من كلّ نقاط المدينة، في طرف الطريق، بمنأى عن ضوضاء السيارات والعباد، كان هناك بيت أبيض، مهيب وخالد، ينظر باستمرار إلى الشمس ويتابع حركتها من طرف البحر إلى طرفه.

دنوت ببطء، بحذر، كأنّ الوقت لم يمض، كأنّ الموت والألم مازالا هنا، في الشقق الباذخة، في الحديقة المنسجمة، تحت الحمامات، خلف كل تمثال من تماثيل الجصّ، أمشي في الحدائق ببطء، أسمع الحصباء تصرّ تحت نعال الخفين، أسمع في الملك الواسع صوتا يصدي بقسوة وجفاف، شبه مهدّد. فكرت في فندق إكسلسيور الذي أبصرته البارحة بالقرب من المحطة، بساتينه، واجهته الباروكية البيضاء، مدخله الكبير المزخرف بملائكة صغيرة من الجبس، كان اليهود يمرّون أمامه قبل التحقيق، لكنّ صوت الموت هو الذي يخيم هنا، في سكoon الملك الكبير وترفه، تحت نوافذ البيت الأبيض، رغم أصوات الترغلة وصياح الشحارير.

أمشي، أسمع صوت والدي في مطبخ بيتنا بسان مارتان وهو يتحدث عن هذه الأقبية التي يعذب فيها الناس ويقتلون يوميا، هذه

الأقبية المخفية تحت البناية الفاخرة، وفي المساء، صراخ النساء تحت
السياط، صراخ المعذبين الذين يَحْتَنِقُونَ في أحمة الحظيرة وفي الأحواض،
ذلك الصياح الحاد الذي يتعذر عدم التمييز بينه وبين صياح الشحارير،
وربّما كان يجب سد الأذنين لمجانبة الفهم. أتقدم تحت نوافذ القصر،
تلك النوافذ التي كان الضباط النازيون يطلون منها لمراقبة شوارع المدينة
بالمَنظار. أسمع أبي يذكر اسم البيت، المحبسة، هذا الاسم الذي لا
معنى له لدى الآخرين، لا يعني سوى بدخ المنازل الفاخرة المطلّة على
البحر، الجنان الهادئة حيث يتزاحم. أمشي قدّام البيت وأنا أنظر إلى
الواجهة، نافذة إثر نافذة، ومدخل المنافذ المعتمة هذه التي كانت تخرج
منها أصوات المحكومين بالإعدام، لا أثر لأحد، ورغم ضوء الشمس
والبحر الذي يشعّ بعيدا ما بين أشجار النخيل، فقد أحسست بداخلي
بما يشبه الرد.

أخذت الحافلة إلى قرية سان مارتان يوم الأحد الذي أعقب وفاة إليزابيث. فتشت في طريق الينبوع عن باب دارنا، في الأسفل، بأدراجها الحجرية الثلاثة أو الأربعة النازلة. لكل كل شيء أضحى غريبا، وربما أنا التي أضحيت غريبة. لم يعد الجدول الذي كان يعدو في وسط الزقاق، ذاك الذي كان خطيرا مثل نهر، سوى خيط صغير يجرف بعض الأوراق. غدت الأقبية والمرابط القديمة مطاعم ومحلات للبيزة، للمثلجات والهدايا التذكارية. هناك في الساحة بناية مجهولة. بحثت حتى عن الفندق العجيب، المحير، حيث وقفنا في الطابور أنا وأمي وأبي كل صباح لتسجيل أسمائنا في دفتر الدركيين. هناك حيث رقصت راشيل مع الضابط الإيطالي، حيث وضع الدركيون بيانو السيد فيرن المسكين. فهمت في نهاية الأمر أنه هذا الفندق المتواضع، بنجمتيه ومظلماته الكبيرة القديمة وستائر نوافذه البالية. أصبحت الدارة نفسها، دارة السيد فيرن، دارة شجرة القسطل، الغريبة، المهجورة حيث كان يعزف على البيانو، جناحا للعطل، لكنني عرفت شجرة القسطل القديمة. استطعت، وأنا أرتقي على أصابع رجلاي، أن أقطف ورقة عريضة، محززة بدقة، ذات لون أخضر باهت.

سرت في أسفل القرية إلى المنعرج الذي يمكن أن نبصر منه السيل والمضيق المعتم الذي كنا نسبح فيه، كما في عمق وادي خفي، أحسست كذلك بالماء البارد يوقف شعر بشرتي، وبحرقه الشمس. سمعت طنين الزنابر، وشعرت بالخذ الأملس لترستان على صدري وهو

يستمتع إلى نبضات قلبي، ربّما سمعت ضحكات الأطفال، الصراخ الحاد للفتيات اللائي يرشهنّ الأطفال، الأصوات المنادية كما في السابق: «ماريز! صونيا!» انقبض قلبي وصعدت إلى القرية بسرعة.

لم أجرؤ على الحديث مع أحد. والحال أنّ الشيوخ ماتوا، ورحل الشباب. أهمل كلّ شيء، ما في ذلك شك. كان السياح يتجولون في الشوارع مع أطفالهم وكلاهم. ثمّة مرآب في البيت القديم أين كانت النساء يشعلنّ أضواء السبت. رأيت في الساحة، حيث تجمع اليهود قبل رحيلهم عبر الجبل، وجنود الجيش الإيطالي الرابع يصعدون الربوة تاركين القرية للألمان، لاعبي الكرة الحديدية، السيارات المتوقفة، السياح الذين يأخذون صوراً ومجلدة سمراء فاتحة. بقيّ النيوع وحده يسيل في الحوض، كما في السابق، قاذفا الماء من مصبّاته الأربعة للأطفال الذين يأتون للشرب واقفين على المثابة.

وإذ لم تكن هناك وسيلة أخرى، لجأت إلى الاستيقاف على طريق نوتر-دام دي-فينيستر. توقفت سيارة تقودها فتاة شقراء، كان بداخلها رجل أسمر ذو هيئة إيطالية وفتاة أخرى سمراء داكنة ذات عينين سوداوين جميلتين. صعدت السيارة الطريق، عبر غاية الأرزية، في دقائق معدودة، إلى غاية المعبد.

نظرت بلا تأثر إلى الطريق الذي مررنا به، أنا وإليزابيث. حاولت عبثاً رؤية الفسحة التي نمت فيها، قريبا من السيل. حاول الشباب مخاطبتي في السيارة، قال لي الفتى شيئا من نوع: «هل تأتين إلى هنا لأول مرة؟» نفيت، لم تكن المرّة الأولى، جئت إلى هنا قبل مدّة طويلة. غطّلت السحب القمم في طرف الطريق، في أعلى منخفضات الجبال. العمارات التي نمت فيها، معسكرات الجنود الإيطاليين، المعبد، مازال كلّ شيء في مكانه، لكنّه تمّ نزع شيء ما، كأنّها لا تحمل المعنى ذاته.

هناك الآن ناد للتسلق في البناية التي نمنا فيها، قبالة معسكرات الجنود، ومع ذلك وضع الشباب الحقايب هناك لقضاء الليلة. رغبت في لحظة ما في مرافقتهم، في النوم هناك، لكن ذلك كان مستحيلا، «حتى في هذا الفصل يجب حجز المكان قبل أسبوع.» حارس المأوى هو الذي قال لي ذلك بصوت غير مبال. كان الأمر أقل صعوبة في ما مضى.

ولما كان الوقت متأخرا، لم تكن لي شجاعة المشي في الدرب الحجري حيث يتردد السياح. جلست حينها في المنحدر، غير بعيد عن المعسكرات، محتمة من الريح بجدار صغير من الحجارة، ونظرت إلى الجبل، أو بالأحرى إلى حيث نظرت إلى أن التهبت عيناى وارتعدت من الدوار، حين كنت أنتظر أبى الذي سيلتحق بنا. لكنى أعرف اليوم أنه لا يستطيع المحي.

في يوم رحيلنا بالذات، أنا وأمي في طريق إيطاليا، كان أبى يرافق جماعة من الفارين عبر طريق الحدود، في أعلى بورتمون، حوالي منتصف النهار، عندما فاجأهم الألمان، صاح عميل الغستابو «اجروا! اهربوا!» ولكنهم، عندما حاولوا الهرب عبر الأعشاب الطويلة، حصدتهم رشقة رشيشة وسقطوا تباعا، الرجال، النساء، الشيوخ والأطفال. روت ذلك شابة اختبأت في الأدغال، ثم في زريبة مهجورة. لهذا رجعت إليزابيث إلى فرنسا، حتى تكون في الأرض التي توفي فيها زوجها، كتبت ذلك في رسالة طويلة، على صفحات كراس مدرسي، بخطها الدقيق الأنيق. كتبت اسم أبى ميشال جريف وأسماء كل الذين سقطوا معه في العشب، في أعلى بورتمون، ماتت هي اليوم في الأرض نفسها، وجسدها الآن مدفون في مرداس حديدي أحمله معي.

مشيت قليلا في طريق سان مارتان، سمعت خرير الشلال الهادئ وزججرة العاصفة من خلفي، في مدرج السحب. أخذني سياح إنجليز في

سيارتهم إلى القرية، ورغم الفصل فقد عثرت على غرفة في فندق، في أسفل الشارع المركزي، في بيت قديم لا أعرفه.

استطعت مع ذلك رؤية الناحية التي مات فيها أبي في بورتون. أخذت الحافلة باكرا في اليوم التالي إلى مفترق الطرق ومشيت إلى أسفل الوادي، إلى غاية الفندق المهجور، هناك حيث كانت الحمامات سابقا. تابعت السلم في أعلى السيل الكيريتي، ثم الدرب الضيق الذي يصعد باتجاه الجبل. كانت السماء رائعة. تصوّرت أنّ فيليب وميشال كانا سيحبان رؤية هذا، ضوء الصباح الذي يسطع على المنحدرات العشبية وعلى الصخور. تبدو الجبال العالية الزرقاء في الجهة الأخرى من فيزيبي خفيفة كالسحب.

منذ وقت طويل لم أسمع هذا السكون، لم أذق هذا الهدوء، فكرت في البحر، كما رأيت ذات صباح وقد أخرجت رأسي من قعر سفينة الإخوة السبعة، كان ذلك من البعد بحيث يبدو خرافة. تصوّرت أبي في تلك السفينة، في لحظة ملازمة الشمس حافة العالم وإضاءة ذرى الأمواج. كذلك كان يتحدث عن أورشليم، المدينة الضوئية، كما لو أنّها سحابة أو سراب فوق الأرض الجديدة. أين هي هذه المدينة؟ هل هي موجودة حقا؟.

توقفت على حافة الجبل، في الموضع الذي تبدأ فيه حقول النباتات، حيث كان ماريو يبحث عن الأفاعي، حيث حلمت برؤية أبي. كانت الشمس تضرب بقوة، تسطع في كبد السماء وتلتقط الظلال بأعداد كبيرة. كان الوادي لا يزال في ظلّ الصباح الضبابي، لم يكن هناك أي طيف بشري، ولا بيت، ولا صوت. منحدر الأعشاب يصعد إلى السماء، كما لو أنّه يصعد إلى اللانهاية، وكان الطريق هو الأثر الوحيد.

أدركت أنهم مرّوا من هنا، أبي في المقدمة، وخلفه الفارون، على خط واحد، نساء ملفوفات في حماتهن، أطفال نائحون أو غير مبالين، والرجال في الخلف يحملون الحقائب، أكياس المؤونة والأغطية القطنية. تابعت الصعود عبر الأعشاب الطويلة بقلب خافق، كان ذلك في نهاية الصيف، كما لو أننا نبصر عمق الفضاء، رائحة الأعشاب المحترقة وأصوات الجراد الحادة. وهناك في أعالي الوديان المعتمة طيور الحدأة التي تحوم مرسلّة أناتها. قلبي ينبض لأنّي ذاهبة نحو الحقيقة.

مازال كل شيء هاهنا، لم أنس، كان ذلك البارحة عندما كنا نسير، أنا وأمي، في طريق الحجارة الحادة، باتجاه أسفل الوادي نحو إيطاليا، عبر سحب العاصفة. كانت النساء جالسات على قارعة الطريق، صرهن مطروحة بجانبهن ونظراتهن جافة وجامدة. العشب مسكر هنا، كما العطر المثير، ربّما حشّه مزارعو القرية وبدأ يتخمّر. العرق يسيل على جبيني، على ظهري وأنا أمشي على طول الدرب نحو أعالي المنحدر العشبي. أنا الآن في مرج شاسع يصل إلى صحور القمم، من العلوّ بحيث لم أعد أرى أسفل الوادي. نزلت الشمس من جديد نحو الجبال الزرقاء، في الجهة الأخرى من المنحدر، السحب منتفخة، رائعة. أسمع هزيز الرعد في جهة ما.

أمامي أكواخ الرعاة، إنّها أكواخ من الحجر الجاف، لا عمر لها. ربّما كانت هنا قبل أن يشيّد البشر مدّهم، معابدهم وحصونهم. أحس بداخلي ما يشبه قشعريرة كلّما اقتربت من الأكواخ، تكبير رغم الشمس والرائحة المسكرة للأعشاب الطويلة التي تتخمّر، وفجأة، أعرف هذا، أنا متأكدة، هاهنا. كانوا محتبئين هنا، في الأكواخ الحجرية. لما وصل الفارون إلى السهل خرج القتلة ورشيشاتهم على الورك، صرخ أحدهم بالفرنسية: «اهربوا، بسرعة، بسرعة، اهربوا!»

اذهبوا، لن نؤذيكُم!» رجل من الغستابو هو الذي صرخ هكذا، كان يرتدي كنزة رمادية أنيقة، وعلى رأسه لبدة. شرع الأطفال والنساء والعجائز والرجال في الجري عبر الأعشاب الطويلة مثل بهائم مذعورة. ضغط حينها البوليس العسكري على الزناد وكتّست الرشيّشات حقل العشب جاعلة الأجساد ترقد فوق بعضها البعض، وغرق صراخ الخوف في الدم. لازال آخرون أحياء، رجال يريدون الهرب نحو أسفل المنحدر، عبر الممرّ الذي صعّدوا منه، لكنّ الرصاصات أصابتهم في الظهر. سقطت في العشب الرزم والحقائب والأكياس، وتناثرت الملابس والأحذية، كما في اللعب. ترك العساكر المتاع، سحبوا الأجساد من الأرجل إلى أكواخ الرّعاة وتركوها هناك تحت أشعة الشمس.

بدأ المطر يسقط مساء على المنحدر العشبي، على أكواخ الحجارة. ينزل الممرّ عبر الأعشاب الطويلة باتجاه الوادي المليء بالظلال، كما في ما مضى، لما كانت الشفرات القاطعة تصل إلى الشفتين، لما لم أكن أعرف أين أنا. لم يعد أيّ أحد يأتي إلى هنا. ربّما تأتي في نهاية الصيف قطعان من الخرفان يقودها عجوز أصمّ يتحدث مع كلبه ويصفّر، ويجلس على حجر لرؤية السحب المنزلة.

نزلت الجبل شبه راکضة عبر الأعشاب الطويلة، سالكة الدرب الزلق. أما زالت هنا الأفاعي المتشابكة في مواجهة عاطفية؟ أما زال هناك من يعرف كيف يناديها مثل ماريو، بهدوء، مصفّرا بين أسنانه؟ كل شيء يدور من حولي، كأني الكائن الحيّ الوحيد، آخر امرأة تنجو من الحرب. يبدو لي الآن أنّ مدينة الأضواء، أوّشليم، تلك التي كان أبي يريد رؤيتها، كانت في الأعلى، على منحدر العشب هذا، بكل قبها وماذنها التي تربط العالم الأرضي بالسحب.

كان الظلّ دافئاً في الوادي، وكان المطر ينزلق على الطريق
بصوت ناعم. أخذتني شاحنة إيطالية إلى نيس. عرفت الشيء الذي
جئت أبحث عنه، سيكون فيليب وميشال هنا بعد يومين. أحبهما.
سأذهب معهما إلى الجهة الأخرى من البحر، إلى بلدي حيث الضوء
بهيمٍ، إنّه يسطع خاصة في عيون الأطفال، العيون التي أريد أن أطرد منها
الأم. أعرف أنّ كلّ شيء سيبدأ. وأفكر في نجمة، أختي التي ضاعت
منذ أمد في سحابة غبار الطريق، التي يجب علي العثور عليها.

البحر جميل في الغسق. يخلط الماء بالأرض والسماء، هناك ضبابة تتسكع، مغطية الأفق بشكل خفيّ، وثمة سكون رغم حركة السيارات، ورغم ضجيج السكان. كل شيء هادئ في الحاجز المائي حيث تجلس إستير. إنها تنظر إلى الأمام ولا تكاد تطرف. منذ عدّة أيام وهي تأتي إلى هذا المكان مع أفول الشمس لتنظر إلى البحر، ستكون آخر مرّة هذا المساء. سيأتي غدا فيليب وميشال وسيأخذون القطار إلى باريس، إلى لندن، يجب الرحيل من أجل النسيان.

يأتي الصيادون كلّ مساء وفي التوقيت نفسه ليجلسوا. يحضرون طعمهم بعناية، قصب الصيد، البكّارات، حركاتهم دقيقة وواثقة. إستير تحب النظر إليهم. إنهم منشغلون جدا ومهتمون، كأنّ الباقي مجرد أحلام، خرف، خيال مجنون يهذي وحيدا في رواق مشفاه. تتصوّر إستير وقتئذ أنّ الحقيقة هي هذه، هؤلاء الصيادين في ضوء الغسق، خيوط الصنارات التي يلقونها الآن في البحر، الرصاص الذي يصفرّ ويهاجم الأمواج الرّخوة، وبرق الضوء وقت اختفاء الشمس المنبسطة خلف الضباب. يضع نظر إستير في المساحة الشاسعة السنجائية التي أمامها، ثم يستقرّ على سفينة صغيرة واحدة، على قارب واحد، دقيق ومثلث يعبر الضباب ببطء.

إنّها نهاية الصيف أيضا. النهارات أقصر والليل يأتي فجأة. تقشعر إستير رغم الهواء المعتدل. أشعل الصيادون مذياعا على الصخور البارزة على الشطّ، تأتي الموسيقى في نفخات مع الريح، صوت امرأة تغني

عالياً، كأنه نشاز، وهناك خشخشة الطفيليات بسبب العواصف في الجبال.

يستدير الحوَّاتون من حين إلى آخر وينظرون إليها بشكل هازئ. يقولون أشياء بلغة نيس، تظن أنهم يتحدثون عنها لأنهم يضحكون قليلاً. بعضهم شباب في سنّ ابنها، بشرتهم سمراء داكنة، هيئة إيطالية وقمصان وردية ذات أكمام قصيرة. ماذا يمكنهم أن يقولوا عنها؟ وجدت صعوبة في حدىس هذا وهي بذلك اللباس، كشحاذة بشعرها القصير الذي بدأ يشيب ووجهها الذي لا يزال طفولياً وقد لفحته النهارات المشمسة في الجبل، ولكنها سعيدة نوعاً ما بسماع أصواتهم موسيقاهم الفظة وضحكاتهم، وهذا دليل على أنهم حقيقيون، على أنّ كل هذا قائم، هذا البحر البطيء، كتل الاسمنت هذه، وهذا الشراع الذي يتقدم في الضباب. لن يختفوا. تحسّ أنّ الهواء الخفيف والضباب المضيء يحتاجها. التأم البحر بتكراره وألق الضوء المنكسر. إنّه وقت انقلاب كل شيء، تحوّل كل شيء. منذ وقت طويل لم تعرف سلاماً كهذا، جنوحاً كهذا. تتذكر جسر السفينة ليلاً، عندما لم يكن هناك لا برّ ولا زمان. كان ذلك بعد ليفورنو، وربما أقرب من الجنوب عند عبور مضيق مَسِينا. رغم منع النقيب، تسلّقت إستير السلم وحبّت على الجسر في الريح الباردة إلى المركز الأمامي، باحتياطات لصّ. سيلفيو هو الذي كان في نوبة الحراسة وتركها تفعل ذلك، دون أن يقول لها شيئاً، كأنه لم يشاهدها. تتذكر اليوم إستير كيف كانت السفينة تنزلق في البحر الأملس، غير مرئية في الليل، تتذكر صوت الجوّجُوّ واهترازات المحرّك تحت الجسر.

كان المذياع مشعلاً والبحارة يسمعون موسيقى خنّاء مقطّقة كالتي يسمعونها الآن الحوَّاتون. كانت الإذاعة الأمريكية، في صقلية وفي

طنجة، موسيقى الجاز تحرق الليل في نفحات، كما اليوم، لم نكن نعرف أين، نحن الضائعين في الفضاء. يتعد، يعود الصوت القوي الأبح، يبلي هوليداي الذي يغني الوحدة والسيدة المتكلفة، أدا براون، جاك ديري، أصابع ليتل جوني على البيانو. جاك هو من علمه الأسماء لاحقاً، لما كانا يسمعان أسطوانات على الحاكي القديم في غرفة نورة، برامات يوحانان. غيرة القلب.

تذكر إستير النعمة، تعنيها بصوت خفيض عندما كانت تسير في الشارع، ذاك ما وجدته في كندا، الموسيقى في شقة جادة نوتر- دام التي ساعدتها على العيش في الوحدة والبرد، في المنفى. تنزلق اليوم على الموسيقى القادمة من مدياع الصيادين أمام كاسر الأمواج، قدام البحر الذي أصبح أسود. تتذكر إذا، ما كان يعنيه السفر نحو المجهول، نحو الضفة الأخرى من البحر، لكن قلبها ينقبض لأنها تتصور أن هذا ليس موجوداً بالنسبة إلى إليزابيث، ولن يكون هناك سفر.

توقفت السفينة عن الانزلاق في البحر المصقول وقد حملتها موسيقى يبلي هوليداي وقت توقّف إليزابيث عن التنفس، ماتت ليلاً، وحدها على سرير الأحزمة، دون أن يمسك بيدها أحد. دخلت إستير الغرفة ورأت الوجه الشديد البياض، المقلوب على الوسادة والبقعة المعتمة على الجفنين، انحنى على الجسد البارد اليابس وقالت: «ليس الآن، أرجوك. ابق قليلاً! أريد أن أحدثك عن إيطاليا، عن الإمارة.» قالت ذلك بصوت مرتفع وهي تضغط على اليد الباردة لتدخل قليلاً من الحرارة في الأصابع الميتة. دخلت الممرضة وبقيت واقفة أمام الباب، دون أن تنبس ببنت شفة.

كلّ هذا يتعد الآن. كما في عالم آخر، عالم تختلف فيه الأضواء، حيث لكل شيء لون آخر، ذوق آخر، وحيث الأصوات تقول شيئاً

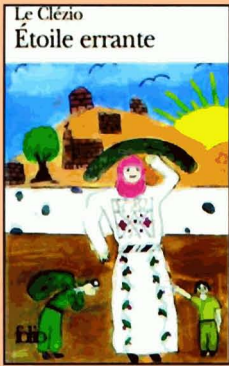
آخر والعيون لها نظر آخر. صوت أبيها الذي يذكر اسمها هكذا، إستيرليتتا، النجمة الصغيرة، صوت السيد فيرن، صوت الأطفال الذين يصخبون في الساحة بسان مارتان، صوت ترستان، صوت راشيل، صوت جاك بيرجي عندما كان يترجم كلمات الحاخام جويل في سجن تولون. صوت نورة، صوت لولا. مرعبة هذه الأصوات التي تنأى. الآن وقد جنّ الليل، تشعر إستير بالدموع الوشيكّة، لأوّل مرّة منذ سنوات، منذ فارقت طفولتها، اتمّرت الدموع من عينيها وسالت على خديها. لم تعرف لماذا كانت تبكي. عندما مات جاك في روابي طيرية، جاء ثلاثة جنود إلى الكيوتز لإعلان النبأ، رجلان وامرأة. قالوا إنهم يعتذرون، لقد توفي جاك يوم 10 يناير ودفن. ورجعوا في الحال. كانت لهم وجوه ودیعة جدا.

لم تبك إستير وقتذاك. ربّما لم تكن آنذاك دموع في جسدها بسبب الحرب، ربّما بسبب ضوء الشمس في الحقول، في المزارع، ضوء يلتصق بشعر يوحانان الأسود بسبب السكون وألق السماء. تحسّ الآن بالدموع تأتي إلى عينيها، كأنّ البحر هو الذي يصعد إلى مقلتيها. كانت إستير تحمل في الحقيبة التي تلازمها يوميا، عبر شوارع المدينة إلى أعالي الجبال، وفي منحدر العشب حيث مات والدها، المرّاس الحديدي الذي يخبّي الرماد. الريح التي تمبّ على الكتل الإسمنتية دافئة، تأتي في شكل رشقات حاملة معها النغمة الموسيقية الخناء، كأنّ بيلي هوليداي هو الذي يغني وحدة في ناحية مضيق مسينا، والحال أنّه شيء آخر.

تأخذ ریح الليل الرماد الذي يخرج من العلبة الحديدية وتوزعه في اتجاه البحر، تعيده أحيانا زوبعة إلى إستير، تعميها، تذروه على شعرها. ألقّت إستير بالعلبة بعيدا لما فرغت، ما جعل الحواتين يستديرون لوصولها، ثم أغلقت الحقيبة وقفزت من كتلة إلى كتلة على طول مصدّ

الأمواج. مشت عبر الأرصفة، أحست بتعب شديد وراحة كبيرة.
هناك خفافيش ترقص حول المرايا العاكسة.

خلال صيف 1943، في قرية صغيرة تقع في منطقة نيس الفرنسية والتي حولها المحتلون الإيطاليون إلى غيتو، تكتشف «إستر» المراهقة الهادئة معنى أن يكون المرء يهودياً في زمن الحرب، وتعرف معنى الشعور بالخوف والمهانة والهروب بين الجبال ثم موت والدها. عند نهاية الحرب تقرر «إستر»



ووالدتها الالتحاق بـ«دولة إسرائيل». وخلال رحلتها على متن سفينة مكتظة تتقاذفها العواصف، اكتشفت «إستر» قوة الصلاة والدين. ولكن الأرض الموعودة لم تمنحها السلام.

فعند وصولها تصادف وبشكل خاطف كالحلم «نجمة» التي تغادر بلدها ضمن قوافل الفلسطينيين الفارين باتجاه مخيمات اللجوء.

«إستر» اليهودية، و«نجمة» الفلسطينية، لم تلتقيا أبداً بعدها، تبادلتا نظرة واسميها فقط، غير أنهما في منفاهما لم تتوقف الواحدة منهما عن التفكير في الأخرى، فصلت بينهما الحرب وظلتا تصرخان في وجه تلك الحرب.

تُعتبر رواية «نجمة تائهة» بمثابة رحلة نحو وعي الذات، فما دام الشر موجوداً وما دامت فكرة اللجوء إلى العنف غير مرفوضة تبقى «إستر» و«نجمة» نجمتين تائهتين.



منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.asppbooks.com

